

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ



الجامعة الإسلامية - غزة

عمادة الدراسات العليا

كلية الآداب - قسم اللغة العربية

البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني (فتح القدير)

إعداد الطالب

محمود سليمان أحمد مسمح

إشراف الأستاذ الدكتور

محمد شعبان علوان

قدم هذا البحث استكمالاً للحصول على درجة الماجستير في البلاغة العربية

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

ملخص البحث

يعتبر تفسير الشوكاني المعروف بـ (فتح القدير) من أمهات كتب التفسير ، وقد ضمنه الكثير من فنون البلاغة والتي تظهر إعجاز القرآن الكريم ، وفي هذا البحث تناولت تلك الفنون البلاغية التي تحدث عنها الشوكاني ، لأبين تمكن هذا العالم من علوم البلاغة وقدرته الإبداعية في هذا المجال ، إضافة إلى دراسة فنون البلاغة الثلاثة في هذا التفسير .

وقد استدعت طبيعة البحث أن تتوزع مباحثه على مقدمة ومدخل وخمسة فصول .

تحدثت في المدخل عن حياة الشوكاني ومكانته العلمية ، وجعلت الفصل الأول للحديث عن علم المعاني ، والفصل الثاني تناول علم البيان ، أما الفصل الثالث فكان للمحسنات البديعية ، وتناولت في الفصل الرابع منهجه في التفسير ومكانته العلمية ، وفي الفصل الخامس تحدثت عن النواحي البلاغية التي تظهر باختلاف القراءات القرآنية .

وقد ظهر لي في نهاية البحث أن الإمام الشوكاني يعتبر عالماً من علماء البلاغة الذين كان لهم دور كبير في دراسة هذا العلم من علوم العربية، إضافة إلى أنه وضح الفنون البلاغية التي تظهر تبعاً لاختلاف القراءات القرآنية، ودرسها دراسة متعمقة.

وكذلك كانت له آراء بلاغية جديدة ، عارض آراء بعض العلماء السابقين وذكر أغراضاً بلاغية لبعض فنون علم المعاني ، لم يذكرها من سبقه من علماء البلاغة.

وقد هدف هذا البحث إلى إثبات شرعية دراسة البلاغة وصلاحيتها لكل عصر في الوقت التي تحارب فيه اللغة العربية وعلومها ، وخاصة علم البلاغة .

Research Summary

Al – Shawkani explanation (Fateh Al-qadeer) is considered one of the well –known reference in which he involved many of rhetoric arts that indicate the Quran miracle .

In this research , I handled these rhetorical arts which Al – Shawkani talked about to show the knowledge of this man of the rhetoric science and his creative ability in this field .

The nature of my research demanded to divide it into : introductory, entrance and five chapters .

In the introductory I talked about Al- Shawkani's both life and scientific status .

In the first chapter I talked about the Meaning science .

In the second chapter I handled Al- bayan science .

In the third chapter I talked about the creative beautifiers .

In the fourth chapter I handled Al- Shawkani's procedure in explanation and his scientific status .

In the fifth chapter I dealt with the rhetorical aspects which appeared in the various Quran readings .

By the end of my research it became clear that Al- Shawkani is one of the scientists who play important roles in studying this language science .

Al-Shawkani _ in his explanation _ handled the three rhetorical arts and talked about the majority of its subjects .

He also talked and explained the rhetorical arts which appeared as a result of the differences in the Quran readings and he studied them deeply .

Moreover , he has his own rhetorical contributions that opposed with some of the previous scientists , opinions .

He also mentioned things that hadn't been mentioned before by any of the former scientists .

Since we see the attack on the Arabic language and its sciences this research aimed to prove the legality and validity of the rhetoric science in every time .

إهداء

- * إلى الأيدي الحانية أمي وأبي
 - * إلى اللذين لم يبخلا علي يوماً بعطائهما وحبهما ...
 - * إلى إخوتي وأخواتي
 - * الذين شملوني برعايتهم
 - * إلى زوجتي الوفية وابنتي
- أهدي بحثي هذا .

شكر وتقدير

أرفع أسمى آيات الشكر والعرفان والتقدير إلى أستاذي الكريم الأستاذ الدكتور محمد شعبان علوان الذي حفني بعنايته ورعايته وأخذ بيدي في خضم هذا البحث حتى أوصلني إلى بر الأمان فله مني كل تقدير واحترام .

كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية الذين تلقيت على أيديهم حب اللغة العربية والولوج في رحابها .

وأقدم شكري وتقديري للجامعة الإسلامية التي وفرت لنا مجال الدراسات العليا وخاصة في قسم الآداب .

إلى كل هؤلاء أقدم خالص حبي وتقديري سائلاً الله عز وجل أن يحفظهم وينفع بهم الإسلام والمسلمين .

المقدمة

الحمد لله منزل القرآن رحمة للناس ، جعل بيانه وجهاً من وجوه إعجازه ، فتحدى به العرب والعجم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يَأْتِيَ بَعْضُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ بِعَظْمٍ وَمِنْ فَسَادِ الْمَاءِ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ^(١) ، والصلاة والسلام على رسوله محمد معلم البشرية ، القائل : " أوتيت جوامع الكلم " ، وعلى آله وصحبه وسلم ، أما بعد

فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة ، وحجة الله البالغة ، وآياته المتجددة ، أيد الله - عز وجل - به رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهو الخطاب الموجه لكل العقول والأفهام ، معجزة لكل جيل وقبيل ، خصه الله سبحانه بحسن بيانه ، وكان إعجازه في بيانه وجهاً من وجوه الإعجاز ، تحدى به العرب أهل الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الرد عليه ، قال تعالى : ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ ^(٢) .

ومن هذا المنطلق كثرت الدراسات القرآنية حول القرآن الكريم ، التي وقفت للنظر في إعجازه ، وتتنوع النظرات واختلفت المدارس في بحث الإعجاز ، فألف الواسطي أول كتاب في إعجاز القرآن ، وهو لم يصل إلينا ، وأشهر من تكلم عن إعجاز القرآن الرماني في رسالته (النكت في إعجاز القرآن) ، والخطابي في رسالته (بيان إعجاز القرآن) ، والباقلاني في رسالته (إعجاز القرآن) ، إضافة إلى الجاحظ والنظام وابن قتيبة ، ثم عبد القاهر الجرجاني القائل بنظرية النظم القرآني في كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) .

وقد اهتمت كتب التفسير ببيان الإعجاز القرآني ، وأظهرت في ثناياها علوم البلاغة من معانٍ وبيانٍ وبديعٍ لخدمة الإعجاز القرآني ، ومعرفة أحواله ، ومن هذه الكتب : كتاب (الكشاف) للزمخشري ، وكتاب (مفاتيح الغيب) للفخر الرازي ، وكتاب (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم) لأبي السعود ، وغيرها من الكتب ، ومنها أيضاً كتاب (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) للإمام الشوكاني ، والذي أرغب في دراسة الجانب البلاغي فيه .

(١) الإسراء ٨٨ .

(٢) النحل ١٠٣ .

أسباب اختيار البحث :

- لما كان من أبرز وجوه إعجاز القرآن في بيانه وسحره الفني ،فقد رغبت في دراسة بلاغة القرآن الكريم وتعلمها والحصول على الأجر من الله ، فوجدت أن كتاب (فتح القدير) للإمام الشوكاني من كتب التفسير التي تناولت الجانب البلاغي للقرآن الكريم في كثير من آياته ، وقد ظهرت جهوده واضحة في هذا الجانب ، فرغبت في دراسة الجوانب البلاغية في هذا الكتاب .
- دراسة علوم البلاغة من خلال كتب التفسير التي لا يمكن أن تتفصل عنها حيث يظهر من خلالها إعجاز القرآن .
- إثراء المكتبة العربية بآراء بلاغية لعالم من علماء التفسير الذين جمعوا بين التفسير بالرواية والدراية ، واهتموا بما يقتضيه النظم القرآني .
- اهتمام عدد من الباحثين بدراسات مشابهة والرغبة في إكمال الجهود السابقة .
- أن هذه الدراسة تأكيد على شرعية الدرس البلاغي في هذا العصر وفي كل العصور .

منهج البحث :

اعتمدت في هذا البحث على منهجين : الأول : المنهج الاستقرائي فقامت بقراءة كتاب (فتح القدير) واستخرجت ما فيه من مسائل بلاغية وقراءات قرآنية تناولت الجانب البلاغي لتكون مادة علمية أستعين بها في بحثي ، والثاني : المنهج المقارن حيث وزعت هذه المادة العلمية لتتناسب مع عناوين ومباحث هذا البحث وقارنتها قدر الإمكان بتفسير أخرى .

وقد قسمت هذا البحث إلى مدخل وخمسة فصول إضافة إلى المقدمة والخاتمة . وتناولت في المدخل نسب الشوكاني ومولده ووفاته ، ثم نشأته ومكانته العلمية وشيوخه وتلاميذه وآثاره العلمية .

أما الفصل الأول : فتحدثت فيه عن فنون علم المعاني من خلال عنوان (التراكيب النحوية من الوجة البلاغية) وحصرت موضوعاته في : الخبر ، والإنشاء بنوعيه : الإنشاء غير الطلبي ثم الإنشاء الطلبي وموضوعاته هي : الأمر ، والاستفهام ، والنهي

والنداء ، ومن موضوعات علم المعاني التي ذكرها الشوكاني أيضاً : التكرار ، والتعريف والتكبير ، والتقديم والتأخير ، وأسلوب القصر ، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر ومن صورته : الالتفات ، ووضع الظاهر موضع المضمرة ووضع المضمرة موضع الظاهر ، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ، والتعبير عن الماضي بلفظ المستقبل ، والتغليب ، ووضع المفرد موضع الجمع ، ووضع الجمع موضع المفرد ، ووضع المفرد موضع المثني ، ووضع المثني موضع الجمع ، ووضع الجمع موضع المفرد ، وأسلوب الحكيم وتحدثت أيضاً عن عطف الخاص على العام ، وعطف العام على الخاص .

أما الفصل الثاني : وهو بعنوان (الصور البيانية في تفسير الشوكاني) ، وتحدثت فيه عن مسائل علم البيان التي بينها (الشوكاني) في تفسيره ، وهي : التشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، والكناية ، والتعريض .

أما الفصل الثالث : فكان بعنوان (المحسنات البديعية) تكلمت فيه عن فنون علم البديع التي تناولها الشوكاني ، وقد حصرتها في : التجريد ، واللف والنشر ، وتأكيده المدح بما يشبه الذم ، والمماثلة ، والاستطراد ، والتورية ، والمشاكلة ، والتضمين ، والجناس .

أما الفصل الرابع : فعنوانه بـ (مكانة فتح القدير بين كتب التفسير) وجعلته في أربعة مباحث :

المبحث الأول : منهجه في التفسير

المبحث الثاني : منهجه البلاغي .

المبحث الثالث : تأثيره بالسابقين وذكرت منهم خمسة هم : الفراء ، والزجاج ، والزمخشري ، وابن عطية ، وأبو السعود .

المبحث الرابع : تأثيره في اللاحقين وذكرت منهم القاسمي فقط .

أما الفصل الخامس : فهو الوجهة البلاغية في توجيهه للقراءات القرآنية .

ثم كانت الخاتمة والتي ضمنيتها أهم النتائج التي خرجت بها من هذا البحث .

هذه هي موضوعات بحثي التي استطعت أن أجليها بكل موضوعية ، ولا أدعي أنني لم أترك واردة أو شاردة إلا وذكرتها ، فإن هذا مما لا يستطيعه البشر ، فالكمال لله وحده ، ولعل باحثاً مجداً يضيف أو يغير أشياء قد غفلت عنها أو نسيتها ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت هو رب العرش العظيم .

المدخل

الإمام الشوكاني

اسمه ونسبه:

هو محمد بن علي بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن صلاح بن علي بن عبد الله الشوكاني، الخولاني، ثم الصنعاني (أبو عبد الله) ^(١). فقيه، محدث، مفسر، عالم جليل، وفي فهرس الفهارس "هو الإمام خاتمة محدثيه المشرق وأثره العلامة النظار الجهبذ القاضي" ^(٢).

ولد في وسط نهار يوم الإثنين الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣هـ في هجرة شوكان وهي قرية من قرى السجامية إحدى قبائل خولان ولم تخل شوكان من علمائها الذين قاموا بدور كبير في النضال ضد الأتراك، وتولى بعضهم مناصب القضاء بعد خروجهم ومن أشهرهم في العصر الحديث شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني ^(٣). ونشأ في صنعاء، وتربى في كفالة والده، وكان والده من كبار علماء صنعاء وقضاتها، قرأ القرآن على جماعة من

(١) معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة، ج٣/ ٥٤١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
وانظر ترجمته في: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: الشوكاني، تحقيق حسين بن عبدالله العمري، ج٢/ ٢١٤، ٢١٥، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
وفهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيوخ والمسلسلات، الكتاني، بإعتناء إحسان عباس، ج٢/ ١٠٨٢-١٠٨٨، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.
هجر العلم ومعاقله في اليمن: القاضي اسماعيل الأكوغ، ج٤/ ٢٢٥١-٢٢٥٣، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

معجم المطبوعات العربية والمعربة: يوسف سركريس، ج٢/ ١١٦٠، ١١٦١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
الأعلام: لخبر الدين الزركلي، ج٦/ ٢٩٨، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٣، ١٩٩٧م.
فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني تحقيق سيد إبراهيم: ج١/ ١٠٨٣، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
الموسوعة اليمنية: رعاية وإشراف أحمد جابر عفيف، ج٣/ ١٧٩٠-١٧٩١، مؤسسة العفيف الثقافية، صنعاء، ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.

(٢) فهرس الفهارس والإثبات: ج٢/ ١٠٨٣.

(٣) الموسوعة اليمنية: ج٣/ ١٧٨٩.

المعلمين، وجوّده على مشايخ القراءات بصنعاء، وتلقى علمه على شيوخ الزيدية" وكان منجمعا عن بني الدنيا لم يقف بباب أمير ولا قاضٍ ولا صحبٍ أحداً من أهل الدنيا" (١) .

توفي الإمام الشوكاني في جمادي الآخرة سنة ١٢٥٠هـ عن ستٍ وسبعين سنة، ودفن بخزيمة المقبرة المشهورة بصنعاء. (٢) .

شيوخه وتلاميذه:

نشأ الشوكاني في كنف والده الذي كان أحد كبار علماء صنعاء وقضاتها فبذل له المال وساعده على طلب العلم والجلوس إلى العلماء والمشايخ، فكثرت مقروءاته ومسموعاته وتنوعت في مختلف العلوم وخاصة الدينية منها وهذا يدل على كثرة شيوخه الذين أخذ عنهم العلم وقرأ عليهم وسمع منهم ومن هؤلاء العلماء والمشايخ (٣) : والده علي بن محمد الشوكاني، والفقيه حسن بن محمد بن عبد الله الهبل، والعلامة عبد الرحمن بن قاسم المدني، والعلامة أحمد بن عامر الحدائي، والعلامة أحمد بن محمد الحرازي لازمه نحو ثلاث عشرة سنة وأخذ أيضاً عن إسماعيل بن الحسن أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، والعلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والعلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وعلي بن هادي عرهب، والإمام عبد القادر بن أحمد، والعلامة هادي بن حسين القارني، والعلامة عبد الرحمن بن حسن الأكوغ، والعلامة علي بن إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن عامر، والسيد العارف يحيى بن محمد الحوثي، والمحدث يوسف بن محمد بن علاء الدين المزجاجي الزبيدي وصديق بن علي المزجاجي.

أما تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم فهم كثر حيث كان يجتمع إليه التلاميذ قبل أن يفرغ من قراءة بعض الكتب على شيوخه فـ " كثيراً ما كان يقرأ على مشايخه فإذا فرغ من كتاب قراءة أخذه عنه تلامذته بل ربما اجتمعوا على الأخذ عنه قبل أن يفرغ من قراءة الكتاب على شيخه وكانت تبلغ دروسه في اليوم واللييلة إلى نحو ثلاثة عشر درساً منها ما يأخذ عن مشايخه، ومنها ما يأخذ عنه تلامذته واستمر على ذلك مدة" (٤) ، حيث " تصدر للتدريس في جامع

(١) البدر الطالع: ج٢/ ٢٢٤.

(٢) انظر: هجر العلم ومعاقله في اليمن : ج٤/ ٢٢٧٦.

(٣) البدر الطالع: ج٢/ ٢١٥-٢١٨، وانظر فهرس الفهارس: ج٢/ ١٠٨٥.

(٤) البدر الطالع : ج٢/ ٢١٨.

صنعاء، وأقبل عليه طلبية العلم من أماكن شتى ينهلون من معارفه الواسعة، وعلومه المتعددة المختلفة، وفيهم من كان من شيوخه" (١) . وكانت هذه الدروس في مختلف العلوم كال تفسير الحديث والفقهاء وأصوله والعربية والحكمة ولم يقتصر في تدريسه على الكتب التي يرغب الطلاب في قراءتها عنده فحسب بل كان يلقي إليهم مباحث مفيدة مما هدي إليها تأخذ بأيديهم إلى الإهتمام بقراءة علوم القرآن والسنة النبوية" (٢) . وهذا يدل على جلوس عدد كبير من التلاميذ للتعلم على يديه.

ومن هؤلاء التلاميذ (٣) : القاضي عبد الرحمن بن أحمد اليهكلي والذي جعل له ترجمة في كتابه (نوح العود في أيام الشريف حمود).

وأحمد بن محمد بن علي الشوكاني، ومحمد بن ناصر الحازمي. ومؤرخ مكة الشهاب أحمد بن محمد الحضراوي المكي ، ومفتي تعز يحيى بن أحمد المجاهد بن علي اليمني التعزي وأحمد بن حسن المجاهد، والحسن بن أحمد عبد الله عاكش، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين الباعلوي، وأحمد بن علي الشرفي اليمني، وأبو الفضل عبد الحق العثماني المكي المناوي.

ومنهم "لطف الله بن أحمد حجاج الصنعاني، ومحمد بن أحمد مشحم" (٤) ومن أشهر تلاميذه محمد بن حسن الشجني صاحب "كتاب التقصار" في سيرته وذكر مشايخه وتلاميذه" (٥) .

مكانته ومصنفاته

أولاً : مكانة الشوكاني العلمية:

يعتبر الشوكاني إمام عصره ومن كبار علماء اليمن، فقيهاً، مجتهداً، محدثاً، أصولياً، مؤرخاً، أدبياً، نحويّاً، متكلماً، حكيماً، والذي أهله لأن يجمع كل هذه الصفات والألقاب اهتمامه

(١) هجر العلم ومعاقله في اليمن: ج٤/٢٢٥٢.

(٢) هجر العلم ومعاقله في اليمن: ج٤/٢٢٣٢.

(٣) فهرس الفهارس: ج٢/١٠٨٨، ١٠٨٦.

(٤) فتح القدير: ج١/٢٣.

(٥) الأعلام: ج٦/٢٩٨.

بالعلم وجلوسه للتعلم ومتابعته للعلماء فقد أُقبل على طلب العلم بهمة لا تعرف الكلل أو الملل فكثرت مقروءاته ومسموعاته والتي كان لها الأثر الكبير في وصوله إلى تلك المكانة الرفيعة في العلم فقرأ القرآن وجوده على جماعة من مشايخ القرآن بصنعاء، ثم حفظ الأزهار للإمام المهدي ومختصر الفرائض للعصيفري والملحة للحريري والكافية والشافية لابن الحاجب، والتهذيب للفتازاني، والتلخيص للقزويني، والغاية لابن الإمام وبعض مختصر المنتهى لابن الحاجب، ومنظومة الجراز في العروض وآداب البحث للعضد، ورسالة الوضع له أيضاً وكان حفظه لهذه المختصرات قبل الشروع في الطلب وبعضها بعد ذلك ثم قبل شروعه في الطلب كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التواريخ ومجاميع الأدب من أيام كونه في المكتب فطالع كتباً عدة ومجاميع كثيرة^(١) هذه الكتب والمجاميع التي حفظها قبل الطلب والجلوس إلى العلماء تدل على قدرته على الحفظ والفهم وسعة علمه، ثم شرع في الطلب وبدأ في قراءة ما حفظه على مشايخه وعلماء عصره في اليمن، إضافة إلى كتب أخرى مثل^(٢): شرح الأزهار وشرح الناظري لمختصر العصيفري، وبيان ابن مظفر والملحة وشرحها في النحو، وكذلك قواعد الإعراب وشرحها للأزهري، وشرح السيد المفتي على الكافية، وشرح الخبيصي على الكافية وحواشيه، وشرح الجامي، وشرح الرضى على الكافية، وقرأ شرح الشافية للطف الله الغياث، وشرح ايساغوجي للقاضي زكريا، وشرح التهذيب للشيرازي واليزدي، وشرح الشمسية وحاشيته للشريف، وشرح التلخيص المختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث، والشرح المطول للسعد الفتازاني وحاشيته للشلبي، وشرح الغاية، وشرح العضد على المختصر وشرح جمع الجوامع للمحلي، وشرح القلائد للنجري، وشرح المواقف العضدية للشريف، وشرح الجزرية، وشفاء الأمير الحسين، وكذلك قرأ البحر الزخار وحاشيته وتخريجه، وضوء النهار على شرح الأزهار والكشاف وحاشيته"

هذه من مقروءات الشوكاني على مشايخه التي تبين مدى إمامه بالعلوم المختلفة فلم يقتصر على علم واحد بل جمع علوماً كثيرة جعلته بحق إمام عصره وقاضياً ومفتياً ومجدداً، بل جلس إلى العلماء وكانت له مسموعات كثيرة كان لها دور في زيادة ثقافته وسعة علمه ومن هذه المسموعات^(٣): سمع البخاري وصحيح مسلم وسنن الترمذي وبعض موطأ مالك وبعض شفاء القاضي عياض وبعض جامع الأصول، وبعض سنن النسائي وبعض سنن ابن ماجه وسمع جميع

(١) البدر الطالع: ج٢/٢١٥.

(٢) البدر الطالع: ج٢/٢١٥-٢١٧.

(٣) البدر الطالع: ج٢/٢١٧، ٢١٨.

سنن أبي داود وتخریجها للمنزري وبعض المعالم للخطابي وبعض شرح ابن رسلان، وبعض المنقي لابن تيمية، وشرح بلوغ المرام، وبعض فتح الباري وبعض شرح مسلم للنووي، وبعض شرح العمدة، والتتقيح في علوم الحديث، والنخبة وشرحها، وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها، وجميع منظومة الجراز، وجميع شرحها لها في العروض، وشرح آداب البحث وحواشيه في الفرائض والضرب والوصايا والمساحة وطريقة ابن الهائم في المناسخة، وبعض صحاح الجوهري وبعض القاموس.

هذه المسموعات تعطينا صورة كاملة عن شخصية الشوكاني وما ستكون عليه في المستقبل بعد إمامه بتلك العلوم والآداب التي كان لها أثر في صقل شخصيته، وجعلت العلماء يحبون مجالسته وتعليمه وجعلت الطلاب يلتفون حوله ويتعلمون منه.

"وقد كان الشوكاني المذكور شامة في وجه القرن المنصرم {الثالث عشر الهجري} وغرة في جبين الدهر، انتهج من مناهج العلم ما عمي على كثير ممن قبله، وأوتي فيه من طلاقة القلم والزعامة ما لم ينطلق به قلم غيره، فهو من مفاخر اليمن بل العرب" (١) وكانت الدروس التي يعطيها لطلابه في فنون متعددة واجتمع منها في بعض الأوقات التفسير والحديث والأصول والنحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق والفقه والجدل والعروض" (٢).

وكان الشوكاني مفتياً لأهل صنعاء ومن حولها وهو في العشرين من عمره ، فقد كان في أيام قراءته على الشيوخ وإقراءه لتلامذته يفتي أهل صنعاء بل ومن وفد إليها ، بل ترد عليه الفتاوي من الديار التهامية وشيوخه إذ ذاك أحياء ، وكادت الفتيا تدور عليه من أعوام الناس وخواصتهم ، واستمر يفتي من نحو العشرين من عمره فما بعد ذلك" (٣).

كذلك ولي الإمام الشوكاني القضاء وهو ما بين الثلاثين والأربعين من العمر ، حيث عاصر ثلاثة أئمة أولهم: المنصور علي بن المهدي عباس... الذي عهد إلى الشوكاني بالقضاء الأكبر واعتبر الشوكاني ذلك امتحاناً (٤) وذلك في آخر شهر رجب سنة ١٢٠٩هـ خلفاً

(١) فهرس الفهارس والإثبات: ج٢/ ١٠٨٦.

(٢) البدر الطالع: ج٢/ ٢١٩.

(٣) البدر الطالع: ج٢/ ٢١٩، وانظر معجم المطبوعات العربية والمعربة: ج٢/ ١١٦٠.

(٤) الموسوعة اليمنية: ج٣/ ١٧٩١.

للقاضي يحيى بن صالح السحولي على غير رغبة منه، ولا استشراف" (١).

وقد حاول الشوكاني في حياته ومن خلال مصنفاته أن يواجه أدواء عصره ومفاسده، وأن يرد على المقلدين والرافضة والزيدية، خاصة التي تعلم على أيدي مشايخها، إلا أنه عرف انحرافهم عن السنة، فألف كتابه "السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار" والذي التزم فيه بالسنة وجافاً بدع الزيدية، فتمسك بالسنة النبوية، وبحب الصحابة، ودافع عن عقيدة السلف، حيث أفرد لها بعض الرسائل مثل رسالة (التحفي في مذهب السلف) و(كشف الشبهات عن المشتبهات) (٢).

وكذلك دعا إلى تطهير الإعتقاد، ورفض ما أدخله الغلاة من الشيعة والمتصوفة من رفع للقبور، وتعظيم للموتى، كما في كتابه "شرح الصدور بتحريم رفع القبور" ودعا إلى إخلاص التوحيد، ودافع عن الصحابة وأهل البيت من خلال كتاب "إرشاد الغيبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي" ورسالة "زهر النسرین الفائح بفضائل العمرين".

وكان الشوكاني من أهل الاجتهاد وذم التقليد والمقلدين، كما في كتابه "بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد"، و"السيل الجرار" و"آداب الطلب ومنتهى الأرب" و"القول المفيد في أدلة الإجتهد والتقليد" كذلك كان مترجماً لمشايخه وتلاميذه ومن سبقه من العلماء، ووجد ذلك في كتابه "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" و"الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام" و"إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر".

ويرى سيد العفاني أن دواء الشوكاني لقومه وأمته لم يكن منحصراً في التأليف فقط، وإنما كان موزعاً على ثلاث شعب: (٣)

١- الجانب العلمي: وتبلغ مؤلفاته وأبحاثه ورسائله المئتين أو تزيد تناول فيها كل ما يهم الإنسان من تبصرة بأمور دينه ودنياه.

(١) هجر العلم ومعاقله في اليمن : ج٤/٢٥٤.

(٢) زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين: جمع وترتيب سيد بن حسين العفاني: ج٢/٥٣، دار العفاني، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٤.

(٣) زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين: ج٢/٦٠.

٢- **الجانب العملي:** وحياته كلها جهاد متواصل لتمكين الشريعة ونشر السنة، ويمكن إجمالها في تدريسه لكتب الحديث ، وتطهيره لجهاز القضاء من الجهلة والظلمة ، وحثه للإمام المنصور على أخذ الزكاة عيناً بحسب مقاديرها في الشريعة ، وإلغاء المكوس ، ومحو الإمية الدينية ، بنشر المعلمين في الأرياف والقرى على حساب الدولة.

٣- **الجانب التوجيهي:** ويعتبر الشوكاني في هذا الجانب مؤسس مدرسة تربوية رائدة، وكتبه في هذا المضمار عديدة منها: "أدب الطلب" و"الدواء العاجل" و"البدر الطالع" وديوان شعره.

وأقول إن الشوكاني كان جامعاً لعلوم شتى موسوعياً فهو مفسر من خلال كتابه "فتح القدير" ومحدث من خلال كتابيه "نيل الأوطار" و"الفوائد المجموعة" في الأحاديث الموضوعية و"فقيه من خلال كتبه" الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد و"الدرر البهية في المسائل الفقهية" وغيرها، وأديب من خلال ديوانه.

وبلاغي من خلال آرائه البلاغية في تفسيره "فتح القدير" كما سنرى في البحث الذي بين أيدينا ، ومن خلال مصنفه "الروض الواسع في الدليل على عدم انحصار علم البديع" ولغوي من خلال "نزهة الإحداق في علم الاشتقاق" ومعالجته للغة والنحو في كتابه "فتح القدير" ومؤرخ من خلال مصنفه "القول الحسن في فضائل أهل اليمن" و مترجم من خلال كتابه " البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" ومن أهل المنطق كما في بحثه " الحد التام والحد الناقص".

ثانياً : مصنفات الشوكاني:

" لقد كان الشوكاني مبرزاً في علوم شتى وجمع فنوناً متعددة مما كان له أثر في تمكنه من التأليف والتصنيف فصنف كتباً ورسائل وأبحاثاً فاقت المائة وأربعة عشر مصنفاً كما في فهرس الفهارس" (١) والمنتين مابين مؤلفات وأبحاث ورسائل كما في زهر البساتين" (٢) .

وذكر الشوكاني منها في كتابه "البدر الطالع" نحو ستة وتسعين كتاباً ورسالة، وقال "هذا ما أمكن حضوره بالبال حال تحرير هذه الترجمة ولعل ما لم يذكر أكثر مما ذكر" (٣) .

(١) فهرس الفهارس: ج٢/١٠٨٧.

(٢) زهر البساتين: ج٢/٦٠.

(٣) البدر الطالع: ج٢/٢٢٣.

ومن هذه المصنفات (١):

- الأبحاث البديعة في وجوب الإجابة إلى حكام الشريعة.
- الأبحاث الوضية في الكلام على حديث "الدنيا رأس كل خطية".
- إبطال دعوة الإجماع على تحريم مطلق السماع.
- الإبطال لدعوى الاختلال في حل الإشكال.
- إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر.
- إتحاف المهرة بالكلام على حديث "لا عدوى ولا طيرة".
- آداب الطلب ومنتهى الأرب.
- إرشاد السائل إلى دلائل المسائل.
- إرشاد الأعيان في تصحيح ما في عقود الجمان.
- إرشاد الغني إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول.
- إرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد في الإطلاق والتقييد.
- إشراف النيرين في بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين.
- إطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال.
- الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام.
- إفادة السائل في العشر المسائل.
- أمنية الشوق في تحقيق حكم المنطق.
- إقناع الباحث بدفع ما ظنه دليلاً على جواز الوصية لو ارث.
- إيضاح الدلالات على أحكام الاختيارات.
- إيضاح القول في إثبات العول.
- إيضاح لمعنى التوبة والإصلاح.
- البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر.
- البحث الملم المتعلق بقوله تعالى "إلا من ظلم".
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

(١) انظر هذه المصنفات في: البدر الطالع ج٢/٢١٩-٢٢٣ ، وهدية العارفين وأسماء المؤلفين وآثار المصنفين، البغدادي، ج٢/٣٦٥-٣٦٧ ، ١٩٩٢ دار الكتب العلمية، بيروت. فهرس الفهارس، ج٢/١٠٨٣-١٠٨٥ ، الأعلام ج٦/٢٩٨ ، معجم المؤلفين، ج٣/٥٤١ ، هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج٤/٢٢٧٨ ، ٢٢٧٩ ، ٢٢٨١-٢٢٨٧.

- بغية الأريب من " مغنى اللبيب " .
- البغية في مسألة الرؤية.
- التحف بمذهب السلف، أجمل فيها حمل صفات الله الواردة في القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف.
- تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين للإمام الجزري.
- تنبيه الأعلام في تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام.
- تنبيه الأفاضل على ماورد في زيادة العمر ونقصانه عن الدلائل.
- حل الأشكال في إجبار اليهود على التقاط الأذبال.
- در السحابة على مناقب القرابة والصحابة.
- الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد .
- الدر البهية وشرحها"الدراري المضية" .
- الدواء العاجل في دفع العدد الصائل.
- ديوان شعره جمعه ورتبه ابنه أحمد وسماه (أسلاك الجوهري في نظم مجدد القرن الثالث عشر) .
- ذكريات الشوكاني.
- رفع الريبة عما يجوز ولا يجوز من الغيبة.
- زهر النسرين الفائح بفضائل العمرين(أبي بكر وعمر) .
- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار.
- شرح الصدور في تحريم رفع القبور.
- شفاء العلل في حكم زيادة الثمن لأجل الأجل.
- طيب النشر في جواب المسائل العشر.
- عقود الجمان في شأن حدود البلدان وما يتعلق بها من الضمان.
- الفتح الرباني في فتاوى الإمام الشوكاني.
- الفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير.
- قطر الولي على حديث الولي.
- القول الجلي في لبس النساء الحلي.
- الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة.
- القول المفيد في أدلة الاجتهاد و التقليد.

- القول المقبول في رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول.
- المختصر البديع في الحلق الوسيط.
- المختصر الكافي في الجواب الشافي.
- نيل الأوطار شرح (منتقى الأخبار) لابن تيمية.
- هدية القاضي إلى نجوم الأراضي.
- ويل الغمام حاشية على (شفاء الأوام) للأمير الحسين بن محمد.
- الوشي المرقوم في تحريم حلية الذهب على العموم.

الفصل الأول

التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية

المقصود بالتراكيب النحوية من الوجهة البلاغية "علم البلاغة" الذي يتناول المعاني الثانية للتراكيب النحوية، وقد تناولها الإمام عبد القاهر الجرجاني بالبحث والتحليل في كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وبين أن التراكيب النحوية لها معنيان: معنى أول يتعلق بالوضع اللغوي وضبط الحركات داخل التركيب، ومعنى ثان تابع للمعنى الأول، وهو "المقصد والهدف في البلاغة، وقد جهد عبد القاهر في سبيل هذا الهدف، وشقي في الوصول إلى ذلك الغرض، حتى خرج بقاعدة لا تتخلف، وقانون لا يقبل النقص، وهو أن دقة النظم، والبلاغة، والبيان، كامنة في معاني النحو، ومطوية في التركيب اللغوي" (١) "حيث أعطى للتراكيب النحوية معطيات حية، وولد منها حياة جديدة، وأضاف إليها ألواناً من الدلالات، وأصباغاً من المعاني، أعادت إلى النحو الحياة، ولمسائله البقاء، كما استخدمه في تحليل النصوص، وجعله المعيار السليم لإظهار وجوه المعاني في الكلام، وطرائق البيان في التركيب" (٢).

هذه الطرائق والمعاني الثانية هي التي يهتم بها علماء البلاغة، والتي تحتاج إلى عين فاحصة، وذوق رفيع، وقدرة على الربط بين المعنى الأول والمعنى الثاني، وشعور مرهف يستل مدلولات التراكيب والألفاظ التي تؤثر في النفس فتستحسن الكلام أو تستقبحه، وتحكم عليه من خلال مدلولاته ومعانيه، وهذه الطرائق والمدلولات في القرآن الكريم تسمو وترتفع حتى تصل إلى درجة الإعجاز.

وعلم المعاني أحد علوم البلاغة، وعرف بهذا الاسم بعد عبد القاهر الجرجاني الذي وضع أصول هذا العلم.

(١) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، السعودية، ١٩٨٠. (المقدمة ص ٤).

(٢) المصدر السابق : ٧٥.

تعريف علم المعاني:

عرّف البلاغيون "علم المعاني" بقولهم: "هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يُطابق مقتضى الحال" (١).

والمقصود بأحوال اللفظ "هي الأمور التي تعرض له من التقديم والتأخير، والتعريف والتكثير، والخبر والإنشاء، والحذف والذكر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، وخروج الكلام عن مقتضى الظاهر إلى غير ذلك من الموضوعات" (٢).

هذه هي موضوعات علم المعاني التي تناولها البلاغيون في كتبهم وبحوثهم، وقد ذكر الإمام الشوكاني في تفسيره "فتح القدير" كثيراً من هذه الموضوعات في معرض تفسيره لآيات القرآن الكريم، حيث وضح من خلالها ما تعنيه الآيات من معانٍ ثانية غير المعنى اللغوي الأول، وسأحاول في هذا الفصل تناول موضوعات علم المعاني التي ذكرها الشوكاني في تفسيره، وذلك حسب ما استطعت حصره من مسائل هذا العلم أثناء بحثي في تفسير فتح القدير.

مسائل علم المعاني التي تناولها الشوكاني في تفسيره

أولاً : الخبر:

وهو من "خبرت الأمر أي علمته، وخبرت الأمر أخبره إذا عرفتَه على حقيقته، والخبر - بالتحريك - واحد الأخبار، والخبر: ما أتاك من نبياً عن تستخبر، والخبر: النبأ، وخبره بكذا وأخبره: نبأه" (١).

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، تحقيق لجنة من أساتذة اللغة العربية بالأزهر، مطبعة السنة المحمدية/ القاهرة. ص ١٢.

وانظر: خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٠. ص ٣٤ ومن بلاغة القرآن، محمد علوان ونعمان علوان، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٨. ص ٣١

(٢) من بلاغة القرآن: ٣١.

والخبر عند البلاغيين: "اختلف الناس في انحصار الخبر في الصادق والكاذب، فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما، ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم: صدقه مطابقة حكمه للواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه له، هذا هو المشهور وعليه التعويل"^(٢) فالخبر إما أن يكون صادقاً أو كاذباً، وقد جاء الشوكاني بتعريف الصدق فقال: "الصدق خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أو لهما"^(٣) وهو ما يعرف بمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية وهذا موافق لرأي الجمهور السابق، ويكون الكذب على رأي الشوكاني، هو عدم مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أولهما، وذلك لأنه قال إن الصدق خلاف الكذب.

الأغراض البلاغية للخبر:

١- التبيكيت: هو من بكت "بكتته بالحجة و بكتته: غلبه، تقول: بكتته حتى أسكنه"^(٤).

وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾^(٥)

فهو خبر ابتدائي لا يحتاج إلى مؤكدات حيث لم يتوقع الكفار أن يقول لهم إبراهيم عليه السلام هذا الكلام "مقيماً للحجة عليهم مبكناً لهم: بل فعله كبيرهم هذا مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره"^(٦).

٢- التحسر: كما في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾^(٧).

(١) لسان العرب لابن منظور. مادة(خبر) ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ .

(٢) الإيضاح: ١٣ .

(٣) فتح القدير ، ج ١/٨٧ .

(٤) أساس البلاغة،الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت ، ١٩٧٩ . ص ٢٨ .

(٥) الأنبياء: ٦٣ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/٥١٧ .

(٧) آل عمران: ٣٥، ٣٦ .

أوضح الشوكاني هذا الغرض من الخبر بقوله: "إنما قالت هذه المقالة لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكر دون الأنثى، فكأنما تحسرت وتحزنت لما فاتها من ذلك الذي كانت ترجوه وتقدره... وقرأ الجمهور "وضعت" فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعت والتفخيم لشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن" (١) .

يقول ابن عاشور: "وجملة (وليس الذكر كالأنثى) خبر مستعمل في التحسر لفوات ما قصده من أن يكون المولود ذكراً، فترره لخدمة بيت المقدس" (٢) .

٣- إظهار الضعف:

مثل له الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (٣) .

فقال: "قال العلماء: يستحب للمرء أن يجمع في دعائه بين الخضوع وذكر نعم الله عليه، كما فعل زكريا ها هنا فإن في قوله: "وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً" غاية الخضوع والتذلل، وإظهار الضعف والقصور عن نيل مطالبه وبلوغ مآربه" (٤) .

٤- التهديد:

جاء هذا في قوله تعالى: ﴿ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ، ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾ (٥) .

قال الشوكاني: "أي: وليك الويل، وأصله أولاك الله ما تكرهه... وهذا تهديد شديد" (٦) .

فهو تهديد لأبي جهل بأنه اقترب من الهلاك والعذاب، وفيه وعيد وتخويف لأمثاله.

(١) فتح القدير: ج ١/٤٥٣ .

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ابن عاشور، مج ٣/ ج ١/ ٢٣٣، دار سحنون، تونس، ١٩٩٧م .

(٣) مريم: ٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/٤٠٥ .

(٥) القيامة: ٣٥، ٣٤ .

(٦) فتح القدير: ج ٥/٤٠٥ .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (١).

قال: "ختم سبحانه هذه السورة (سورة الشعراء) بأية جامعة للوعيد كله،... فإن في قوله: "وسيعلم" تهويلاً عظيماً وتهديداً شديداً، وكذا في إطلاق "الذين ظلموا" وإيهام "أي منقلب ينقلبون". (٢)

والإطلاق من (طلق: الطليق: الأسير الذي أطلق عنه إساره وخلي سبيله والإطلاق: بمعنى الترك والإرسال" (٣) والمراد هنا إدخال جميع الظالمين في هذا التهديد.

والإيهام: من (بهم): استبهم عليه: استعجم فلم يقدر على الكلام... واستبهم عليه الأمر أي استغلق، وتبهم أيضاً إذا أرتج عليه... وإيهام الأمر: أن يشتبه فلا يعرف وجهه، وقد أبهمه، يقال: أمر مبهم إذا كان ملتبساً لا يعرف معناه ولا بابه" (٤) فيقصد من إيهام (أي منقلب ينقلبون) أن تذهب بهم المذاهب في كل توقع ذلك المنقلب لتحويله عليهم وتهديدهم بما ينتظرهم من العذاب الذي لا يعرف كنهه.

٥- الأمر:

نحو قوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ (٥).

ذكر الشوكاني في هذه الآية ما قيل فيها دون أن يبدي رأيه، فقال: "والتربص الانتظار، قيل: هو خبر في معنى الأمر، أي: ليتربصن قصد بإخراجه مخرج الخبر تأكيد وقوعه، وزاده تأكيداً وقوعه خبراً للمبتدأ، قال ابن العربي: وهذا باطل، وإنما هو خبر عن حكم الشرع، فإن وجدت مطلقة لا تتربص فليس ذلك من الشرع، ولا يلزم من ذلك وقوع خبر الله سبحانه على خلاف مخبره" (٦).

(١) الشعراء: ٢٢٧.

(٢) فتح القدير: ج ٤/١٤٧.

(٣) اللسان: (طلق).

(٤) اللسان: (بهم).

(٥) البقرة: ٢٢٨.

(٦) فتح القدير: ج ١/٣٢٢.

والظاهر من سياق الآية خلاف رأي ابن العربي، وكأن الخبر المراد منه أمر المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء بعد الطلاق، وهذا هو رأي الشرع فمن خالفت فقد وقعت في الحرام.

يقول ابن عاشور في تفسير الآية: "وجملة (والمطلقات يتربصن) خبرية مراد بها الأمر فالخبر مستعمل في الإنشاء وهو مجاز فيجوز جعله مجازاً مرسلأً مركباً باستعمال الخبر في لازم معناه" (١).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ (٢) قال الشوكاني: "قوله 'يرضعن' قيل: هو خبر في معنى الأمر للدلالة على تحقق مضمونه، وقيل: هو خبر على بابه ليس هو في معنى الأمر، على حسب ما سلف في قوله: 'يتربصن' وقوله 'كاملين' تأكيد للدلالة على أن هذا التقدير تحقيقي لا تقريبي" (٣). ويقصد بقوله تحقيقي: أن الخبر هنا حقيقي، وبقوله تقريبي: أن الخبر يخرج إلى معنى بلاغي.

قال ابن عاشور: "وجملة (يرضعن) خبر مراد به التشريع وإثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن... فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لها" (٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٥) "قيل هو إخبار بمعنى الأمر ويدل عليه قراءة أبي وابن مسعود" لا تعبدوا" على النهي" (٦).

٦- النهي:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتَهُمْ ﴾ (٧) يقول الشوكاني: "هذا الإخبار ممكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه ﷺ، أي لا تتبع يا محمد قبلتهم، ويمكن أن يكون

(١) التحرير والتنوير: مج ٢/ج ٢/٣٨٨.

(٢) البقرة: ٢٣٣.

(٣) فتح القدير: ج ١/٣٣٥.

(٤) التحرير والتنوير: مج ٢/ج ٢/٣٨٨.

(٥) البقرة: ٨٣.

(٦) فتح القدير: ج ١/١٥٨.

(٧) البقرة: ١٤٥.

على ظاهره دفعا لأطماع أهل الكتاب وقطعا لما يرجونه من رجوعه ﷺ إلى القبلة التي كان عليها" (١) ولماذا لا يجمع الخبر بين المعنيين الأول والثاني؟ فيكون في معنى النهي إضافة إلى أن يكون على ظاهره، فينهى النبي عن إتباع قبلتهم، ويقطع أطماع أهل الكتاب.

٧- الإنكار:

كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ لَاءَ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ (٢) إذ يقول: " وفي هذا الإخبار معنى للإنكار، وفي الإشارة إليهم تحقير لهم" (٣).

فالخبر خرج على خلاف مقتضى الظاهر وهو معنى الإنكار، حيث أنكروا على قومهم عبادة آلهة غير الله لا ينفعونهم ولا يضررون.

يقول ابن عاشور: "جملة (اتخذوا) خبر عن اسم الإشارة، وهو خير مستعمل في الإنكار عليهم دون الإخبار إذا اتخذهم آلهة من دون الله معلوم بين المتخاطبين، فليس الإخبار به بمفيد فائدة الخبر" (٤).

ثانياً: الإنشاء:

في اللغة: أنشا الله الخلق: ابتداء خلقهم، والإنشاء هو الابتداء أو الخلق، أو الابتداء. (٥)

وعند البلاغيين: كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه. (٦)

ولعل هذا أهم ما يفرق بينه وبين الخبر إذ أن للخبر نسبة خارجية تطابق النسبة الكلامية، والإنشاء لا نسبة خارجية له.

(١) فتح القدير: ج ٢١٨/١ .

(٢) الكهف: ١٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٣٤٥/٣ .

(٤) التحرير والتنوير: مج ٧/ ج ٢٧٤/١٥ .

(٥) اللسان: (نشأ) .

(٦) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٣ . ج ١/٣٣٢ .

وقد تناول الشوكاني هذا الفن من فنون علم المعاني في تفسيره فذكر قسماً للإنشاء وهما الإنشاء الطلبي والإنشاء غير الطلبي من خلال شرحه للآيات القرآنية، وخاصة الأساليب الإنشائية الطلبية" وتفنن في الكشف عنها مما يؤكد بعد مدى الأسلوب القرآني فيما يشيع في نظمه من معانٍ ثانية تفهم بالذوق الرهيف، والفكر الحصيف، وتبقى إلى يوم القيامة مناطق الإعجاز البياني في القرآن الكريم" (١).

الإنشاء غير الطلبي:

١- ما جاء على صيغة أسلوب التعجب، كقوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) يقول الشوكاني: "قال أبو العباس: العرب تقول هذا في موضع التعجب، فيقولون: أسمع تريد وأبصر به أي ما أسمع وأبصره فعجب الله سبحانه نبيه ﷺ منهم" (٣) فجاءت هنا على صيغة أفعل به .

والصيغة الثانية هي: "ما أفعله" كما في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنسانُ ما أَكْفَرَهُ ﴾ (٤) .

يقول الشوكاني: أي لعن الإنسان الكافر ما أشد كفره... ومعنى "ما أكفره" التعجب من إفراط كفره، قال الزجاج: معناه أعجبوا أنتم من كفره " (٥).

٢- القسم: ويأتي بحرف الباء كما في قوله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ ليرضوكم ﴾ (٦) يقول الشوكاني: "جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين" (٧) والحلف هو القسم وجاء هنا بالباء في قوله " بالله".

(١) "البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني" الدكتور محمد علوان، ص ٦٥٣، جامعة الأزهر. العدد الخامس عشر .

(٢) مريم: ٣٨ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/ ٤٢٠ .

(٤) عبس: ١٧ .

(٥) فتح القدير: ج ٥/ ٤٥٣ .

(٦) التوبة: ٦٢ .

(٧) فتح القدير: ج ٢/ ٤٧٦ .

وجاء القسم في القرآن على صيغة "لعمرك" وتأتي كثيراً في غير القرآن، وإن كان كره كثير من العلماء القسم بغير الله سبحانه، ولكن الله يقسم بما شاء، قال تعالى: "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ" (١) قال الشوكاني: "العمر والعمر - بالفتح والضم - واحد، لكنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف، فإنه كثير الدور على ألسنتهم، ذكر ذلك الزجاج، وقال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ههنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له" (٢).

كذلك ورد القسم في القرآن الكريم بحرف "الواو" وهو أكثر صيغ القسم وروداً. وقد علق الشوكاني على كثير منها في تفسيره، كما في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ (٣).

"أقسم سبحانه بالسماء والطارق، وهو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل، قال الواحدي: قال المفسرون: أقسم الله بالسماء والطارق يعني الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار" (٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (٥) "أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته" (٦).

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ، فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ (٧).

يقول الشوكاني: "لما جاء سبحانه وتعالى بهذه الحجة، التي أجمع العقلاء على أنه لم يكن في حجج البعث حجة أقوى منها، أكدها بالقسم باسمه سبحانه مضيفاً إلى رسوله تشريفاً له وتعظيماً فقال: "فوربك لنحشرنهم" ومعنى لنحشرنهم: لنسوقنهم على المحشر بعد إخراجهم من

(١) الحجر: ٧٢ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/ ١٧٤ .

(٣) الطارق: ١ .

(٤) فتح القدير: ج ٥/ ٤٩٦ .

(٥) الفجر: ١-٤ .

(٦) فتح القدير: ج ٥/ ٥١٣ .

(٧) مريم: ٦٧، ٦٨ .

قبورهم أحياء كما كانوا" (١) .

٣- صيغ المدح والذم:

وقد جاءت في القرآن الكريم في أكثر من آية بلفظ "نعم" للمدح، و"بئس" للذم.

فالمدح كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) " أي (ولنعم دار الآخرة) فحذف المخصوص بالمدح لدلالة ما قبله عليه " (٣) حيث جاءت نعم لمدح الدار الآخرة وهي دار الخلود حيث يدخل أهل التقوى الجنة في الآخرة وهي خير لهم من الدار الدنيا.

يقول ابن عاشور: "و (نعم) فعل مدح غير متصرف، ومرفوعه فاعل دال على جنس الممدوح، ويذكر بعده مرفوع آخر يسمى المخصوص بالمدح، وهو مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ، فإذا تقدم ما يدل على المخصوص بالمدح لم يذكر بعد ذلك كما هنا، فإن تقدم (ولدار الآخرة) دل على أن المخصوص بالمدح هو دار الآخرة، والمعنى: ولنعم دار المتقين دار الآخرة" (٤) .

وجاءت في قوله تعالى: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (٦) "المخصوص بالمدح محذوف: أي أجرهم، أو ذلك المذكور" (٧) .

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ (٨) " والمخصوص بالمدح محذوف أي: نعم الوكيل الله سبحانه" (٩) .

(١) فتح القدير: ج ٣/ ٤٣٢ .

(٢) النحل: ٣٠ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/ ٢٠١ .

(٤) التحرير والتنوير: مج ٧/ ١٤٣ / ١٤٣ .

(٥) الكهف: ٣١ .

(٦) آل عمران: ١٣٦ .

(٧) فتح القدير: ج ١/ ٥١٤ .

(٨) آل عمران: ١٧٣ .

(٩) فتح القدير: ٥٣٧ .

قوله تعالى: ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ ^(١) يقول الشوكاني: "جاء سبحانه بهذه الجملة المتضمنة لمدح ما أعطاهم من عقبى الدار المتقدم ذكرها للترغيب والتشويق" ^(٢).

أما الذم فقد جاء في قوله تعالى: ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ^(٣) قال الشوكاني: "المخصوص بالذم محذوف، والتقدير لبئس مَثْوًى المتكبرين جهنم، والمراد بتكبرهم هنا هو تكبرهم عن الإيمان والعبادة" ^(٤) فهنا ذم جهنم وهي مأوى الكافرين، لتغيير الناس وتخويفهم من ذلك المَثْوًى والمأوى فيتركوا التكبر والكفر، ويعبدوا الله ويؤمنوا به.

وجاءت صيغة الذم في قوله تعالى: ﴿ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبئسَ المَوْلى وَلبئسَ العَشِيرُ ﴾ ^(٥) وقوله تعالى: ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبئسَ المِهَادُ ﴾ ^(٦).

يقول الشوكاني: "وقوله: 'بئس المهاد' ما مهدوا لأنفسهم في جهنم بكفرهم، أو ما مهد الله لهم من النار، فالمخصوص بالذم محذوف هو هذا المقدر" ^(٧).

٤- الرجاء: "وهو ترقب حصول شئ محبوب قريب الوقوع" ^(٨).

كما في قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ ^(٩) جاء الرجاء بالحرف "لعل" قال الشوكاني: "أي الطرق... وقوله 'أسباب السماوات' بيان للأسباب، لأن الشئ الذي أبهم ثم فسر كان أوقع في النفوس... وقيل أسباب السماوات الأمور التي يستمسك بها 'فأطلع إلى إله موسى'

(١) الرعد: ٢٤ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/ ٩٩ .

(٣) النحل: ٢٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/ ٢٠١ .

(٥) الحج: ١٣ .

(٦) آل عمران: ١٩٧ .

(٧) فتح القدير: ج ١/ ٥٥٤ .

(٨) معجم المصطلحات البلاغية: ج ١/ ٣٣٣ .

(٩) غافر : ٣٦، ٣٧ .

قرأ الجمهور بالرفع عطفاً على "أبلغ" فهو على هذا داخل في حيز الترجي " (١) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ (٢) "أي في زمان قريب...والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها وهو رسول الله فكيف بغيره من الناس؟ وفي هذا تهديد لهم عظيم" (٣)

وجاء الرجاء بالفعل "عسى" في أكثر من آية من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٤) يعلق عليها الشوكاني بقوله: "أي هو قريب، لأن عسى في كلام الله واجب الوقوع" (٥) فهو رجاء ولكنه من كلام الله الواقع لا محالة، وفيه تهديد للكافرين بقرب اليوم الذي يبعثون فيه خلقاً جديداً بعد أن كانوا عظاماً ورفاتاً.

تلك من أساليب الإنشاء غير الطلبي التي تحدث عنها الشوكاني في تفسيره ووضح المقصود بهذه الأساليب حسب ورودها في الآيات القرآنية، ويلاحظ قلة الأغراض البلاغية التي تخرج لها هذه الأساليب، مما جعل البلاغيين لا يهتمون بها اهتمامهم بالإنشاء الطلبي والذي تتعدد أغراضه البلاغية وتعطي معاني جديدة كما سنرى في الصفحات الآتية:

الإنشاء الطلبي:

" هو ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب" (٦) .

وهو خمسة أنواع: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.

وسأتناول هنا الأنواع التي تناولها الشوكاني ووضحها في تفسيره والتي تتعلق بالإنشاء الطلبي، وإظهار أهم الأغراض البلاغية لهذه الأساليب.

(١) فتح القدير: ج٤/٥٨٥ .

(٢) الأحزاب: ٦٣ .

(٣) فتح القدير: ج٤/٣٦٦ .

(٤) الإسراء: ٥١ .

(٥) فتح القدير: ج٣/٢٩٤ .

(٦) معجم المصطلحات البلاغية: ج١/٣٣٢، المطول: شرح تلخيص مفتاح العلوم ، التفازاني ٥٣ ، تحقيق عبد الحميد هنداي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ .

أولاً: الأمر:

ذكر الشوكاني الأمر أثناء تعرضه لآيات قرآنية فيها صيغة الأمر، وأظهر الأغراض البلاغية لأسلوب الأمر.

والأمر هو: "طلب فعل غير كف على جهة الاستعلاء".^(١)

أو كما قال العلوي: "هو صيغة تستدعي الفعل، أو قول ينبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء"^(٢) وهذا ما ذكره السكاكي من قبل فقال: "والأمر في لغة العرب عبارة عن استعمالها أعنى استعمال نحو: لينزل وانزل، ونزال وصه (وهذه صيغ الأمر) على سبيل الاستعلاء"^(٣)، وكل أمر للوجوب مالم تصرفه قرينة عن ذلك .

أهم الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الأمر:

الإباحة:

وهي أن تستعمل في مقام الإذن، وهو مقام "توهم السامع فيه عدم جواز الجمع بين أمرين فيكون الأمر إذناً له بالفعل فله أن يفعل، وله أن يترك"^(٤) .

كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾^(٥) وهو أمر على سبيل الإذن لهم بعد إحلالهم من الإحرام لهم أن يصطادوا إن أرادوا ذلك و"هذا تصريح بما أفاده مفهوم (وأنتم حرم) أباح لهم الصيد بعد أن حظره عليهم لزوال السبب الذي حرم لأجله وهو الإحرام"^(٦) فبين الشوكاني أن الأمر هنا للإباحة بعد التحريم.

(١) المطول: ٤٢٤، وانظر معتك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ج ١/٣٣٥، ضبطه وصححه أحمد

شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٨ .

(٢) الطراز: العلوي، مراجعة وضبط محمد عبد السلام شاهين، ٥٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥ .

(٣) مفتاح العلوم: السكاكي، ضبطه نعيم زرزور، ٣١٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٧ .

(٤) المطول: ٤٢٦، من بلاغة القرآن، محمد علوان ونعمان علوان .

(٥) المائدة: ٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٩/٢ .

وقد وضح الزجاج هذا الغرض فقال: "وهذا اللفظ أمر ومعناه الإباحة، لأن الله عز وجل حرم الصيد على المحرم، وأباحه له إذا حل من إحرامه، ليس أنه واجب عليه إذا حل أن يصطاد" (١) بل له الإذن إن أراد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ (٢) " أي قائلين لهم ذلك، والأمر للإباحة (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ... ﴾ (٤) قال الشوكاني: " وقوله: "فكلوا" أمر بإباحة" (٥) .

الندب:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ (٦) .

يقول الشوكاني: " وقد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب، فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما، وذهب ابن عباس ومحمد بن الحنفية والحسن والنخعي وطاووس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريح أن هذه الآية منسوخة بالزكاة، واختاره ابن جرير، ويؤيده أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف، وقالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب" (٧) .

(١) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج: شرح وتعليق : عبد الجليل شلبي ، ج٢/١١٥ ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٤ .

(٢) طه: ٥٤ .

(٣) فتح القدير: ج٣/٤٦٤ .

(٤) البقرة: ٥٨ .

(٥) فتح القدير: ج١/١٣٥ .

(٦) الأنعام: ١٤١ .

(٧) فتح القدير: ج٢/٢١٦ .

واضح من تعليق الشوكاني أنه يؤيد الرأي القائل بأنه أمر للندب، فهو يؤكد رأي من قال أن الآية منسوخة بالزكاة، وبالتالي فالأمر ليس للوجوب بل هو للندب، ويظهر هذا التأكيد من قوله: "أن هذه الآية مكية وآية الزكاة مدنية" كما في تعليقه السابق على الآية.

وقوله تعالى: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ (١) .

يقول الشوكاني: "تقييد الأمر بكون امتثاله خيراً لهم من عدم الامتثال، وأطهر لنفوسهم، يدل على أنه أمر ندب لا أمر وجوب" (٢) .

الدعاء: يتولد الدعاء من الأمر "إن استعملت (الفعل) على سبيل التضرع" (٣) فكل صيغة أمر أو نهى ممن هو أدنى لمن هو أعلى دعاء .

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

فقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ... ﴾ هو أمر على سبيل التضرع، من الأدنى إلى الأعلى، يقول الشوكاني: "لما بلغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات وإقامة الحجج البيّنات ولم يكن لذلك تأثير في من أرسل إليهم، دعا عليهم بعد أن بين سبب إصرارهم على الكفر وتمسكهم بالجحود والعناد" (٥) والمعنى: الدعاء عليهم بأن يمحق الله أموالهم ويهلكها" (٦) .

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٧) فهم قد دعوا الله سبحانه أن يحكم بينهم، ولا يكون حكمه سبحانه إلا بنصر المحقين على المبطلين...

(١) المجادلة: آية ١٢ .

(٢) فتح القدير ج ٥/٢٢٦، ٢٢٧ .

(٣) مفتاح العلوم: ٣١٩، وانظر الإيضاح والمطول: ٤٢٧ .

(٤) يونس: ٨٨ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/٥٩١ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/٥٩١ .

(٧) الأعراف: ٨٩ .

فكانهم طلبوا نزول العذاب على الكافرين وحلول نقمة الله بهم" (١)

وجاء الأمر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة وكان الغرض منه الدعاء، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢) يقول الشوكاني: "وقوله "فقنا عذاب النار" الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله" (٣) وذكر هذا الدعاء في الآيات التالية للآية السابقة كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ (٤) فقال: "هذا دعاء آخر... وصدور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة، وإما لقصد التعجيل أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العباداة" (٥).

وظاهر هنا مدى التضرع والخضوع في تكرير لفظ "ربنا" رغم أنه في صورة الأمر، ولكنه الأمر من الأدنى إلى الأعلى مما يجعله من الدعاء والذي هو على طريق الطلب من غير إلزام.

الترغيب والحث والإرشاد:

"وهو الطلب الذي لا إلزام فيه، وإنما يحمل بين طياته النصيحة الخالصة" (٦).

قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ (٧) قال الشوكاني: "والعفو ترك المؤاخذة بالذنب، والصفح إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان إذا عرضت عن ذنبه، وقد ضربت عنه صفحاً إذا عرضت عنه، وفيه الترغيب في ذلك والإرشاد إليه" (٨).

(١) فتح القدير: ج ٢/٢٨٧.

(٢) آل عمران: ١٩١.

(٣) فتح القدير: ج ١/٥٥٠.

(٤) آل عمران: ١٩٤.

(٥) فتح القدير: ج ١/٥٥١.

(٦) من بلاغة القرآن، علوان: ٤٣.

(٧) البقرة: ١٠٩.

(٨) فتح القدير: ج ١/١٨٥.

فهو أمر من الله للمسلمين بأن يعفوا ويصفحوا عن الكفار الذين يودون إعادتهم إلى الكفر، وخاصة في أول الدعوة الإسلامية، وهو أمر للحث والترغيب بأن يتحلوا بهذا الخلق الذي يرغب الكفار في الإسلام ويحبه إليهم.

وفي قوله تعالى في الآية التالية للآية السابقة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (١) يقول الشوكاني: "حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم" (٢) وواضح أن الأمر هنا للمؤمنين بأن يؤديوا فروضاً وهي الصلاة والزكاة، فالأمر حقيقي.

التبكييت: وهو من "بكت" بكتته بالحجة وبكتته: غلبه، تقول: بكتته حتى أسكته" (٣) .

وجاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ (٤) .

قال الشوكاني: "أي هل عندكم دليل صحيح بعد من العلم النافع فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره، والمقصود من هذا التبكييت لهم لأنه علم أنه لا علم عندهم يصلح للحجة ويقوم به البرهان" (٥) .

وذكر هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ شُهِدَ الْكُفْرُ الْكُفْرًا أَنْ يَشْهَدُوا أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ (٦) .

فقال: "ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء المشركين " هلتم شهداءكم " أي هاتوهم وأحضروهم... وهذا أيضاً من باب التبكييت لهم، حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرم تلك الأشياء مع علمه أن لا شهود لهم فإن شهدوا لهم بغير علم بل مجازفة وتعصب" (٧) .

وقد ذكر السيوطي هذه الآية تحت غرض الأمر للتكذيب. (١)

(١) البقرة: ١١٠ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ١٨٥ .

(٣) أساس البلاغة ٢٨ ، وانظر اللسان (بكت)

(٤) الأنعام: ١٤٨

(٥) فتح القدير: ج ٢/ ٢٢٤

(٦) الأنعام: ١٥٠

(٧) فتح القدير: ج ٢/ ٢٢٤

وهنا فرق بين التبكيت والتكذيب، فالتبكيت كالتقريع والتعنيف والتوبيخ^(٢)، أما التكذيب فهو أن يقال لمن يكذب: كذبت^(٣)، فيكون رأي الشوكاني أقرب لتوضيح الغرض من الآيات، فأراد أن يغلبهم على أمرهم فلا يقدرّون.

الخبر:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيُضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكِوْا كَثِيرًا ﴾^(٤).

قال الشوكاني: "هذان الأمران معناهما الخبر، والمعنى: فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً، وإنما جئ بهما على لفظ الأمر للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره"^(٥) فهنا الخبر صادق مقطوع بصدقه ومحتوم وهو ينطبق على تعريف علماء البلاغة للخبر: أنه كل كلام يحتمل الصدق أو الكذب لذاته، وهنا خبر صادق، فهو أمر في اللفظ وليس أمراً في المعنى. وهو من الأخبار المقطوع بصدقها لكونها في كتاب الله.

وكما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾^(٦) يقول: "هذا وإن كان على صيغة الأمر، فالمراد به الخبر، وإنما خرج مخرج الأمر لبيان الإمهال منه سبحانه للعصاة، وأن ذلك كائن لا محالة لتقطع معاذير أهل الضلال، ويقال لهم يوم القيامة "أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر"^(٧) أو للاستدراج كقوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا ﴾^(٨) (٩).

(١) معترك الأقران: ج ١/٣٣٦. والإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج ٣/٢٠٦، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤.

(٢) انظر: اللسان (بكت).

(٣) انظر: اللسان (كذب).

(٤) التوبة: ٨٢.

(٥) فتح القدير: ج ٢/٤٩١.

(٦) مريم: ٧٥.

(٧) فاطر: آية ٣٧.

(٨) آل عمران: ١٧٨.

(٩) فتح القدير: ج ٣/٤٣٧.

قال الزجاج: "هذا لفظ أمر في معنى الخبر، وتأويله أن الله عز وجل، جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها ويمده فيها... إلى أن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر كأن لفظ الأمر يريد به المتكلم نفسه إلزاماً، كأنه يقول أفعل ذلك وأمر نفسي به" (١) .

فالأمر كما هو واضح هنا ليس حقيقياً بل هو مجازي أفاد معنى الخبر، فأعطى معنى ثانياً وهو: الإمهال منه سبحانه للعصاة لتتقطع معاذير أهل الضلال.

الاستمرار والازدياد:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢) يقول الشوكاني: "أي صدقوا بالتوحيد وبصحة الرسالة، وهذا خطاب لكفار العرب، ويجوز أن يكون خطاباً للجميع، ويكون المراد بالأمر بالإيمان في حق المسلمين الاستمرار عليه أو الازدياد منه" (٣) .

التسوية: هي كأن المخاطب توهم أن أحد الطرفين من الفعل والترك أنفع له وأرجح بالنسبة إليه فرفع ذلك وسوى بينهما (٤) .

ذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (٥) فقال: "هذا الأمر معناه الشرط والجزاء، لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم، والتقدير: إن أنفقت طائعين أو مكرهين لن يتقبل منكم فهو كقوله: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (٦) وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول" (٧) .

وقد ذكر هذا المعنى الفراء فقال: "وهو أمر في اللفظ وليس بأمر في المعنى، لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم، وهو في الكلام بمنزلة إن في الجزاء، كأنك قلت: إن أنفقت طوعاً أو كرهاً

(١) معاني القرآن وإعرابه: ج ٣/٢٨٠، وانظر فتح القدير: ج ٣/٤٣٧ .

(٢) الحديد: ٧ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/٢٠٠ .

(٤) المطول: ٤٢٦ .

(٥) التوبة: ٥٣ .

(٦) التوبة: ٨٠ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٤٦٧ .

فليس بمقبول منك" (١) .

نلاحظ هنا أن الأمر خرج عن معناه الحقيقي وأفاد الشرط والجزاء، يقول الدكتور محمد علوان: "المتأمل في تخريج الشوكاني للأمر في الآية يخرج بفائدتين:

الأولى: أن الأمر لم يكن حقيقياً كما عرفه علماء البلاغة، طلب الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، إنما أفاد الشرط والجزاء الذي بموجبهما يتحقق مفهوم التسوية بين الأمرين (طوعاً وكرهاً) .

والثانية: في قوله: وقيل هو أمر في معنى الخبر، إذ إنه يريد بقوله أن يبين لنا الأمر هنا لم يكن حقيقياً لأنه خرج إلى الخبر، والأمر من الإنشاء، وهذا ما أكده بقوله: وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول" (٢) .

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ (٣)

"أي إذا لم يمكنكم إنكارها وتحققتم أن ذلك ليس بسحر ولم يكن في إيصاركم خلل فالآن ادخلوها وقاسوا شدتها، فاصبروا على العذاب أو لا تصبروا، وافعلوا ما شئتم فالأمران سواء عليكم" في عدم النفع، وقيل أيضاً: تقول لهم الملائكة هذا القول، و"سواء" خبر مبتدأ محذوف، أي الأمران سواء، ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر محذوف، أي: سواء عليكم الصبر وعدمه" (٤)

وظاهر هنا أن الأمر أيضاً ليس بحقيقي إنما أفاد معنى التسوية ، فالجزاء بالعمل ، فأنتم داخلوها صبرتم أم لم تصبروا.

التعجيز: "هو طلب الفعل على سبيل إظهار عجز المخاطب بتنفيذه لأنه فوق إرادته، وأعلى من مقدوره" (٥) .

(١) معاني القرآن: ج ٤٤١/١ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٥٤ .

(٣) الطور: ١٦ .

(٤) فتح القدير: ج ١١٥/٥ .

(٥) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٦٥٦ .

وقد ذكر الشوكاني هذا المعنى في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . (١)

فقال: "وقوله: "فاتوا" الفاء جواب الشرط وهو أمر معناه التعجيز... فتحداهم بأن يأتوا
بسورة من سوره،... و"ادعوا" أي ادعوا الذين يشهدون لكم من دون الله إن كنتم صادقين،...
وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم... ووجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من
البلاغة الخارجة عن طوق البشر" (٢) .

فهم عاجزون عن نظم سورة من سور القرآن، إضافة إلى عجزهم عن إحضار شهداءهم
الذين سيعارضون هذا القرآن ويأتوا بمثله. فهو فوق قدرتهم وإمكاناتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (٣) قيل: إن الأمر للتعجيز
لأنهم كانوا في التيه، فهو مثل قوله تعالى: ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ (٤) (٥) .

ويظهر من استشهاد الشوكاني بهذه الآيات وكأن "كلاً من التعجيز والتسخير والإهانة
بينهما قواسم مشتركة، أو أن الغرض من التعجيز هو الإهانة والسخرية من المقصود بالخطاب،
وذلك لأن الأمر في قوله: "كونوا حجارة أو حديدًا" أفاد معنى الإهانة كما استشهد بها الخطيب
القزويني، والشوكاني يستشهد بها في التعجيز، وكأنه أراد أن يبين لنا من خلال كلامه أن
المخاطب إذا عجز عن تنفيذ ما وجه إليه، وهو يدعي لنفسه العظمة والكبرياء فإن هذا يعتبر
أقوى وأعظم في الإهانة الموجهة إليه، والسخرية منه، لذا عدها من التعجيز لأنه أقوى في
التحدي وأشمل في توضيح المراد" (٦) .

التهكم: قال ابن أبي الإصبع المصري: "تهكمت البئر إذ تهدمت وتهكم عليه: اشتد غضبه
والمتهكم المتكبر، وهو في الاستعمال عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار والوعد

(١) البقرة: ٢٣ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٨٧، ٨٨ .

(٣) البقرة: ٦١ .

(٤) الإسراء: ٥٠ .

(٥) فتح القدير: ج ١/١٣٩ .

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٦٥٧ .

في مكان الوعيد والمدح في معرض الاستهزاء" (١) .

أي هو : "عبارة عن إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب" (٢) .

وقد ذكر الشوكاني هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣) فقال: "إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم" (٤) فالبشرى تكون للفرح، ولكنها جاءت مع العذاب للتهكم والاستهزاء والشوكاني جاء هنا بالمعنى البلاغي للتهكم الذي ذكره ابن أبي الأصبع المصري وهو: إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكم بهم.

"لفظ البشارة دال على الوعد وعلى حصول كل محبوب، فإذا وُصِلَ بالمكروه كان دالاً على التهكم لإخراجه المحبوب في صورة المكروه" (٥) .

التأنيس: وهو من الإيناس والاطمئنان، قال الدمنهوري: "هو تقديم ما يؤنس المخاطب قبل إخباره بمكروه" (٦) وقد أوضح الشوكاني ذلك في قوله تعالى: "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" (٧) فقال: "تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر" (٨) .

فجعل الشوكاني التأنيس غرضاً أو معنى ثانياً من معاني الأمر، ولم يذكر هذا الغرض أحد من البلاغيين ضمن أغراض الأمر حسب ما طالعت من كتب البلاغة.

التحذير:

يقول الشوكاني في إظهار المعنى الثاني للأمر في الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ (٩) "قوله" واتقوا الله" فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات، وفي قوله

(١) تحرير التحرير، ابن أبي الإصبع المصري، تحقيق: حفني محمد شرف الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٥ . ص ٥٦٨ .

(٢) الطراز: ٤٧٦ .

(٣) النساء: ١٣٨ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٧٠١ .

(٥) الطراز: ٤٧٦ .

(٦) معجم المصطلحات البلاغية: ج ١٦/٢ .

(٧) البقرة: ٢٢٣ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٣١٢ .

(٩) البقرة: ٢٢٣ .

"واعلموا أنكم ملاقوه (مبالغة في التحذير) ^(١) فعد الشوكاني التحذير غرضاً بلاغياً يخرج إليه الأمر، وهذه الآية فيها تهديد لمن يتعدى حدود الله، وكان التحذير والتهديد متقاربان في المعنى.

وفي قوله تعالى: ﴿نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ^(٢) ففي الآية الثانية أمر للنبي أن ينبئ عباد الله أن عذاب الله هو العذاب الأليم، يقول الشوكاني: "ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة (وهي أنه غفور رحيم) أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: وأن عذابي هو العذاب الأليم" ^(٣).

التهديد والوعيد:

"التهديد أي التخويف هو أعم من الإنذار لأنه إبلاغ مع تخويف وفي الصحاح هو تخويف مع دعوى" ^(٤) وقال ابن قتيبة: "أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد" ^(٥).

وهو أيضاً "إذا كان الأمر قد أمر بما هو غير راض عنه" ^(٦) أي استخدام صيغة الأمر في مقام عدم الرضا.

وقد وضع الشوكاني هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ^(٧) "هددهم سبحانه فقال لنبيه ﷺ :

(قل تمتعوا) بما أنتم فيه من الشهوات وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس (فإن مصيركم إلى النار) أي مردكم ومرجعكم إليها...وجملة (فإن مصيركم إلى النار) تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره" ^(٨).

(١) فتح القدير: ج ١/٣١٢

(٢) الحجر: آية ٤٩، ٥٠.

(٣) فتح القدير ج ٣/١٦٩.

(٤) المطول: ٤٢٥، ٤٢٦.

(٥) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، تحقيق السيد صقر، دار التراث، ١٩٧٣. ص ٢١٦.

(٦) البلاغة الاصطلاحية، عبده عبد العزيز قلقيلة، دار الفكر العربي، ط ٣، ١٩٩٢. ص ١٥٤.

(٧) إبراهيم: ٣٠.

(٨) فتح القدير: ج ٣/١٣٧.

فالأمر فيه تخويف وعدم رضا عن فعلهم وهو الإشراف بالله وهو ما لا يغفره الله أبداً، "فجعل الأمر بمباشرة مكان النهي قربانه إيضاحاً لما تكون عليه عاقبتهم وأنهم لا محالة صائرون إلى النار، فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية ذلك" (١) ونجد أن السيوطي جعل الغرض من الأمر في هذه الآية الإنذار (٢)، ولكن التهديد أعم من الإنذار، ففيه إيلاغ مع تخويف كما في التعريف المبين من قبل، فهناك رابط بين الإنذار والتهديد والوعيد كل منهم فيه تخويف.

ومن التهديد قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣) قال الشوكاني: "هذا أمر تهديد، أي "اعملوا" من أعمالكم التي تلقىكم في النار (ما شئتم إنه بما تعملون بصير) فهو مجازيكم على كل ما تعملون" (٤) وقال فيها الزجاج: "لفظ هذا الكلام لفظ أمر، ومعناه الوعيد والتهديد" (٥) وجاء التهديد أيضاً في قوله تعالى: ﴿ذُرُّهُم يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ (٦) فهو "تهديد لهم أي: دعهم عما أنت بصدده من الأمر لهم والنهي، فهم لا يراعون أبداً ولا يخرجون من باطل ولا يدخلون في حق، بل مرهم بما هم فيه من الاشتغال بالأكل والتمتع بزهرة الدنيا، فإنهم كالأنعام التي لا تهتم إلا بذلك ولا تشتغل بغيره، والمعنى: اتركهم على ما هم عليه من الاشتغال بالأكل ونحوه من متاع الدنيا ومن إلهاء الأمل لهم عن إتياعك فسوف يعلمون عاقبة أمرهم وسوء صنيعهم، وفي هذا من التهديد والزجر ما لا يقدر قدره" (٧).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٨).

قال الشوكاني: "هذا من باب التهديد والوعيد الشديد لهم، وليس من باب الأمر بالصبر على الكفر، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقين على المبطلين" (٩).

(١) فتح القدير: ج ٣/١٣٧.

(٢) معترك الأقران: ج ١/٣٣٦.

(٣) فصلت: ٤٠.

(٤) فتح القدير: ج ٤/٦١٦.

(٥) معاني القرآن للزجاج: ج ٤/٢٩٤، وانظر فتح القدير: ج ٤/٦١٦.

(٦) الحجر: ٣.

(٧) فتح القدير: ج ٣/١٥٣.

(٨) الأعراف: ٨٧.

(٩) فتح القدير: ج ٢/٢٨٦.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (١) .

كشف الشوكاني المعنى الثاني للأمر في الآية بقوله: "ومعنى قوله (أوف بعهدكم) أي بما ضمنت لكم من الجزاء، والرهب والرهبية: الخوف ويتضمن الأمر به معنى التهديد" (٢) وفي قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ (٣) "أمر معناه الوعيد" (٤) .

وقوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (٥) "فيه تسلية لرسول الله ﷺ ، وتهديد للمشركين وتهويل عليهم" (٦) .

التخيير:

"وهو أن يكون المخاطب مخيراً بين شيئين أو عدة أشياء شريطة ألا يجمع بينهما" (٧) .

ذكره الشوكاني في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ (٨) فقال في الأمر: "فيه تخيير لرسول الله ﷺ بين الحكم بينهم والإعراض عنهم، وقد استدل به على أن حكام المسلمين مخيرون بين الأمرين" (٩) .

وهذا المعنى الذي ذكره الشوكاني للأمر مطابق للمعنى البلاغي للتخيير فالنبي ﷺ له أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، مخير بين الأمرين ولكن لا يمكن أن يجمع بين الأمرين.

(١) البقرة: ٤٠ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ١١٦ .

(٣) البقرة: ٤٨ .

(٤) فتح القدير: ج ١/ ١٢٦ .

(٥) يونس: ٧٣ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/ ٥٨٥ .

(٧) من بلاغة القرآن / د. محمد علوان، ونعمان علوان: ٤٤ .

(٨) المائدة: ٤٢ .

(٩) فتح القدير: ج ٢/ ٥٧ .

"ولعل الشوكاني أصاب الهدف لسعة اطلاعه وعلمه الغزير عندما جعل الغرض البلاغي للأمر في الآية هو التخيير، لأن طبيعة المقام أفادت هذا، إذ أنه من المستحيل الجمع بين الأمرين في آن واحد، ولهذا قال أفاد معنى التخيير" (١) .

الاعتبار:

ذكر الشوكاني هذا المعنى الثاني من معاني الأمر في تفسير قوله تعالى: ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ (٢) فقال: "أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر وإلى ينعه إذا أينع" (٣) لعلهم يؤمنون بالله ويعتبروا بما يشاهدونه من قدرة الله في هذا الكون، وقد ذكر هذا المعنى من معاني الأمر السيوطي في معترك الأقران. (٤)

المشورة:

في قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ (٥) قال الشوكاني: "والمعنى يا أيها الأشراف أشيروا وبينوا لي الصواب في هذا الأمر وأجيبوني بما يقتضيه الحزم، وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون في ذلك حل لما أشكل من الأمر عليها" (٦) .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ (٧) فعلى القراءة بفتح التاء والراء من الرأي في كلمة "ترى"، قال الشوكاني "ومعنى القراءة الثانية ظاهر واضح، وإنما شاوره ليعلم صبره لأمر الله" (٨) .

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٥٩ .

(٢) الأنعام: ٩٩ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/ ١٨٥ .

(٤) معترك الأقران: ج ١/ ٣٣٦ .

(٥) النمل: ٣٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٤/ ١٦٦ .

(٧) الصافات: ١٠٢ .

(٨) فتح القدير: ج ٤/ ٤٨١ .

التبشير:

كما في قوله تعالى: ﴿ نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) أي أخبرهم يا محمد أي أنا الكثير المغفرة لذنوبهم الكثير الرحمة لهم...ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله بأن يخبر عباده بهذه البشارة العظيمة أمره بأن يذكر لهم شيئاً مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف ويتقابل التبشير والتحذير^(٢) واضح هنا أن الغرض من الأمر في قوله تعالى: "تبئ عبادي" هو تبشير المؤمنين بأن الله كثير المغفرة وأن رحمته سبقت عذابه فلا يقنطوا من رحمة الله، فخرج الأمر إلى معنى ثانٍ عن الأمر الحقيقي.

التعجب:

كما في قوله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نَبَّيْنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾^(٣) .

قال الشوكاني في توضيح المعنى الثاني للأمر "انظر" في الآية "أي الدلالات، وفيه تعجب من حال هؤلاء الذين يجعلون تلك الأوصاف مستلزماً للإلهية ويغفلون عن كونها موجودة في من لا يقولون بأنه إله...وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجب وجاء بـ"ثم لإظهار ما بين العجبيين من التفاوت"^(٤) .

و"ثم تأتي بمعنى التعجب"^(٥)، فجاءت هنا للمبالغة في التعجب من أفعال الكفار وصرافهم عن الآيات.

وفي قوله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ... ﴾^(٦) يقول الشوكاني: "انظر كيف كذبوا على أنفسهم بإنكار ما وقع منهم في الدنيا من الشرك وضل عنهم ما كانوا يفترون...وهذا تعجب لرسول الله ﷺ من حالهم المختلفة ودعواهم المتناقضة"^(٧) .

(١) الحجر: ٤٩ .

(٢) فتح القدير: ج ١٦٩/٣ .

(٣) المائدة: ٧٥ .

(٤) فتح القدير: ج ٨٥/٢ .

(٥) انظر الإتيان في علوم القرآن: ج ٥٠٣/٢ .

(٦) الأنعام: ٢٤ .

(٧) فتح القدير: ج ١٤٠، ١٣٩/٢ .

التهيج والإلهاب:

وقد عرفها العلوي في اللغة فقال: "الإلهاب (إفعال) من قولهم ألهب النار إذا أسعرها حتى التهبت وطال لهبها، والتهيج (تفعيل) من قولهم هاجت الحرب إذا ثارت" (١).

أما في الاصطلاح فقال: "هما مقولان على كل كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهيج له على الفعل أو الكف لا غير" (٢).

وقد ذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ (٣) فقال: "والخطاب إما لرسول الله ﷺ تهيجاً وإلهاباً لغيره من الأمة، أو لكل من هو صالحٌ لذلك من المكلفين" (٤).

ثانياً: الاستفهام:

الاستفهام في اللغة: من الفهم: معرفتك الشيء بالقلب، وفهمت الشيء عقلته وعرفته، وأفهمه الأمر وفهمه إياه: جعله يفهمه، واستفهمه سأله أن يفهمه، وقد استفهمني الشيء فأفهمته وفهمته تفهيماً" (٥).

أما في اصطلاح البلاغيين: "الاستفهام لطلب حصول في الذهن، والمطلوب حصوله في الذهن، إما أن يكون حكماً بشيء على شيء أو لا يكون، والأول هو التصديق ويمتنع انفكاكه من تصور الطرفين، والثاني هو التصور، ولا يمتنع انفكاكه من التصديق" (٦).

أو "هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن بأدوات مخصوصة" (٧).

(١) الطراز: ٤٧٧ .

(٢) المصدر السابق: ٤٧٧ .

(٣) الإسراء: ٢٦ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/ ٢٧٨ .

(٥) اللسان: (فهم) .

(٦) مفتاح العلوم: ٣٠٣، وانظر المطول: ٤٠٩ .

(٧) الإيضاح: ١٣٢ .

أي " طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة مخصوصة" (١) .

والاستفهام قد يكون حقيقياً يراد منه الفهم والمعرفة فيكون الجواب له مباشرة وقد لا يراد منه حقيقته بل يراد منه صور أخرى غير الحقيقية وهي الصور والمعاني الأخرى التي يخرج إليها الاستفهام ولكن الاستفهام طلب ما في الخارج أو تحصيله في الذهن لزم ألا يكون حقيقة إلا إذا صدر من شاك مصدق بإمكان الإعلام، فإن غير الشاك إذا استفهم يلزم تحصيل الحاصل، وإذا لم يصدق بإمكان الإعلام انتفت فائدة الاستفهام" (٢) .

وقد ورد الاستفهام في القرآن الكريم كثيراً وبأدواته المختلفة وصوره المتعددة.

وملاحظ من الناحية البلاغية " أن الاستفهام الحقيقي محال أن يكون صادراً من جهة الحق جل وعلا، لأن الحق جل وعلا لا يستفهم خلقه عن شيء، فإن كان الاستفهام من جهته تعالى فلا تراد به حقيقته البتة وإنما يراد منه أو به معان بلاغية بحسب المقام، وهذا ما نطلق عليه المعاني الثانية للاستفهام" (٣) .

فإنه سبحانه إنما يستفهم خلقه ليقررهم ويذكرهم أنهم قد علموا حق ذلك الشيء" (٤) .

وقد تناول الشوكاني في تفسيره للآيات القرآنية التي جاء فيها الاستفهام المعاني البلاغية للاستفهام التي خرجت به عن حقيقته، ولا يكاد يمر أسلوب استفهام في القرآن إلا وبين الغرض البلاغي منه إن لم يكن استفهاماً حقيقياً، وقد ذكر أغراضاً بلاغية متعددة ومتنوعة للاستفهام، وسنبينها في الصفحات الآتية من هذا البحث:

الأغراض البلاغية للاستفهام:

من الأغراض البلاغية التي تناولها الشوكاني في تفسيره وبين رأيه فيها:

- (١) من بلاغة القرآن : علوان، ٥١. وانظر جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي : ٨٥ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- (٢) البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢ . ج ٢/٣٢٦، ٣٢٧ ، وانظر: الاتقان في علوم القرآن : ج ٣/ ١٩٩ .
- (٣) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٦٠ .
- (٤) البرهان في علوم القرآن: ج ٢/ ٣٢٧ .

١- النفي :

في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) .

أوضح الشوكاني الغرض من هذا الاستفهام فقال: "هذا الاستفهام معناه الجحد أي ما لنا من الأمر، وهو النصر والاستظهار على العدو"^(٢) .

وهنا يذكر المعنى الثاني للاستفهام مباشرة، وجاءت هل بمعنى ما النافية فهي ترد بمعنى النفي، والجحد هو النفي، والفرق بينهما أن الجحد "إن كان صادقاً سمي كلامه نفيّاً ولا يسمى جحداً، وإن كان كاذباً سمي جحداً ونفيّاً أيضاً، فكل جحد نفي وليس كل نفي جحداً"^(٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾^(٤) يورد الشوكاني آراء بعض العلماء في الآية ثم يوضح رأيه فيها، فيقول: "قال المفضل: مقصود هذا الاستفهام الجحد أي: لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء، وأم هي المنقطعة والهمزة لإنكار الوقوع، قال المبرد: إن أم هنا بمعنى هل، أي: هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى، ولا تكون أم هنا بمعنى بل، لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى، إلا أن تقدر أم مع الاستفهام فتكون أم المنقطعة فيصح المعنى"^(٥) ويوضح الشوكاني المعنى آخذاً برأي المفضل، فيقول: "والمعنى: بل اتخذوا آلهة من الأرض هم خاصة مع حقارتهم ينشرون الموتى وليس الأمر كذلك، فإن ما اتخذوها آلهة بمعزل عن ذلك"^(٦) .

و"أم" هنا المنقطعة لأن الآية فيها انكار وقوع إحياء الموتى ممن يتخذهم آلهة، ومعنى أم المنقطعة: الذي لا يفارقها الإضراب، ثم تارة تكون له مجرداً، وتارة تضمن مع ذلك استفهاماً إنكارياً"^(٧) .

(١) آل عمران: ١٥٤ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٥٢٦ .

(٣) الإتيقان في علوم القرآن: ج ٣/١٩٥ .

(٤) الأنبياء: ٢١ .

(٥) فتح القدير: ج ٣/٥٠٣ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/٥٠٣ .

(٧) الإتيقان في علوم القرآن: ج ٢/٤٨٢ .

كذلك جاء الاستفهام بمعنى النفي في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا... ﴾ (١).

يلق الشوكاني على معنى الاستفهام في هذه الآية بقوله: "هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم متناه وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم، أي لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله" (٢) وهنا يوضح النفي دون ذكر كلمة النفي ولكن يوضحه من خلال أداة النفي (لا).

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (٣) يقول: "فزعم أن له شريكاً في العبادة أي: لا أحد أظلم منه" (٤) و"من" هنا استفهامية أشربت معنى النفي، فأعطت المعنى الثاني للاستفهام وهو النفي، حيث أن "من" لها أربعة أقسام متفق عليها: الموصولة، والاستفهامية، والشرطية، والنكرة الموصوفة... والاستفهامية: هي التي أشربت معنى النفي" (٥).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ (٦) يقول الشوكاني مبيناً الغرض من الاستفهام: "أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه التنزيلية أو التكوينية أو مجموعهما فتهاون بها وأعرض عن قبولها ولم يتدبرها حق التدبر ويتفكر فيها حق التفكير" (٧).

ومنه قوله جل وعلا ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (٨) قال الشوكاني: "هذا الاستفهام معناه الجحد أي لا يهدي الله، ونظيره قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ (٩) أي لا عهد لهم، ومثله قال الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولما تشمل الشام غارة شعواء

(١) البقرة: ١١٤ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ١٨٩ .

(٣) الكهف: ١٥ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/ ٣٤٥ .

(٥) انظر البرهان في علوم القرآن: ج ٤/ ٤١١ .

(٦) الكهف: ٥٧ .

(٧) فتح القدير: ج ٣/ ٣٧٣ .

(٨) آل عمران: ٨٦ .

(٩) التوبة: ٧ .

أي لا نوم لي، ومعنى الآية : لا يهدي الله قوماً إلى الحق كفروا بعد إيمانهم" (١) "فأعلم الله أنه لا جهة لهدايتهم لأنهم استحقوا أن يضلوا بكفرهم" (٢) .

توافق رأي الشوكاني والزجاج في خروج الاستفهام لمعنى النفي في الآية السابقة.

٢- التقرير:

وهو أحد الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام.

والمراد به "حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده" (٣) أي ثبت وقد ذكر الشوكاني هذا الغرض في الكثير من الأمثلة في تفسيره، منها:

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) بين فيه معنى التقرير، فقال: "هذا الاستفهام للتقرير، والمعنى أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر، وهو أعلم بالشاكرين له، فما بالكم تعترضون بالجهل وتتكرون الفضل" (٥) .

وهذا الاستفهام فيه إثبات بأن الله يعلم الشاكرين من عباده، ومعلوم أن "حقيقة استفهام التقرير، أنه استفهام إنكار، والإنكار نفي، وقد دخل على النفي ونفي النفي إثبات" (٦) .

فأدخل الإنكار في الهمزة على النفي بليس، فأصبح نفي النفي وهو إثبات.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (٧) بين أن جهنم جعلت مستقراً ومأوى للكافرين على وجه التقرير والإثبات فقال في تفسيرها "أي مكان يستقرون فيه، والاستفهام

(١) فتح القدير: ج ١ / ٤٨٤ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ج ١ / ٣٧٠ .

(٣) البرهان في علوم القرآن : ج ٢ / ٣٣١ .

(٤) الأنعام : ٥٣ .

(٥) فتح القدير: ج ٢ / ١٥٥ .

(٦) البرهان في علوم القرآن: ج ٢ / ٣٣٣، وانظر: معترك الأقران : ج ١ / ٣٣٠، والإتقان في علوم القرآن :

ج ٣ / ٢٠١ .

(٧) العنكبوت: ٦٧ .

للتقرير، والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها، وقد فعلوا ما فعلوا^(١) فهو استفهام تقرير حقيقته الإنكار، ودخل على النفي (ليس) فأصبح إثباتاً لتلك الحقيقة التي قررها الله: أن جهنم مستقر الكافرين.

ومنه قوله جل وعلا: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾^(٢) يوضح الشوكاني هنا حقيقة الاستفهام عند دخوله على النفي فيقول في شرحه للآية السابقة " معنى شرح الصدر: فتحه بإذهاب ما يصدر عن الإدراك، والاستفهام إذا دخل على النفي قرره فصار المعنى: قد شرحنا لك صدرك"^(٣).

وجاء في هذا المعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾^(٤).

بين الشوكاني معنى الاستفهام في هذه الآية بقوله: "الاستفهام للتقرير، ومعناه أليس قد أتاك حديث موسى... وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة، وتحمل أثقالها ومقاساة خطوبها، وأن ذلك شأن الأنبياء قبله، والمراد بالحديث القصة الواقعة لموسى"^(٥).

يظهر هنا أن الشوكاني " أرجع الاستفهام إلى معناه وهو: أليس قد أتاك حديث موسى، فيكون قد أدخل الإنكار في الهمزة على النفي هو (ليس) فيكون نفي النفي إثبات"^(٦) والإثبات هو التقرير، فالشوكاني هنا أثبت أن الاستفهام غرضه التقرير من خلال هذا التحليل. وبين أن هذا الاستفهام للتقرير مع التسلية فجمع فيه بين الأمرين.

وجاء أيضاً التقرير مع التعجب، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾^(٧).

(١) فتح القدير: ج ٤/ ٢٥٤ .

(٢) الشرح: ١ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/ ٥٤٩ .

(٤) طه: ٩ .

(٥) فتح القدير ج ٣/ ٤٤٩ .

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني : ٢٧٠ .

(٧) سورة البقرة : ٢٤٣ .

يقول الشوكاني في تفسير الآية: "الاستفهام هنا للتقرير، والرؤية المذكورة هي رؤية القلب لا رؤية البصر... ويجوز أن تكون بمعنى الرؤية البصرية أي ألم تنظر إلى الذين خرجوا، جعل الله سبحانه قصة هؤلاء لما كانت بمكان من الشيوخ والشهرة يحمل كل أحد على الإقرار بها بمنزلة المعلومة لكل فرد أو المبصرة لكل مبصر، لأن أهل الكتاب قد أخبروا بها ودونها وأشهروا أمرها، والخطاب هنا لكل من يصلح له، والكلام جار مجرى المثل في مقام التعجب ادعاء لظهوره وجلائه بحيث يستوي في إدراكه الشاهد والغائب" (١).

دخلت همزة الإنكار على النفي (لم) فكان نفي للنفي وهو الإثبات والتقرير المعنى الثاني لهذا الاستفهام، وكان مع هذا التقرير التعجب في قوله والكلام جاري مجرى المثل في مقام التعجب.

ومنه: **التقرير مع التعجب والاستغراب**، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ (٢).

جاء الاستفهام للتقرير حسب قراءة الجمهور، يقول الشوكاني: "قرأ ابن كثير "إنك" على الخير بدون استفهام، وقرأ الباقر على الاستفهام التقريري، وكان منهم على طريق التعجب والاستغراب" (٣) يظهر مما سبق أن الاستفهام "أنتك" كأنها "أليس" أنت يوسف، فأدخل الهمزة للإنكار على النفي فيكون إثباتاً، وجاء هذا الاستفهام على وجه التقرير مع التعجب والاستغراب.

ومن وجوه التقرير: **التقرير مع إلزام الحجة:**

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي ﴾ (٤) إذ يقول الشوكاني عن هذا الاستفهام أنه "للتقرير وإلزام الحجة" (٥) فالمقصود إقرارهم بأن الله هو أحق بالعبادة ممن اتخذتموهم آلهة، وقد وافق الشوكاني الزجاج في جعل هذا الاستفهام للتقرير، يقول الزجاج في تفسير الآية السابقة: "أي قرّروا، فقل لهم: أي أولى بالاتباع؟"

(١) فتح القدير ج ١ / ٣٥٧ .

(٢) يوسف ٩٠ .

(٣) فتح القدير ج ٣ / ٦٥ .

(٤) يونس ٣٥ .

(٥) فتح القدير ج ٢ / ٥٦١ .

الذي يهدي أم الذي لا يهدي إلا أن يُهدى" (١) .

التقرير مع التنبيه: كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (٢) .

ذكر الشوكاني: أن هذا الاستفهام غرضه التقرير وأن هذا التقرير غرضه التنبيه، فقال: "هذا الاستفهام للتقرير، والغرض منه التنبيه على أن الملحدين في الآيات يلقون في النار، وأن المؤمنين بها يأتون آمنين يوم القيامة" (٣) فهو يقرر هذه الحقيقة وينبه المؤمنين وغيرهم إلى جزاء كل فريق يوم القيامة.

استفهام تقريرى مع الأمر:

وقد ذكره الشوكاني في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ (٤) فقال: "قوله"أأسلمتم" استفهام تقرير يتضمن الأمر، أي أسلموا، كذا قال ابن جرير وغيره... والمعنى: قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا؟ تبيكيتاً لهم وتصغيراً لشأنهم في الإنصاف وقبول الحق" (٥) .

وقد خالف الزجاج هذا الرأي ورأى أن الاستفهام هنا للتوقيف والتهديد، فقال: -" وقال بعض النحويين: معنى أسلمتم الأمر، معناه عندهم أسلموا، وحقيقة هذا الكلام أنه لفظ استفهام معناه التوقيف و التهديد، كما تقول للرجل بعد أن تأمره وتؤكد عليه: أَقْبَلْتَ.. وإلا فأنت أعلم، فأنت إنما تسأله متوعداً في مسألتك ، لعمري هذا دليل أنك تأمره بأن يفعل" (٦) .

وقد ذكر الشوكاني هذا الغرض -التقرير- في تفسيره لكثير من الآيات التي جاءت على طريق الاستفهام.

(١) معاني القرآن للزجاج ج٣/١٧ .

(٢) فصلت ٤٠ .

(٣) فتح القدير ج٤/٦١٦ .

(٤) آل عمران ٢٠ .

(٥) فتح القدير ج١/٤٤٣، ٤٤٢ .

(٦) معاني القرآن للزجاج ج١/٣٢٩ .

التقرير مع التوبيخ:

في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْفِيَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

يذكر الشوكاني رأي الزمخشري في (أم) وخروجها للتقرير، فيقول: " قال في الكشف: و"أم" إما أن تكون معادلة بمعنى أي الأمرين كائن على سبيل التقرير، لأن العلم واقع بكون أحدهما، ويجوز أن تكون منقطعة انتهى" (٢) ثم يعلق فيقول: " وهذا توبيخ لهم شديد " (٣) .

وكان الشوكاني قد جعل الاستفهام في الآية السابقة للإنكار فقال: " والمراد بقوله: (قل اتخذتم عند الله عهدا) الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة " (٤) .

٣- الإنكار:

" والمعنى فيه على النفي وما بعده منفي، ولذلك تصحبه (إلا) " (٥) .

ويقول الزركشي: "وتسمية هذا استفهام إنكار، من أنكروا إذا جحد" (٦) فهو استفهام نفي، أي نفي وقوع ما يستفهم عنه .

والمعروف أن الاستفهام الإنكاري قسمان: إنكار توبيخي، وإنكار تكذيبي، إلا أن الشوكاني ذكر للاستفهام الإنكاري مسميات مختلفة جاءت معه، إضافة للإنكار التوبيخي والإنكار التكذيبي، فقد " أضاف مسميات جديدة ربما يكون صاحب الفضل في وضعها، والبعض الآخر أخذه من غيره وسابقه أمثال الزمخشري كالتقرير والإنكار والتعجب " (٧) وسنبين هذه المسميات

(١) البقرة ٨٠ .

(٢) فتح القدير ج ١ / ١٥٥ ، وانظر الكشف، الزمخشري ، ج ١ / ١٤٧ ، شرح وضبط يوسف الحمادي ، مكتبة مصر ، القاهرة .

(٣) فتح القدير ج ١ / ١٥٥ .

(٤) فتح القدير ج ١ / ١٥٥ .

(٥) الإتيان ج ٣ / ٢٠٠ ، وانظر البرهان في علوم القرآن ج ٢ / ٣٢٨ .

(٦) البرهان في علوم القرآن ج ٢ / ٣٣٠ .

(٧) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ٦٦٢ .

كما ذكرها الشوكاني في تفسيره إلا أنه ذكر الإنكار في كثير من الآيات دون أن يذكر مسميات له، بل كان يذكر أن الاستفهام للإنكار مع توضيحه دون المسميات حتى لم يذكر تكذيبي أو توبيخي، كما في الأمثلة الآتية :

في قوله تعالى: ﴿ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ (١) قال الشوكاني: ثم أنكر الله عليهم بقوله (الآية) أي كيف ترتدون وتتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم وإن فقدوا بموت أو قتل" (٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٣) يقول الشوكاني: " وهذا الاستفهام للإنكار، لأنه قاس قدرة الله على قدرة العبد، فأنكر أن الله يحيى العظام البالية حيث لم يكن ذلك في مقدور البشر" (٤) .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ (٥) ذكر الشوكاني أن "الاستفهام للإنكار أي : ليس المؤمن كالفاسق، فقد ظهر ما بينهما من التفاوت، ولهذا قال: "لا يستون" ففيه زيادة تصريف لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام" (٦) .

ومن المسميات التي جاءت مع الإنكار كما ذكرها الشوكاني، ما يلي:

أولاً: الإنكار التوبيخي :

ذكره الشوكاني بهذا المسمى في العديد من الآيات، منها: قوله تعالى: "أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ" (٧) يبين هذا الاستفهام بقوله: "الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره، والمعنى: أيعرضون عن حكمك بما أنزل الله عليك، ويقولون عنه ويبتغون حكم الجاهلية" (٨) .

(١) آل عمران ١٤٤ .

(٢) فتح القدير ج ١/٥١٩ .

(٣) يس ٧٨ .

(٤) فتح القدير ج ٤/٤٥٧ .

(٥) السجدة ١٨ .

(٦) فتح القدير ج ٤/٣٠٤ .

(٧) المائدة ٥٠ .

(٨) فتح القدير ج ٢/٦٥ .

وواضح أن التوبيخ هنا كان على عمل أو فعل فعلوه، وهو إعراضهم عن حكم النبي ﷺ والتوبيخ دائماً يكون مرتبطاً بعمل، وهذا خلاف التكذيب والذي يرتبط بالقول الكاذب.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾^(١) يوضح الشوكاني معنى الاستفهام في الآية فيقول: "والاستفهام للإنكار التوبيخي، والفاء للعطف على مقدر، أي يكفرون بالله فيؤمنون بالباطل" ^(٢).

دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل، وجاء المفعول مقدماً لقصر إيمانهم على الباطل دون غيره.

ومثل له الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴾^(٣) أوضح الشوكاني المعنى الثاني للاستفهام في الآية السابقة بقوله: "الاستفهام للإنكار التوبيخي، والموعد الحسن وعدهم الجنة إذا أقاموا على طاعته.." ^(٤).

والتوبيخ هنا مباشر يذكره الشوكاني مع الإنكار.

وهناك الكثير من الآيات التي جاء فيها الاستفهام بغرض الإنكار التوبيخي حسب ما بينه الشوكاني نذكر منها باختصار:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾^(٦) وغيرهن من الآيات.

وقد كان الشوكاني يذكر معنى الإنكار للاستفهام دون ذكر إنكار توبيخي، بصورة مباشرة، ولكن يظهر هذا المعنى من خلال شرحه للآية، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ

(١) النحل ٧٢ .

(٢) فتح القدير ج ٣/ ٢٢٦ .

(٣) طه ٨٦ .

(٤) فتح القدير ج ٣/ ٤٧٦ .

(٥) طه ٩٣، ٩٢ .

(٦) البقرة ٤٤ .

أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴿١﴾ (١) يشرح الشوكاني هذا المعنى بطريقة جميلة، فيقول فيه: "الاستفهام للإنكار، قال لهم ذلك لما دعوهم إلى عبادة الأصنام، ولما كان الإنكار لاتخاذ غير الله ولياً، لا لاتخاذ المولى مطلقاً دخلت الهمزة على المفعول لا على الفعل، والمراد بالولي هنا المعبود: أي كيف أتخذ غير الله معبوداً" (٢).

وكانه يريد أن يوجه الكلام إليهم، بأن لا يتخذوا غير الله ولياً، ولكنه أراد أن يبدأ بنفسه فينكر ذلك على نفسه وبالتالي هم يتبعونه في ذلك " وقد يبدوا في بعض أساليب الاستفهام أن المتكلم ينكر الأمر على نفسه في الظاهر، وإن كان مراده إنكاره على الآخرين يرد بذلك التلطف في النصح، وعدم مواجهة المخاطبين بالإنكار حتى لا ينسب القبح إليهم فيثير غضبهم، وهذا أسلوب لطيف في الإنكار تتألف به القلوب فتقبل النصح وتبتعد عن الخطأ" (٣).

وقد أضاف الشوكاني إلى هذا النوع من الاستفهام أي الاستفهام للإنكار التوبيخي أضاف كلمات أخرى مثل التقرير والأمر.

أورد هذا النوع من الاستفهام وأجاد في توضيحه، كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٤) قال الشوكاني: "في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحداً من عباده يقدر على أن ينفع أحداً منهم بشفاعته أو غيرها، والتقرير والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور والصد في وجوههم والفت في أعضادهم ما لا يقدر قدره ولا يبلغ مداه" (٥) وقد جعل السيوطي الغرض من الاستفهام في الآية السابقة التعظيم (٦) وذكر الشوكاني مع الاستفهام الإنكاري التوبيخي غرض الاستبعاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٧) وضح غرض الاستفهام بقوله: "والاستفهام منهم للإنكار والتوبيخ والاستبعاد وللقدح في النبوة" (٨).

(١) الأنعام ١٤ .

(٢) فتح القدير ج ٢/ ١٣٥ .

(٣) فن البلاغة، عبد القادر حسين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٣٨ .

(٤) البقرة ٢٥٥ .

(٥) فتح القدير ج ١/ ٣٧١ .

(٦) الإتيقان في علوم القرآن ج ٣/ ٢٠٣ .

(٧) يونس ٤٨ .

(٨) فتح القدير ج ٢/ ٥٦٨ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ (١) بيّن الشوكاني الغرض من الاستفهام بقوله: " وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ، والخطاب لليهود والنصارى" (٢) فالإنكار أفاد التقريع والتوبيخ، وبالبحث اللغوي في معنى الكلمتين تبين أنهما مترادفتان وكل منهما بمعنى: التأنيب والتعنيف والتهديد واللوم. (٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٤).

يقول الشوكاني: "الاستفهام للإنكار مع التقريع والتوبيخ، ومعنى التفرق هنا هو التفرق في الذوات والصفات والعدد، أي هل الأرباب المتفرقون في ذواتهم المختلفون في صفاتهم المتنافون في عددهم خير لكما يا صاحبي السجن أم الله المعبود بحق، المتفرد في ذاته وصفاته... وأورد يوسف عليه السلام على صاحبي السجن هذه الحجة القاهرة على طريق الاستفهام، لأنها كانا ممن يعبد الأصنام" (٥) فأنكر عليهم هذه العبارة مع توبيخه لهم وللآلهة التي يعبدونها وتقريعاً لهم ليزكوا هذه العبادة.

وذكر الشوكاني كذلك الأمر مع الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوُكُمْ أَوْلَ مَرَّةٍ ﴾ (٦) يقول: "الهمزة الداخلية على حرف النفي للاستفهام التوبيخي مع ما يستفاد منها من التحضيض على القتال والمبالغة في تحقيقه، والمعنى: أن من كان حاله كحال هؤلاء من نقض العهد وإخراج الرسول من مكة والبداءة بالقتال، فهو حقيق بأن لا قتال له، وأن يوبخ من فرط في ذلك" (٧).

فقوله: "ألا تقاتلوا" بمعنى "قاتلوا" أي أمر للمؤمنين بقتال أولئك القوم، مع التوبيخ الذي ذكره الشوكاني "وكان الشوكاني أراد من قوله: الهمزة الداخلة على حرف النفي للاستفهام

-
- (١) البقرة: ١٣٣ .
 - (٢) فتح القدير ج ١/ ٢٠٨ .
 - (٣) اللسان (قرع) و (وبخ) .
 - (٤) يوسف: ٣٩ .
 - (٥) فتح القدير ج ٣/ ٣٤ .
 - (٦) الأنفال: ١٣ .
 - (٧) فتح القدير ج ٢/ ٤٣٣ .

التوبيخي هو: لم لا تقاتلون؟! والأمر من قوله: مع ما يستفاد منها من التحضيض، فيجمع الإنكار التوبيخي مع الأمر فيصبح المعنى المراد: لم لا تقاتلون؟ قاتلوا" (١) .

وهناك شواهد كثيرة على هذا المعنى من الاستفهام، نكتفي بما أشرنا إليه كي لا نطيل.

ثانياً: الإنكار التكذيبي:

وهو الإنكار الذي يلحق بالأقوال دون الأفعال: فقد "يصحب الإنكار التكذيب للتعريض بأن المخاطب ادعاه وقصد تكذيبه" (٢) .

ويكون الإنكار التكذيبي "في الماضي بمعنى (لم يكن) وفي المستقبل بمعنى (لا يكون)" (٣) .

وقد أجاد الشوكاني في توضيح هذا الاستفهام وما خرج إليه من معنى ثاني أعطى جمالاً للمعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْتُمْ كَارِهُونَ ﴾ (٤) قال الشوكاني: "الاستفهام في أنلزمكموها للإنكار أي : لا يمكنني أن اضطرركم على المعرفة بها، والحال أنكم لها كارهون، والمعنى: اخبروني إن كنت على حجة ظاهرة الدلالة على صحة نبوتي إلى أنها خافية عليكم، يمكننا أن نضطرركم إلى العلم بها والحال أنكم لها كارهون غير متدبرين فيها، فإن ذلك لا يقدر عليه إلا الله عز وجل " (٥) .

فهو ينكر عليهم تكذيبهم بالحجة الظاهرة لهم وهم يعرفونها لكنهم يكذبون .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أُنَدَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٦) قال الشوكاني: "قرأ الجمهور على الاستفهام... والمراد بالإنسان هنا الكافر، لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث" (٧) ظاهر هنا أن هذا الاستفهام إنكاري تكذيبي لارتباطه بالقول، وذكره الشوكاني مباشرة بلفظ التكذيب.

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٦٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج٢/٣٣٠ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ج٣/٢٠٠ .

(٤) هود ٢٨ .

(٥) فتح القدير ج٢/٦٢٣ .

(٦) مريم ٦٦ .

(٧) فتح القدير ج٣/٤٣١ .

ومثله، قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ (١).

"المراد بالإنسان الجنس، وقيل: الإنسان الكافر، والهمزة للإنكار... والمعنى: أحسب الإنسان أن الشأن أن لن نجمع عظامه بعد أن صارت رفاتاً فنعيدها خلقاً جديداً وذلك حسبان باطل، فإننا نجمعها" (٢).

اعتبر الشوكاني الهمزة للإنكار فينكر على الإنسان هذا حسبان، وفي قوله: ذلك حسبان باطل" أي حسباناً كاذباً، فجمع الإنكار والتكذيب، فينكر عليه تكذيبه بإحياء الإنسان بعد موته.

وقد تطرق الشوكاني لأغراض بلاغية للاستفهام الإنكاري غير التوبيخي والتكذيبي كما ذكرنا من قبل، ومن هذه الأغراض.

أ - الإنكار والتقرير:

ذكر الشوكاني هذا الغرض أثناء تفسيره لكثير من آيات القرآن الكريم، وكما هو معروف أن التقرير هو لإثبات المعنى المراد، ثم الإنكار على المخالفين لذلك المعنى.

منه قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ (٣) يقول الشوكاني في هذا الاستفهام أنه "للإنكار التقريري والجملة تأكيد للتعليل... ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن، والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم" (٤).

مفهوم هذا عند الشوكاني، أن الله سبحانه وتعالى أراد إثبات وتقرير قرب الصبح من تلك الليلة وكأن المعنى إن الصبح قريب، وينكر على لوط عليه السلام استعجاله للعذاب فقد روي أنه أراد هلاكهم بسرعة ورأى أن الصبح بعيد.

(١) القيامة ٣ .

(٢) فتح القدير ج ٥/٣٩٨ .

(٣) هود ٨١ .

(٤) فتح القدير ج ٢/٦٤٨، ٦٤٩ .

ومنه قوله سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ أَهَسَّ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَهَسَّ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ ﴾^(١) كشف الشوكاني عن الغرض الثاني للاستفهام في الآية بقوله: "والهمزة للإنكار التقريري... والمعنى أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه خير ممن أسس دينه على ضد ذلك وهو الباطل والنفاق"^(٢) ومفهوم من هذا المعنى الذي ذكره الشوكاني أن الله سبحانه ينكر على من يؤسس بنيانه من غير أسس أي من يجعل الباطل والنفاق أساسا لدينه، ويثبت لمن يجعل تقوى الله هي أساس دينه أن دينه هو الدين الصحيح، وقد ذكر الزجاج معنى التقرير دون اللفظ في توضيح معنى الآية فقال: "المعنى: أن من أسس بنيانه على التقوى خير ممن أسس بنيانه على الكفر"^(٣) فـ(أن) للتوكيد والتقرير.

ومنه في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾^(٤)، وفي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾^(٥) وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾^(٦) يقول الشوكاني: "الاستفهام للإنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة، وأم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي: بل يقولون افتراه واختلقه"^(٧) وقد ذكر الزجاج هذا الغرض الذي ذكره الشوكاني للاستفهام الإنكاري، في شرحه لهذه الآية فقال: "المعنى: بل يقولون افتراه، هذا تقرير لهم لإقامة الحجة عليهم"^(٨).

ب - الإنكار والتعجب : مثل له الشوكاني في تفسيره لأكثر من آية في القرآن الكريم منها، قوله تعالى: ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾^(٩) قال الشوكاني: "هذا الاستفهام للإنكار والتعجب من إشارتها إلى ذلك المولود بأن يكلمهم"^(١٠).

(١) التوبة: ١٠٩ .

(٢) فتح القدير ج٢/٥١٠ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ج٢/٣٨٠ .

(٤) المائدة: ٤٠ .

(٥) البقرة : ٢١٤ .

(٦) يونس: ٣٨ .

(٧) فتح القدير ج٢/٥٦٣ .

(٨) معاني القرآن للزجاج ج٣/١٨ .

(٩) مريم: ٢٩ .

(١٠) فتح القدير ج٣/٤١٨ .

يفهم من قول الشوكاني أنهم قد أنكروا أن يتكلم صبي في المهد، وتعجبوا من إشارة مريم إلى الصبي بأن يتحدثوا معه، فجمع الإنكار والتعجب في معنى الاستفهام.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (١) يوضح الشوكاني أن هذه الجملة الاستفهامية "مستأنفة مسوقة لبيان إقامة الحجة على من أنكر البعث وللتعجب من جهله، فإن مشاهدة خلقهم في أنفسهم على هذا الصفة من البداية إلى النهاية مستلزمة للاعتراف بقدرة القادر الحكيم على ما هو دون ذلك من بعث الأجسام وردها كما كانت" (٢).

وقد ذكر هذا المعنى الزمخشري في إظهار الغرض البلاغي للاستفهام فقال: -" قبح الله- عز وجل- إنكارهم البعث تقبيحاً لا ترى أعجب منه وأبلغ وأدل على تمادي كفر الإنسان، وإفراطه في جحود النعم وعقوق الأيادي، وتوغله في الخسة وتغلغله في القحة" (٣).

وجاء هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ (٤) وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ (٥).

ج- الإنكار والتبئيس:

ذكر هذا الغرض في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٦) فقال: "هذا الاستفهام فيه معنى الإنكار، كأنه آيسهم من إيمان هذه الفرقة من اليهود" (٧).

وواضح من المعنى الذي بينه الشوكاني أن الغرض من الاستفهام الإنكار على من يأمل ويطمع في إيمان هذه الفرقة من اليهود، إضافة إلى تبئيسهم من إيمان تلك الفرقة.

(١) يس: ٧٧ .

(٢) فتح القدير ج ٤/٤٥٦ .

(٣) الكشاف ج ٣/٦٦٥ .

(٤) التوبة: ٧ .

(٥) البقرة: ٢٨ .

(٦) البقرة: ٧٥ .

(٧) فتح القدير ج ١/١٥٢ .

وقد سبق الزجاج الشوكاني إلى هذا المعنى فبين الغرض البلاغي من الاستفهام عند شرحه لهذه الآية فقال: في همزة "أفتطمعون" هذه الألف ألف استخبار، وتجري في كثير من المواضع مجرى الإنكار والنهي إذا لم يكن معها نفي، كأنه أيئسهم من الطمع في إيمان هذه الفرقة من اليهود" (١) والاستخبار هو الاستفهام، كما ذكر الزركشي أن: "الاستخبار: هو طلب خبر ما ليس عندك، وهو بمعنى الاستفهام، أي طلب الفهم، ومنهم من فرق بينهما بأن الاستخبار ما سبق أولاً ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهاماً" (٢)

من خلال شرح الشوكاني وشرح الزجاج، يبدو أن الشوكاني قد أخذ هذا المعنى ونقله عن الزجاج.

د - الإنكار والنهي:

بين هذا المعنى الثاني للاستفهام في قوله تعالى: ﴿ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٣) قال الشوكاني عن غرض الاستفهام هنا أنه "للإنكار المتضمن للنهي... ووجه الإنكار عليهم في استعجالهم أن العذاب مكروه تنفر منه القلوب وتأباه الطبائع، فما المقتضى لاستعجالهم له" (٤) ففيه إنكار لاستعجالهم العذاب، ونهي لهم بأن لا يستعجلون العذاب لأنه مكروه لما فيه من الألم.

وقد خالف الزمخشري هذا الرأي فقال "يجوز أن يكون معناه التعجب كأنه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون منه!" (٥).

هـ : الإنكار والتهويل والتفطيع مع الاستبعاد:

وذلك في قوله عز وجل: ﴿ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ (٦) يقول: "دخول الهمزة الاستفهامية في "أتم إذا ما وقع آمنتم به" على ثم كدخولها على الواو والفاء وهي لإنكار إيمانهم حيث لا ينفع الإيمان، وذلك بعد نزول العذاب، وهو يتضمن معنى التهويل عليهم، وتفطيع

(١) معاني القرآن للزجاج ج ١/١٤٢ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ج ٢/٣٢٦ .

(٣) يونس: ٥٠ .

(٤) فتح القدير ج ٢/٥٧٠ .

(٥) الكشاف ج ٢/٣٦٦ .

(٦) يونس: ٥١ .

ما فعلوه في غير وقته مع تركهم له في وقته الذي يحصل به النفع والدفع... وجيء بكلمة ثم التي للتراخي دلالة على الاستبعاد" (١) .

جمع الشوكاني هنا بين الإنكار والتهويل والتفضيع والاستبعاد في توضيح الغرض من الاستفهام، والتهويل والتفضيع في معنى واحد، والاستبعاد يكون لوقوع الإيمان منهم بعد رؤية العذاب .

و- الإنكار والاستبعاد:

وضح هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٢) فقال: "الاستفهام للاستنكار والاستبعاد، وتقدير الشبهة أن الإنسان إذا مات جفت عظامه وتناثرت وتفرقت في جوانب العالم، واختلطت بسائطها بأمثالها من العناصر، فكيف يعقل بعد ذلك اجتماعها بأعيانها ثم عود الحياة إلى المجموع... "أنا لمبعوثون خلقاً جديداً" كرر الاستفهام الدال على الاستنكار والاستبعاد تأكيداً وتقريباً" (٣) وهذا الاستنكار من الكفار حيث أنكروا إحياء الموتى واستبعدوا حتى إمكانية حدوث ذلك.

ومثله قوله تعالى: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٤) قال: "الاستفهام في "أنى يكون له ولد" للإنكار والاستبعاد أي من كان هذا وصفه وهو أنه خالق السماوات والأرض وما فيهما، كيف يكون له ولد وهو من جملة مخلوقاته، وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً، ثم بالغ في نفي الولد فقال: (ولم تكن له صاحبة) أي كيف يكون له ولد، والحال أنه لم تكن له صاحبة، والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد" (٥)

(١) فتح القدير ج ٢/ ٥٧٠ .

(٢) الإسراء ٤٩ .

(٣) فتح القدير ج ٣/ ٢٩٤ .

(٤) الأنعام ١٠١ .

(٥) فتح القدير ج ٢/ ١٩٠ .

ز - الإنكار والاستبعاد والتعجب:

في قوله تعالى: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رُبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ ﴾ (١) يقول الشوكاني: "فأنى تصرفون" أي كيف تستجيزون العدول عن الحق الظاهر وتقعون في الضلال، إذ لا واسطة بينهما فمن تخطى أحدهما وقع في الآخر، والاستفهام للإنكار والاستبعاد والتعجب" (٢).

٤ - التعجب أو التعجيب:

تحدث الشوكاني عن هذا الغرض في شرحه لأكثر من آية من القرآن الكريم منها: قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ (٣).

يقول: "قال جماعة من المفسرين: "هل" هنا بمعنى "قد" وبه قال قطرب: أي قد جاءك يا محمد حديث الغاشية، وهي القيامة لأنها تغطي الخلائق بأهوالها، وقيل: إن بقاء "هل" هنا على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في خبره، والتشويق إلى استماعه أولى" (٤).

يفهم من قول الشوكاني، أن رأي الجمهور يجعل الغرض من الاستفهام التقرير، لأن "قد" للتأكيد والتقرير، وأما على الرأي الثاني فإن الغرض منه هو التعجب، عندما تكون "هل" على معناها الاستفهامي، فيكون التعجب من ذلك الحديث وعرض أحداث يوم القيامة.

وجاء في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشْرُتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِ تَبَشِّرُونَ ﴾ (٥) يقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ فَبِمِ تَبَشِّرُونَ ﴾. "استفهام تعجب كأنه عجب من حصول الولد له مع ما قد صار إليه من الهرم" (٦).

(١) يونس: ٣٢ .

(٢) فتح القدير ج ٢/ ٥٦٠ .

(٣) الغاشية: ١ .

(٤) فتح القدير ج ٥/ ٥٠٨ .

(٥) الحجر: ٥٤ .

(٦) فتح القدير ٣/ ١٧٠ .

٥ - التهويل والتعجب:

قال الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴾^(١) "والاستفهام للتهويل والتعجب، أي كانا على كيفية هائلة عجيبة لا يحيط بها الوصف"^(٢) فالتهويل من شدة العذاب والتعجب منه ومن هولته.

٦ - التوبيخ والتعجب:

هناك فرق بين التوبيخ والتعجب، فالتوبيخ يكون على فعل وقع خطأ أو بقصد ، والتعجب يكون في التعجب من ذلك الفعل، ويتضح هذا من شرح الشوكاني لقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾^(٣) قال: "قوله ﴿ أَكْفَرْتُمْ ﴾ أي: فيقال لهم: أكفرتم، والهمزة للتوبيخ والتعجب من حالهم، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام تحذير وترهيب"^(٤) فالتوبيخ على كفرهم بعد الإيمان، والتعجب من هذا الكفر بعد معرفة الحق لأنه خرج عن المألوف.

٧ - التقرير والتوبيخ والتعجب:

وهذا كما يفيدته قوله تعالى: ﴿ اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾^(٥) قال الشوكاني: "الاستفهام للتقرير والتوبيخ والتعجب من حالهم، أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب وتواطؤوا عليه"^(٦) والتقرير والتوبيخ بمعنى واحد كما ذكرنا من قبل، وأضيف إليهما التعجب من حال هؤلاء الكفار وكذبهم.

(١) القمر: ١٦ .

(٢) فتح القدير ج ٥/ ١٤٨ .

(٣) آل عمران ١٠٦ .

(٤) فتح القدير ج ١/ ٤٩٩ .

(٥) الذاريات: ٥٣ .

(٦) فتح القدير ج ٥/ ١١٠ .

٨- التوبيخ :

"وأكثر ما يقع التوبيخ في أمر ثابت، ووبَّخ على فعله كما ذكر، ويقع على ترك فعل كان ينبغي أن يقع" (١) ذكر الشوكاني هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ (٢) فقال: "أم هذه هي المنقطعة التي بمعنى بل، والهمزة والاستفهام للتوبيخ، وحرف الإضراب للدلالة على الانتقال من كلام إلى آخر" (٣) يتضح من كلام الشوكاني أن التوبيخ لهم على تقاعسهم عن الجهاد، وكأنه يقول: بل حسبتم أن تتركوا.

وتأتي "أم" على قسمين متصلة، ومنقطعة: والمتصلة: "هي التي تقع بعد همزة التسوية: نحو: سواء على أقمت أم قعدت... والتي تقع بعد همزة مغنية عن "أي" نحو أزيد عندك أم عمرو، أي: أيهما عندك؟" (٤) أما المنقطعة فهي: "إذا لم يتقدم على "أم" همزة التسوية، ولا همزة مغنية عن أي، فهي منقطعة وتفيد الإضراب كـ"بل" (٥) "وقد ترد"أم" محتملة للاتصال وللانقطاع، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦) " (٧).

٩- التقرير:

وضَّحَّ أن الغرض من الاستفهام هو التقرير في قوله تعالى: "أولمَّا أصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا" (٨) فقال: "الألف للاستفهام بقصد التقرير" (٩) ذكر الشوكاني التقرير دون مشاركته أي غرض آخر، وهو تقرير لهم لمخالفتهم أمر النبي يوم أحد.

(١) الإتيان في علوم القرآن ج٣/٢٠٠ .

(٢) التوبة: ١٦ .

(٣) فتح القدير ج٢/٤٣٣ .

(٤) شرح ابن عقيل، ابن عقيل المصري، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الخير، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٠ ج٢/١٩٤ .

(٥) المصدر السابق ج ٢ / ١٩٥ .

(٦) البقرة: ٨٠ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ج٢/٤٨٢ .

(٨) آل عمران : ١٦٥ .

(٩) فتح القدير ج ١ / ٥٣٢ .

١٠ - التقرّيع والتوبيخ:

كشف الشوكاني عن هذا المعنى الثاني للاستفهام في الكثير من آيات القرآن الكريم، ونجده يقرن التقرّيع بالتوبيخ في توضيحه للاستفهام، وقد وضحنا من قبل أن التقرّيع والتوبيخ بنفس المعنى أو معناهما واحد وهو: التأنيب والتعنيف والتهديد واللوم.

قال الشوكاني في إظهار هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ﴾ (١) المعنى "هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسينيين: إما النصره أو الشهادة، وكلاهما مما يحسن لدينا، والحسنى تأنيث الأحسن، ومعنى الاستفهام التقرّيع والتوبيخ". (٢)

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾ (٣) يقول الشوكاني: "هو خطاب للكفار القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفيه توبيخ شديد وتقرّيع بالغ لما كان يقوله هؤلاء الذين هم كالأنعام بل هم أضل" (٤) وقد جعل الزمخشري الغرض من الاستفهام الإنكار، فقال: "والهمزة للإنكار، يعني أفخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد، وهم البنون: لم يجعل فيهم نصيباً، واتخذ أدونهم وهي البنات وهذا خلاف الحكمة" (٥).

وعليه فقد يكون الشوكاني أراد أن الاستفهام للإنكار التوبيخي والتقرّيع، دون ذكر كلمة الإنكار، يقول السيوطي: "القاعدة أن المنكر يجب أن يلي الهمزة، وأشكل عليها قوله تعالى: "أفأصفاكم ربكم بالبنين" فإن الذي يليها هنا الإصفاء بالبنين، وليس هو المنكر، إنما المنكر قولهم: إنه اتخذ من الملائكة إناثاً" (٦) ومفهوم هنا أن الإنكار على جعلهم الإناث لله دون الذكور ولكن الذي يظهر أن الإنكار لإطلاقهم صفة الإنجاب على الله سبحانه وتعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(١) التوبة: ٥٢ .

(٢) فتح القدير ج ٤٦٧/٢ .

(٣) الإسراء: ٤٠ .

(٤) فتح القدير ج ٢٨٨/٣ .

(٥) الكشف ج ٢٠/٣ .

(٦) الإتيقان في علوم القرآن ج ٣ / ٢٠٥ .

ومن الآيات التي ذكر الشوكاني فيها هذا الغرض نذكر على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّبِكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (٥) وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ .

١١ - التقرُّيع والتهديد:

ذكره الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكِ فَأَمَلَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ (٦).

فقال: "الاستفهام للتقرُّيع والتهديد أي: فكيف كان عقابي لهؤلاء الكفار الذين استهزءوا بالرسول، فأمليت لهم ثم أخذتهم" (٧).

١٢ - التبكيت والتوبيخ:

وضح الشوكاني هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿ أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨) فقال: "هذا على طريقة التبكيت والتوبيخ، أي: أندعون غير الله في هذه الحالة من

(١) النحل: ١٧ .

(٢) إبراهيم: ١٠ .

(٣) يوسف: ٨٩ .

(٤) يونس: ١٦ .

(٥) طه: ١٢٨ .

(٦) الرعد: ١٦ .

(٧) فتح القدير ج ٣/ ١٠٦ .

(٨) الأنعام: ٤٠ .

الأصنام التي تعبدونها أم تدعون الله سبحانه، وقوله: ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ أي غير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنفع" (١).

١٣ - الاستبعاد :

كما في قوله عز وجل: ﴿ **أَنْذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْنَا لَمَدِينُونَ** ﴾ (٢) يقول الشوكاني في شرح الآية: "ذكر ما يدل على الاستبعاد للبعث عنده وفي زعمه... أي مجزيون بأعمالنا ومحاسبون بها بعد أن صرنا تراباً وعظاماً" (٣) فهم يستبعدون البعث وبالتالي يستبعدون أن يدانوا على أعمالهم وأن يقفوا للحساب يوم القيامة. وقد يظهر فيه التعجب من العودة للحياة بعد أن كانوا تراباً وعظاماً.

١٤ - الاستبعاد والاستهزاء :

بينه الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ** ﴾ (٤) حيث وضح الغرض من السؤال فقال: "يسأل متى يوم القيامة سؤال استبعاد واستهزاء". (٥) يتضح من هذه الآية والآية السابقة لها، أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستبعدونها، ولا يؤمنون بالحياة بعد الموت، بل يستهزئون من الذين يؤمنون بها، وتجدهم رغم ذلك يسألون عنها سؤال استهزاء واستبعاد رغم كفرهم بها.

١٥ - الاستبعاد و التبكيت :

كما في قوله عز من قائل: ﴿ **أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ (٦) يقول: "قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت " أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير" أي يدعو آباءهم الذين اقتدوا بهم في دينهم: أي يتبعونهم في الشرك ولو كان الشيطان يدعوهم

(١) فتح القدير ج ٢/١٥٠.

(٢) الصافات: ٥٣ .

(٣) فتح القدير ج ٤/٤٧٢ .

(٤) القيامة: ٦ .

(٥) فتح القدير ج ٤/٣٩٩ .

(٦) لقمان: ٢١ .

فيما هم عليه من الشرك" (١) .

١٦- الحث والإستكثار :

كما في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (٢) بيّن الشوكاني معناها فقال: "أي متعظ بمواعظه ومعتبر بعبره، وفي الآية الحث على دروس القرآن والاستكثار من تلاوته والمسارعة في تعلمه" (٣) يفهم من كلام الشوكاني: أن هذا الاستفهام غرضه الحث على حفظ القرآن وتعهده والاستكثار من التلاوة، أي فهل من قارئ للقرآن وحافظ لآياته ؟

١٧- التفخيم:

وهو من "فخمه وتفخمه أجله ونظمه والتفخيم التعظيم وفخم الكلام عظمه" (٤) وذكره ابن رشيق القيرواني في باب الإشارة فقال: "ومن أنواع الإشارة: التفخيم والإيماء، فأما التفخيم فقول الله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾ (٥) (٦) .

جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ (٧) قال الشوكاني في توضيح الغرض الثاني من الاستفهام: "هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدريها الا الله سبحانه، قال سفيان: كل ما في القرآن من قوله: "وما أدراك، فقد أدراه، وكل ما فيه: "وما يدريك" فلم يدره" (٨) .

يفهم من كلام الشوكاني أن الله أراد أن يفخم ويعظم هذه الليلة لعظمتها ومكانتها عند الله ويلفت نظر المسلمين لقدر هذه الليلة.

(١) فتح القدير ج٤/٢٩٠ .

(٢) القمر: ١٧ .

(٣) فتح القدير ج٥/١٤٨ .

(٤) اللسان: (فخم) .

(٥) القارعة : ١ ، ٢ .

(٦) العمدة في محاسن الشعر وأدابه، ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد عبد القادر ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، ط١ ، ٢٠٠١، ج٥/١٣٠ .

(٧) القدر: ٢ .

(٨) فتح القدير ج٥/٥٦٢ .

وجاء في معنى التخييم مع التهويل قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (١) .

قال الشوكاني: "عظم سبحانه ذلك اليوم أي يوم الجزاء والحساب، وكرره تعظيماً لقدره وتخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره" (٢) .

١٨- التمني :

" وهو طلب حصول شيء على سبيل المحبة" (٣) أو "هو طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله إما لكونه مستحيلاً، وإما لكونه ممكناً غير مطموع في نبيله" (٤) .

ذكره الشوكاني في توضيحه للاستفهام في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ (٥) فقال: "استفهام منهم ومعناه: التمني" (٦) حيث تمنوا لو أن لهم شفعاء عند الله يشفعوا لهم على تكذيبهم بالرسول، ومعروف أن حرف التمني (ليت)، ولكن قد يتمنى بحروف أخرى مثل هل، قال السيوطي: "وقد يتمنى بهل حيث يُعلم فقده، نحو" فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا" الآية" (٧) .

يقول التفازاني: "والنكته في التمني بهل والعدول عن ليت هو إبراز المتمني، لكمال العناية به في صورة الممكن الذي لا جزم بانتفائه" (٨) .

١٩- التحسر والتمني :

كما في قوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴾ (٩) يقول الشوكاني في معنى الآية: "أي مؤخرون وممهلون قالوا هذا تحسراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للرجعة إلى الدنيا

(١) الانفطار: ١٨، ١٧ .

(٢) فتح القدير ج ٥/ ٤٦٨ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن ج ٣/ ٢٠٧ ، المطول ٤٠٧ .

(٤) من بلاغة القرآن ٦٧ .

(٥) الأعراف: ٥٣ .

(٦) فتح القدير ج ٢/ ٢٦٨ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن ج ٣/ ٢٠٨ وانظر الإيضاح ١٣١ .

(٨) المطول ٤٠٧ .

(٩) الشعراء: ٢٠٣ .

لاستدراك ما فرط منهم" (١) .

٢٠ - الاستبطاء:

الاستبطاء في اللغة: من بطأ: البُطءُ والإبطاءُ: نقيض الإسراع، وأبطأ، وتباطأ، ومنه الإبطاء والتباطؤ، وقد استبطأ وأبطأ الرجل، إذا كانت دوابه بطاء وأبطأ عليه الأمر: تأخر وبطأ عليه بالأمر وأبطأ به، كلاهما: أخره" (٢) .

كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (٣) .

وضح الشوكاني هذا المعنى بقوله: "ومعنى ذلك أن الرسول ومن معه بلغ بهم الضجر إلى أن قالوا هذه المقالة المقتضية لطلب النصر واستبطاء حصوله واستطالة تأخره، فبشرهم الله سبحانه بقوله "ألا إن نصر الله قريب" (٤) .

٢١ - التهويل والتفطيع :

ذكره الشوكاني في توضيحه للاستفهام في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴾ (٥) فقال: "هذا الاستفهام للتهويل والتفطيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ولا ندري كنهها" (٦) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ ﴾ (٧) وضح الشوكاني بقوله: "هذا الاستفهام للتهويل والتفطيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول وتبلغه الأفهام" (٨) .

(١) فتح القدير ج ٤/١٤٣ .

(٢) اللسان: (بطأ) .

(٣) البقرة: ٢١٤ .

(٤) فتح القدير : ج ١/٢٩٧ .

(٥) القارعة: ١٠ .

(٦) فتح القدير: ج ٥/٥٨٢ .

(٧) الهمزة: ٥ .

(٨) فتح القدير : ج ٥/٥٩٠ .

يتضح هنا أن الاستفهام يخرج لهذا الغرض عندما يستفهم عن شيء لا تستطيع العقول استيعابه، ويخرج عن طور عقول البشر، ولا يستطيعون تصوره، مثل: النار ويوم القيامة، وصور العذاب يوم القيامة في النار.

٢٢ - الأمر :

كشف الشوكاني عن الغرض البلاغي الذي خرج إليه الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾^(١).

قال: "لهذه النعمة التي أنعمنا بها عليكم، والاستفهام في معنى الأمر"^(٢) أي اشكروا الله على نعمه التي تفضل بها عليكم ويؤكد القزويني ذلك حيث يري أن قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أدل على طلب الشكر من قولنا: فهل تشكرون؟ وقولنا: فهل أنتم تشكرون؟ لأن إبراز ما سيتجدد في معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إيقائه على أصله، وكذا من قولنا: أفأنتم شاكرون؟ وإن كانت صيغته للثبوت: لأن "هل" أدعى للفعل من الهمزة، فتركه معه أدل على كمال العناية بحصوله"^(٣) ومثله قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴾^(٤) نقل الشوكاني هذا المعنى عن ابن الأعرابي فقال: "قال ابن الأعرابي: والاستفهام هو بمعنى الأمر، أي: اطلعوا"^(٥) فأراد منهم أن يطلعوا على النار ليرهم قرينه في النار فأمرهم بالإطلاع.

وجاء في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾^(٦) قال الشوكاني: "فيه زجر بليغ يفيد الاستفهام الدال على التقريع والتوبيخ، ولهذا قال عمر رضي الله عنه لما سمع هذا انتهينا"^(٧) ويفهم من ذلك أن الاستفهام أفاد الأمر حيث قصد أن يستنكر عليهم هذا الفعل وكأنه يأمرهم بالانتهاء عما اقترفت أيديهم، فمقالة عمر رضي الله عنه - وضحت الأمر وعلم أن في ذلك أمر من الله لهم فانتهى بمجرد سماع الآية.

(١) الأنبياء: ٨٠ .

(٢) فتح القدير : ج ٣/ ٥٢٣ .

(٣) الإيضاح: ١٣٣ .

(٤) الصفات: ٥٤ .

(٥) فتح القدير: ج ٤/ ٤٧٢ .

(٦) المائة: ٩١ .

(٧) فتح القدير: ج ٢/ ٩٨ .

وجاء منه قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ^(٢) وغيرها من الآيات .

٢٣- الذم :

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ ^(٣) .

خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر وهو الذم كما يقول الشوكاني: "ومن أظلم" استفهام، أي لا أحد أظلم " ممن كتم شهادة عنده من الله" يحتمل أن يريد بذلك الذم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى بل كانوا على الملة الإسلامية فظلموا بكتهم لهذه الشهادة" ^(٤)، قوله: "أي لا أحد أظلم" معناه أن الاستفهام غرضه النفي، ثم أضاف إليه الذم فيكون استفهام غرضه النفي والذم، وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزمخشري في الكشف. ^(٥)

٢٤- الاستهزاء والسخرية والتهكم:

أورد منه الشوكاني أمثلة عديدة نذكر منها: قوله تعالى: ﴿ فَرَاغَ إِلَى آلِهِمْ فَقَالَ آلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ ^(٦) .

وضح الاستفهام الأول "آلا تأكلون" فقال: "أي: فقال إبراهيم للأصنام التي راغ إليها استهزاء وسخرية: آلا تأكلون من الطعام الذي كانوا يصنعونه لها، وخاطبها كما يخاطب من يعقل لأنهم أنزلوها بتلك المنزلة" ^(٧) .

(١) البقرة: ٤٤ .

(٢) النساء: ٨٢ .

(٣) البقرة: ١٤٠ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٢١١ .

(٥) انظر الكشف: ج ١/١٨٢ .

(٦) الصافات: ٩٢، ٩١ .

(٧) فتح القدير: ج ٤/٤٧٨ .

وفي الاستفهام الثاني: "مالكم لا تنطقون" يقول: فإنه خاطبهم خطاب من يعقل والاستفهام للتهكم بهم، لأنه قد علم أنها جمادات لا تنطق" (١).

فإبراهيم عليه السلام استهزأ وتهكم بتلك الأصنام التي اتخذوها آلهة ولكنها لا تملك أي صفة من صفات العقلاء، وكأنه أراد أن يقول: إنها لا تأكل ولا تنطق ولا تعقل فكيف تعبدونها سخرية بهم وبما يعبدون.

ومنه قوله تعالى: ﴿ اتَّعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٢) بين الشوكاني الغرض من الاستفهام فقال: قالوا: هذا على طريق الاستهزاء والسخرية" (٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٤).

٢٥- التسوية:

استشهد الشوكاني لهذا الغرض بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) فوضح معنى الاستفهام ثم معنى كلمة (سواء)، بقوله: "ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول معنوناً له بما يفيد أن شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم وأنه لا يترتب عليهم ما هو المطلوب منهم من الإيمان، وأن وجود ذلك كعدمه، و(سواء) اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء غير مراد بهما ما هو أصلهما من الاستفهام، وصح الإبتداء بالفعل والإخبار عنه بقوله: سواء هجراً لجانب اللفظ إلى جانب المعنى، كأنه قال: الإنذار وعدمه سواء" (٦).

(١) فتح القدير: ج ٤/٤٧٨ .

(٢) الأعراف: ٧٥ .

(٣) فتح القدير : ج ٢/٢٨٠ .

(٤) الأنبياء: ٣٨ .

(٥) البقرة: ٦ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٦٩ .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) قال الشوكاني: "إنذارك إياهم وعدمه سواء" (٢) وهذا ما وضحه في الآية السابقة من عدم جدوى الإنذار للكفار.

ومنه قوله تعالى: "سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرٌ عَلْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ" (٣).

٢٦ - العتاب:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾ (٤).

يقول الشوكاني في معنى الاستفهام هنا: "هذا عتاب من الله لهما وتوبيخ حيث لم يحذرا ما حذرهما منه" (٥) وقد ذكر الزمخشري هذا المعنى وزاد عليه التنبيه، فقال في شرح الآية: "عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبيه على الخطأ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس" (٦).

هذه الأغراض التي ذكرتها للاستفهام هي ما استطعت جمعه أثناء البحث في التفسير، وقد تكون هناك أغراض أخرى قد غفلت عنها.

ثالثاً : النهي وأغراضه البلاغية

النهي: خلاف الأمر نهياً فانتهى وتناهى: كف (٧).

وفي اصطلاح البلاغيين:

يقول القزويني: "هو كالأمر في الاستعلاء وقد يستعمل في غير طلب الكف أو الترك" (٨).

(١) يس: ١٠.

(٢) فتح القدير: ج٤/٤٣١.

(٣) إبراهيم: ٢١.

(٤) الأعراف: ٢٢.

(٥) فتح القدير: ج٢/٢٥٠.

(٦) الكشاف: ج٢/١٤٩.

(٧) اللسان: (نهي).

(٨) الإيضاح: ١٤٥.

يتضح من كلام القزويني أن النهي يستعمل في طلب الكف أو الترك على وجه الاستعلاء.

ويقول التفتازاني: "هو طلب الكف عن الفعل استعلاءً" (١).

وهو نفس ما ذهب إليه القزويني.

وعند السكاكي: "للهي حرف واحد وهو لا الجازم في قولك: لا تفعل، والنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل استعمال: لا تفعل، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإن صادف ذلك أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب الترك فحسب" (٢).

ووافق العلوي كل من القزويني والتفتازاني والسكاكي في تعريف النهي فقال: "هو عبارة عن قول ينبئ عن المنع من الفعل على جهة الاستعلاء، كقولك: لا تفعل، ولا تخرج" (٣).

من خلال التعريفات السابقة يتضح أن النهي هو: طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام.

وقد وضح العلوي أوجه الاتفاق و الاختلاف بين الأمر والنهي فقال:

" اعلم أن الأمر والنهي يتفقان في أن كل واحد منهما لا بد فيه من اعتبار الإستعلاء وأنهما جميعاً يتعلقان بالغير فلا يمكن أن يكون الإنسان آمراً لنفسه، أو ناهياً لها، وأنهما جميعاً لا بد من اعتبار حال فاعلهما في كونه مريداً لهما، على غير ذلك من الوجوه الاتفاقية، ويختلفان في الصيغة، لأن كلا منهما مختص بصيغة تخالف الآخر، ويختلفان في أن الأمر دال على الطلب، والنهي دال على المنع، ويختلفان أيضاً في أن الأمر لا بد فيه من إرادة مأمورة، وأن النهي لا بد فيه من كراهية منهية" (٤).

(١) المطول: ٤٢٧ .

(٢) مفتاح العلوم: ٣٢٠ .

(٣) الطراز: ٥٣١ .

(٤) الطراز: ٥٣١، ٥٣٢ .

والنهي يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى يفهم من السياق، ومن هذه المعاني :

١. التهكم:

كما يفيد النهي في قوله تعالى: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (١) .

قال الشوكاني: "نهاهم عن استعجاله، أي فلا تطلبوا حضوره قبل ذلك الوقت... والمعنى: قرب أمر الله فلا تستعجلوه، وقد كان استعجالهم له على طريقة الاستهزاء من دون استعجال على الحقيقة، وفي نهيبهم عن الاستعجال تهكم بهم" (٢) .

وقد يكون الشوكاني نقل هذا المعنى عن أبي السعود، قال أبو السعود في تفسير الآية السابقة: "فالخطاب للكفرة واستعجالهم، وإن كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بضرب من التهكم" (٣) .

يلاحظ من التفسيرين مدى المطابقة بين كل منهما في توضيح الغرض من النهي.

٢. التأييس:

كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

قال الشوكاني: "أي يقال لهم هذا القول عند إدخالهم النار تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم" (٥) .
أيسهام من المعذرة فلن يقبل الله معذرتهم لأن وقتها قد انتهى والآن هو الحساب على الأعمال فلا تلوّموا إلا أنفسكم.

(١) النحل: ١ .

(٢) فتح القدير: ج٣/١٨٥، ١٨٦ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج٤/٣٩ ، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ .

(٤) التحريم: ٧

(٥) فتح القدير: ج٥/٣٠٢، ٣٠٣ .

٣. الإنذار والتحذير:

ذكر الشوكاني هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (١) فقال: "في قولهما "فلا تكفر" أبلغ إنذار وأعظم تحذير، أي أن هذا ذنب يكون من فعله كافراً فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر" (٢).

يفهم من كلام الشوكاني أن النهي في قوله "فلا تكفر" غرضه الإنذار والتحذير من تعلم السحر والعمل به لأنه كفر، فلا تتعلم السحر ولا تعمل به كي لا تكون كافراً.

٤. التعظيم والتغليظ:

ذكر الشوكاني هذا الغرض حسب إحدى القراءات القرآنية، للآية: ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (٣) قال: "قوله" ولا تسأل" قرأه الجمهور بالرفع مبنياً للمجهول، أي حال كونه غير مسؤل، وقرئ بالرفع مبنياً للمعلوم... وقرأ نافع: "ولا تسأل" بالجزم، أي لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء، أو لا يصدر منك السؤال عن مات منهم على كفره ومعصيته، تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه، أي أن هذا أمر فظيع وخطب شنيع يتعاضم المتكلم أن يجريه على لسانه، أو يتعاضم السامع أن يسمعه" (٤).

فالقراءة بالجزم تعني أن (لا) هنا ناهية فتكون الآية نهى عن السؤال عن أصحاب الجحيم، والغرض من النهي تعظيم وتغليظ أمر الميت والسؤال عن حاله لأنه مات على الكفر، وسنتحدث عن القراءة فيما بعد بإذن الله .

٥. التبكيك:

ورد هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَتَّخِذِ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا ﴾ (٥) يبين الشوكاني الغرض من النهي بقوله: "تبكيك لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير، وإشارة إلى أن هؤلاء من

(١) البقرة: ١٠٢ .

(٢) فتح القدير : ج ١/ ١٧٣ .

(٣) البقرة: ١١٩ .

(٤) فتح القدير: ج ١/ ١٩٤ .

(٥) آل عمران: ٦٤

جنس البشر وبعض منهم، وإزراء على من قلد الرجال في دين الله فحلل ما حللوه له وحرّم ما حرّمه عليه" (١) .

٦. التأكيد:

التوكيد عند النحويين قسمان: أحدهما التوكيد اللفظي، والثاني التوكيد المعنوي وهو على ضربين: أحدهما: ما يرفع توهم مضاف إلى المؤكد، والثاني: ما يرفع توهم عدم إرادة الشمول" (٢).

وعند البلاغيين: قال العلوي: "التأكيد تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوى وإحاطة الشبهات عما أنت بصدده" (٣).

كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ﴾ (٤) ورد في الآية أكثر من نهي، لكن الشوكاني وضح الغرض من النهي في قوله: "ولا القلائد" فقال: "وفي النهي عن إحلال القلائد تأكيد للنهي عن إحلال الهدى" (٥) القلائد هي ما يقلد به الهدى، فأراد بها الهدى، فلا تحلوا الهدى، وكأنه تكرر للنهي عن إحلال الهدى فيكون فيه التأكيد لذلك النهي.

٧. التثبيت: أي تثبيت النبي والمسلمين على دينهم:

في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٦) يقول الشوكاني: "الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس، أي لا يمكن أحد منكم ممترياً، أو للرسول ﷺ ، ويكون النهي له لزيادة التثبيت لأنه لا يكون منه شك في ذلك" (٧) فجعل النهي خاص بالنبي، غرضه التثبيت له على الحق وهو الدين الإسلامي.

(١) فتح القدير: ج ١/٤٧١ .

(٢) شرح ابن عقيل: ج ٢/١٧٦، ١٧٧ .

(٣) الطراز: ٢٨٧ .

(٤) المائة: ٢ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/٩ .

(٦) آل عمران: ٦٠ .

(٧) فتح القدير : ج ١/٤٦٩ .

وقد ذكر الزمخشري أن النهي هنا من باب التهيج فقال: "ونهيه عن الامتراء - وجل رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً - من باب التهيج لزيادة الثبات والطمأنينة، وأن يكون لطفاً لغيره" (١) .

ومثاله قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

يقول الشوكاني: "خطاب للنبي ﷺ وهو تعريض لأمته، فكأنه قال: ولا تحسبن أمتك يا محمد، ويجوز أن يكون خطاباً لكل من يصل له من المكلفين، وإن كان الخطاب للنبي ﷺ من غير تعريض لأمته فمعناه التثبيت على ما كان عليه من عدم الحساب... وفيه تسلية لرسول الله ﷺ، وإعلام للمشركين بأن تأخير العذاب عنهم ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله سبحانه في إمهال العصاة" (٣) .

فالنهي إن كان موجهاً للنبي ﷺ فغرضه التثبيت للنبي والتسوية له مما يلاقيه من الكفار والمشركين.

٨ - سد الذريعة وقطع الوسيلة:

كشف عن هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) . فقال: "النهي عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة، ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل، لأنه قد يأكل من ثمر الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه، فالأولى أن يقال: المنع من الأكل مستفاد من المقام" (٥) .

نعم المنع عن الأكل مستفاد من المقام لأنه سبقها قوله تعالى: ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ (٦) وكأنه أراد أن يأكلا من كل شيء في الجنة ولكن لا يقربا تلك الشجرة في الأكل كما هو واضح من السياق. فيكون النهي عن القرب لقطع الطريق عليهما فلا يأكلان من الشجرة.

(١) الكشاف ج ١/٣٢٤ .

(٢) إبراهيم: ٤٢ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/١٤٤ .

(٤) البقرة: ٣٥ .

(٥) فتح القدير: ج ١/١٠٧ .

(٦) البقرة: ٣٥ .

٩ - المبالغة :

كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْزَمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ﴾ (١) .

قال الشوكاني: " قيل: إن العزم على الفعل يتقدمه، فيكون في هذا النهي مبالغة لأنه إذا نهى عن المتقدم على الشيء كان النهي عن ذلك الشيء بالأولى" (٢) .

فالنهي على هذا المعنى واقع على العزم وليس على عقد النكاح فما دام قد نهى عن الشيء قبل وقوعه فيكون النهي عن الشيء أولى، فيظهر أن الغرض من النهي المبالغة في المنع.

وذكر صاحب الكشاف هذا المعنى في تفسيره للآية السابقة، فقال: "وذكر العزم مبالغة في النهي عن عقد النكاح في العدة، لأن العزم على الفعل يتقدمه، فإذا نهى عنه كان عن الفعل أنهى، ومعناه ولا تعزموا عقد النكاح" (٣) ، والظاهر أن قوله الشوكاني: "قيل" يريد به قول صاحب الكشاف، لأن ما ذكره صاحب الكشاف هو ما نقله الشوكاني في تفسير للآية.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٤) .

١٠ - التثبيط :

في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٥) .

قال الشوكاني: "أي قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم وكسراً لنشاطهم وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله" (٦) . فالنهي هنا جاء للتثبيط.

(١) البقرة : ٢٣٥ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٣٤٤ .

(٣) الكشاف: ج ١/٢٥٧ .

(٤) الإسراء: ٣٤ .

(٥) التوبة: ٨١، ٨٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/٤٩٠ .

١١ - التسلية والتبشير:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

يقول الشوكاني: "نهى للنبي ﷺ عن الحزن من قول الكفار المتضمن للطعن عليه وتكذيبه والقدح في دينه والمقصود التسلية له والتبشير" (٢) .

رابعاً : النداء وأغراضه البلاغية

النداء والنداء: الصوت مثل الدعاء والرغاء وقد ناداه ونادى به وناداه مناداة ونداء أي صاح به. (٣) .

النداء عن البلاغيين: "هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو لفظاً أو تقديراً كأيا وهيا للبعيد، وقد ينزل غير البعيد منزل البعيد" (٤) .

وقال العلوي: "معنى النداء هو التصويت بالمنادى لإقباله عليك" (٥) .

وقال الزركشي: "هو طلب إقبال المدعو على الداعي بحرف مخصوص" (٦) .

وقد تخرج صيغة النداء إلى أغراض بلاغية غير المعنى الأصلي له، تفهم من السياق والقرائن، تحدث عنها الشوكاني في تفسيره، منها:

١ - التحسر:

ذكره الشوكاني في شرحه لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا ﴾ (٧) . فقال في قوله تعالى: "قالوا يا حسرتنا" هذا جواب إذا جاءتهم أوقعوا النداء

(١) يونس: ٦٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٥٨٠ .

(٣) اللسان: (ندى) .

(٤) المطول: ٤٣٠ وانظر: الإتيان في علوم القرآن ج ٣/٢٠٩ .

(٥) الطراز: ٥٣٥ .

(٦) البرهان في علوم القرآن ج ٢/٣٢٣ .

(٧) الأنعام: ٣١ .

على الحسرة، وليست منادى في الحقيقة ليدل على كثرة تحسرهم، والمعنى يا حسرتنا احضري فهذا أو أنك، كذا قال سيبويه في هذا النداء كقولهم يا للعجب، ويا للرجل^(١) .

ويبين الزجاج معنى دعاء الحسرة وهي لا تعقل ولا تجيب بأن "العرب إذا اجتهدت في الإخبار عن عظيم تقع فيه جعلته نداء، فلفظه لفظ ما ينبه، والمنبه غيره،... فهذا أبلغ من أن تقول: أنا حَسِرٌ على العباد، وأبلغ من أن تقول: الحسرة علينا في تفریطنا"^(٢) .

فالمقصود هو التحسر على إضاعة الحياة الدنيا في اللهو والكفر بدين الله و التكذيب بيوم القيامة و لقاء الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَطْتِ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾^(٣) .

٢ - الاختصاص:

في قوله تعالى: ﴿ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾^(٤) .

قال الشوكاني في سبب نصب أهل البيت "المدح أو الاختصاص"^(٥) . ، يفهم من قوله: "أو الاختصاص" أنه أراد بالنداء تخصيص أهل البيت بالرحمة والبركة، فيكون نصب "أهل" على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أخص، وعليه يكون الغرض من النداء الاختصاص على ذلك الرأي.

يقول الزركشي: "يستعمل النداء في غير معناه مجازاً في مواضع... الثاني: الاختصاص وهو كالنداء إلا أنه لا حرف فيه"^(٦) .

(١) فتح القدير: ج ٢/١٤٤ .

(٢) معاني القرآن للزجاج: ج ٢/٣٢٣ .

(٣) الزمر: ٥٦ .

(٤) هود : ٧٣ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/٦٤٤ .

(٦) البرهان في علوم القرآن ج ٢/٣٢٥ .

وذكر السيوطي هذا الغرض واستدل بالآية السابقة عليه. (١) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (٢) . أي قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الرب إليهما ولم يصفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجده للربوبية، وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة (٣) .

٣ - الإنكار:

كما في قوله تعالى: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ (٤) . يقول الشوكاني: "فلما رأوا الولد معها حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين، فقالوا منكبين لذلك: (يا مريم لقد جئت) أي فعلت شيئاً فرياً... قال قطرب: الفري الجديد من الأسقية أي: جئت بأمر بديع جديد لم تسبقني إليه" (٥) نادوا مريم نداء إنكار على عملها العجيب النادر.

٤ - الاستعطاف:

ذكر الشوكاني هذا الغرض في معرض شرحه لقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَ مَا تَأْخُذُ بِحَيْثِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ (٦) . يقول الشوكاني في نداءه لموسى بابن أم أنه "نسبه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه عند الجمهور استعطافاً له وترقيقاً لقلبه" (٧) .

وفي قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ (٨) . قال الشوكاني: "وصدر كلاً منها بالنداء المتضمن للرفق واللين استمالةً لقلبه وامتثالاً

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن ج ٣ / ٢٠٩ . وانظر: معترك الإقران ج ١ / ٣٣٩ .

(٢) طه: ٤٩ .

(٣) فتح القدير ج ٣ / ٤٦٢ .

(٤) مريم: ٢٧ .

(٥) فتح القدير: ج ١ / ٤١٧ .

(٦) طه: ٩٤ .

(٧) فتح القدير ج ٣ / ٤٨٠، ٤٧٩ .

(٨) مريم: ٤٣، ٤٢ .

لأمر ربه^(١) . فالغرض من النداء الرفق واللين المتضمن الاستعطاف لأبيه لعله ينتهي عن عبادة الأصنام ويتبع إبراهيم عليه السلام.

٥ - الترهيب والترغيب:

كما ورد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾^(٢).

قال الشوكاني: "قوله: "يا أيها الذين آمنوا" قيل : هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر، وقيل : هو إعتراض بين أثناء قصة أحد"^(٣) .

٦ - التهكم:

فقد يفيد النداء التهكم والاستهزاء كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾^(٤) . وضح الشوكاني الغرض من النداء في هذه الآية فقال: "أي قال: كفار مكة مخاطبين لرسول الله ﷺ ومتهكمين به حيث أثبتوا له إنزال الذكر عليه مع إنكارهم لذلك في الواقع أشد إنكار ونفيهم له أبلغ نفي"^(٥) .

فنداء الكفار للنبي ﷺ بهذه الصيغة وعدم ذكرهم لاسمه فلم يقولوا يا محمد، فيه تهكم واستهزاء وكأنهم يكذبون به وبالذكر الذي أنزل عليه، لأنهم يعتبرون أنه لم ينزل عليه بل هو يزعم ذلك.

٨ - الدعاء:

في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ ﴾^(٦) .

(١) فتح القدير: ج ٣ / ٤٢٢ .

(٢) آل عمران: ١٣١ .

(٣) فتح القدير: ج ١ / ٥١٣ .

(٤) الحجر: ٦ .

(٥) فتح القدير: ج ٣ / ١٥٤ .

(٦) آل عمران: ١٩٢، ١٩١ .

قال الشوكاني: "قوله: (فنا عذاب النار) الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله، وقوله: (ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيت) تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه وبيان للسبب الذي لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار" (١) ويقول: "وتكرير النداء في قوله: (ربنا) لإظهار التضرع والخضوع" (٢) .

يتضح من كلام الشوكاني أن النداء غرضه الدعاء وهو التضرع والخضوع لمن يملك الاستجابة وتحقيق ما يصبون إليه، فطلبوا ذلك بثناء الله سبحانه دون غيره وكرروا ذلك النداء للتعجيل أو للخضوع بالدعاء.

ثالثاً : التكرار وأغراضه البلاغية

التكرار: كرر الشيء أعاده مرة بعد أخرى وكررت عليه الحديث إذا رددته عليه" (٣) .

والتكرار عند البلاغيين: هو "دلالة اللفظ على المعنى مردياً، كقولك لمن تستدعيه أسرع أسرع، فإن المعنى مردي، واللفظ واحد" (٤) .

"وللتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل" (٥) .

ويخرج التكرار عن معناه الحقيقي إلى أغراض بلاغية، ذكر الشوكاني بعضها في تفسيره للقرآن الكريم والتي تدل على بلاغة القرآن، ومن هذه الأغراض:

(١) فتح القدير: ج ٢/٥٥٠، ٥٥١ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٥٥١ .

(٣) اللسان (كرر)، وانظر: أسرار التكرار في لغة القرآن، د محمد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط ١، ١٩٨٣ . ص ٩ .

(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار نهضة مصر، ط ٢ . ج ٢/ص ٣٤٥ .

(٥) العمدة: ج ٢/٢٥ .

١ - التعجب:

أوضح الشوكاني الغرض من التكرار في قوله تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) . قال: "وكرر الأمر بالنظر للمبالغة في التعجب، وجاء بثم لإظهار ما بين العجيبين من التفاوت" (٢) .

ولعل الشوكاني نقل هذا الغرض عن أبي السعود، قال أبو السعود: "وتكرير الأمر بالنظر للمبالغة في التعجب وثم لإظهار ما بين العجيبين من التفاوت" (٣) .

٢ - التعظيم والتفخيم والتهويل:

التعظيم والتفخيم بمعنى واحد والتهويل بمعنى التخويف.

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ (٤) .

وضح الشوكاني الفائدة من التكرار هنا بقوله: "أي : يوم الجزاء والحساب، وكرره تعظيماً لقدره وتفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره" (٥) .

و كذلك في قوله تعالى: ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ (٦) . قال الشوكاني: "أي علاهم وأصابهم ما علاهم وأصابهم، والتكرار للتعظيم والتهويل" (٧) .

(١) المائدة: ٧٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/ ٨٥ .

(٣) تفسير أبي السعود : ج ٢ / ٣٠٦ .

(٤) الإنفطار: ١٧، ١٨ .

(٥) فتح القدير: ج ٥/ ٤٦٨ .

(٦) طه: ٧٨ .

(٧) فتح القدير ج ٣/ ٤٧٤ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (١) . قال الشوكاني: " والتكرير فيه للتفخيم والتعظيم" (٢) . تعظيم شأن المؤمنين الأوائل ومن سار على دربهم وتمسك وآمن بما آمنوا به، وتفخيم أمرهم يوم القيامة.

٣ - التعظيم والتنزيه :

كما في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (٣) .

"كرر ذكر الخرور للأذقان لاختلاف السبب، فإن الأول لتعظيم الله سبحانه وتعالى وتنزيهه، والثاني للبكاء بتأثير مواضع القرآن في قلوبهم ومزيد خشوعهم، ولهذا قال: " ويزيدهم" أي سماع القرآن، أو القرآن بسماعهم له "خشوعاً" أي لين قلب ورطوبة عين" (٤) .

٤ - التشريف:

كقوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (٥) .

يقول الشوكاني: " وكرر ذكره تشريفاً له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل، وذكر التنزيل أولاً والإنزال ثانياً لكونه جامعاً بين الوصفين" (٦) فالتكرار هنا لتشريف القرآن الكريم حيث ذكره مرتين مرة باسم الكتاب وأخرى باسم الفرقان، تشريفاً وإظهاراً لمنزلته بين الكتب السماوية.

(١) الواقعة: ١٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٥ / ١٧٧ .

(٣) الإسراء: ١٠٧-١٠٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٣ / ٣٣٣ .

(٥) آل عمران: ٤٣ .

(٦) فتح القدير: ج ١ / ٤٢٤ .

٥- التأكيد والاهتمام:

ذكر الشوكاني هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾^(١) . وتكرارها في الآية التالية لها " وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ "^(٢) . فقال: "كرر سبحانه هذا لتأكيد الأمر باستقبال الكعبة وللاهتمام به لأن موقع التحويل كان معتنى به في نفوسهم، وقيل: وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ومواطن الشبهة فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج في صدورهم"^(٣) . فهو لتأكيد التحول من بيت المقدس إلى البيت الحرام، والاهتمام بتنفيذ هذا الأمر دون تردد أو شك.

وقد يكون التكرار للتأكيد والاعتناء كما في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾^(٤) . قال الشوكاني: "وفي تكرير التوبة عليهم بقوله ثم تاب عليهم ليتوبوا"^(٥) . تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار"^(٦) .

في الآية الأولى شملت التوبة النبي والمهاجرين والأنصار والثلاثة الذين خلفوا من الصحابة عن غزوة تبوك، فالتوبة في الآية الثانية إن كانت شملت المجموع السابق من النبي والمسلمين فهي تكرار، وإن كانت خاصة بالثلاثة الذين خلفوا فلا تكرار كما يقول الشوكاني ولكن يتضح أن ذكر التوبة في الآية الثانية سواء شمل المجموع أو كان خاصاً بالثلاثة، فهو تكرار لأن التوبة شملتهم من قبل مع النبي والمهاجرين والأنصار، ثم أعاد تكرارها مرة أخرى.

ومثله قوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٧) .

(١) البقرة: ١٤٩ .

(٢) البقرة: ١٥٠ .

(٣) فتح القدير: ج ١ / ٢٢٢ .

(٤) التوبة: ١١٧ .

(٥) التوبة: ١١٨ .

(٦) فتح القدير: ج ٣ / ٥٢٣ .

(٧) النور: ١ .

وضح الغرض من التكرير فقال: "وتكرير أنزلنا لكمال العناية بإنزال هذه السورة لما اشتملت عليه من الأحكام"^(١) .

٦ - التأكيد:

في قوله تعالى: ﴿ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَاكُمْ ﴾^(٢) .

بين الشوكاني الغرض من التكرار في الآية فقال: "أي اذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة، وكرر الأمر بالذكر تأكيداً"^(٣) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾^(٤) .

يقول الشوكاني: "كرر الردع والزجر فقال: "ثم كلا سيعلمون" للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد"^(٥) . فالغرض من التكرار هو زيادة التأكيد للردع والزجر لمن يكذب بيوم القيامة، فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم.

٧ - التخليط :

بين الغرض البلاغي من التكرار في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾^(٦) .

إذ يقول الشوكاني: "كرر الويل تخليطاً عليهم وتعظيماً لفعالهم وهدكاً لاستارهم"^(٧) . فالتكرار جاء للتخليط والتخويف لهم، ولإنكار فعالهم من خلال تعظيمه، ولفضح ذلك الفعل من كتابة وأخذ الأجر عليها ونسب الكلام إلى الله سبحانه.

(١) فتح القدير: ج ٤ / ٦ .

(٢) البقرة: ١٩٨ .

(٣) فتح القدير: ج ١ / ٢٨٠ .

(٤) النبأ: ٥٤، ٥٤ .

(٥) فتح القدير : ج ٥ / ٤٣٠ .

(٦) البقرة: ٧٩ .

(٧) فتح القدير: ج ١ / ١٥٥ .

ونقل الشوكاني هذا الغرض عن الفراء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (١). فقال: "ردع وزجر لهم عن التكاثر وتنبية على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة، وفيه وعيد شديد، قال الفراء: أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر، ثم كرر الردع والزجر والوعيد، فقال: "ثم كلا سوف تعلمون"... قال الفراء: هذا التكرار على وجه التخليط والتأكيد" (٢). وفي معاني القرآن يقول الفراء: "والكلمة قد تكرر في العرب على التخليط والتخويف" (٣). فقد تدرج الشوكاني في توضيح معنى الآيات وما فيها من زجر ووعيد ثم يظهر الغرض من التكرار كما عند الفراء، وهو يؤيد هذا الرأي من خلال عدم معارضته له، وجعله التفاضل تأكيداً للردع والإنذار فقال: "وفي تكريره تأكيد للردع والإنذار" (٤) والتخليط والردع والإنذار قريبات في المعنى والمقصود منها التخويف لهم من جعل الدنيا أكبر همهم وترك الدين والغفلة عنه.

٨- التحذير:

كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥). يقول الشوكاني: "ثم كرر الله سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان" (٦).

وهو تكرر للنداء في الآية السابقة لها في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٧).

(١) التكاثر: ٣، ٤.

(٢) فتح القدير: ج ٥ / ٥٨٤.

(٣) معاني القرآن للفراء: ج ٣ / ٢٨٧.

(٤) المطول: ٤٩٤.

(٥) الأعراف: ٢٧.

(٦) فتح القدير: ج ٢ / ٢٥٢.

(٧) الأعراف: ٢٦.

وضح الشوكاني السر أو المعنى الثاني من التكرار في قوله تعالى: ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آيَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

فقال: "الألاء: جمع إلى، ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض والبسطة في الخلق وغير ذلك مما أنعم به عليهم، وكرر التذكير لزيادة التقرير، والألاء: النعم" (٢) . فالتكرار لتقرير مداومة على ذكر نعم الله وإعلامهم بأن ما هم فيه من النعم فهو من الله لأن الذكر يجعلهم يشكرونه.

وجاء التقرير مشتركاً مع أغراض أخرى كالتأكيد والتنبيه، فقد ذكر الشوكاني الغرض من التكرار في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَنْبِغُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (٣) .

أنه "كرر سبحانه هذا لمزيد التأكيد والتقرير، ولما في تكرار التوبيخ والتفريع من الإهانة للمشركين والتنقص بهم وإظهار سخف عقولهم وركاكة أحلامهم." (٤) . فأكد الحكم ثم قرره لألا يتسلل الشك في ذلك إلى النفوس ويقطع ذلك الاعتقاد.

وجاء التقرير مع التنبيه في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ (٥) . قال الشوكاني: "تكرير ذكر المثل لزيادة تقريره والتنبيه على غرابته وأنه جار مجرى الأمثال في الغرابة" (٦) . فقد قرر هذه الصفات لمحمد ﷺ وأصحابه وأراد التنبيه على أن هذه الصفات لا توجد في غيرهم فهي صفات غريبة على الناس لم توجد في أمة من الأمم قبلهم.

(١) الأعراف: ٦٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/ ٢٧٧ .

(٣) الأعراف: ١٩٧ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/ ٣٥٣ .

(٥) الفتح: ٢٩ .

(٦) فتح القدير: ج ٥ / ٦٨ .

١٠ - الحصر:

كشف الشوكاني عن هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (١). فقال: "كرر الضمير للدلالة على الحصر، أي لا يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح" (٢). والحصر هو القصر فقد قصر اليقين بالآخرة على أهل الإيمان والعمل الصالح فكرر الضمير للتدليل على ذلك.

وقد ذكر الزمخشري هذا الغرض للتكرار دون أن يذكر كلمة الحصر، ولكن يفهم ذلك من كلامه، وهو بنفس العبارة التي عند الشوكاني، يقول الزمخشري في الآية السابقة: "وكرر فيها المبتدأ الذي هو "هم" حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح" (٣).

١١ - التضرع والخضوع: والمقصود به الدعاء:

ورد هذا الغرض في تكرر قوله تعالى: "ربنا" في الآيات من سورة آل عمران ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (٤).

يقول الشوكاني: "وتكرير النداء في قوله: "ربنا" لإظهار التضرع والخضوع" (٥). فالمقصود هو الدعاء ثم كرر كلمة "ربنا" لإظهار مدى التضرع والخضوع لله أثناء الدعاء.

(١) النمل: ٣ .

(٢) فتح القدير: ج٤/١٥٢ .

(٣) الكشاف: ج٣/٣٩١ .

(٤) آل عمران: ١٩١، ١٩٢، ١٩٣ .

(٥) فتح القدير: ج١/٥٥١ .

ذكره الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (١) . فقال: "هكذا تكرير للتوبيخ لقصد تأكيد الحجة عليهم" (٢) . "والتكرار الذي قصده الشوكاني هنا هو تكرار المخاطبة لهم وإقامة الحجة عليهم، وليس تكرار في اللفظ" (٣) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ (٤) . "فيه إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام، والمبالغة في هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ" (٥) .

فالتوبيخ لهم على أكل الربا ثم التكرار في أضعاف مضاعفة جاء لتأكيد ذلك التوبيخ لمن أكل الربا وزاد في أخذه، وكلمة "مضاعفة" للمبالغة في صورة أكل الربا.

وجاء التكرار للتقبيح كما في قوله تعالى: ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ (٦) . وهي تكرير للآية السابقة لها ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ ﴾ (٧) . يقول الشوكاني: "قوله: "سماعون للكذب" كرره تأكيداً لقبه، وليكون كالمقدمة لما بعده وهو أكالون للسحت، وهما من جملة أخبار ذلك المبتدأ المقدر سابقاً" (٨) . فالتكرار هنا لتقبيح أمر الكذب في النفوس وخاصة أن كلمة (سماعون) فيها دلالة لسعيهم للاستماع للكذب واعتنائهم بسماعه.

تلك أهم الأغراض البلاغية للتكرار التي تناولها الشوكاني في تفسيره وبين فيها جمال البلاغة القرآنية للتكرار.

(١) الأنعام: ٤٦ .

(٢) فتح القدير: ج ١٥٢/٢ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٨٠ .

(٤) آل عمران: ١٣٠ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٥١٣ .

(٦) المائدة: ٤٢ .

(٧) المائدة: ٤١ .

(٨) فتح القدير: ج ٢ / ٥٧ .

رابعاً : التعريف والتكثير

النكرة : إنكارك الشيء وهو نقيض المعرفة والنكرة خلاف المعرفة والتكثير خلاف التعريف (١) .

وقال النفتازاني في تعريف المسند إليه: "أي جعل المسند إليه معرفة، وهو ما وضع ليستعمل في شيء بعينه" (٢) .

ووضح الجرجاني الفائدة من تعريفه فقال: "فائدة تعريفه إجمالاً أن المعرفة أخص من النكرة وكلما كانت أخص كانت أتم دلالة على المراد لكونه أقل احتمالاً لغير المراد من النكرة" (٣) وقد وضح العلوي الفرق بين المعرفة والنكرة فقال: "المعرفة : ما دلت على شيء بعينه ، والنكرة : ما دلت على شيء لا بعينه" (٤) .

ويخرج كل من التعريف والتكثير عن معناهما الحقيقي إلى معاني وأغراض بلاغية أخرى ذكر الشوكاني بعضاً منها في تفسيره فتح القدير وبين الفائدة منها.

(١) الأغراض البلاغية للتعريف:

١- التعظيم :

نقل هذا الغرض من التعريف عن ابن الأنباري وذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ (٥) . يقول الشوكاني : "أجابهم بالإعتراف بما سألوه عنه ، قال ابن الأنباري: أظهر الاسم فقال : أنا يوسف ولم يقل أنا هو ، تعظيماً لما وقع به من ظلم أخوته كأنه

(١) اللسان(نكر) .

(٢) المطول: ٢١٤ .

(٣) الإشارات والتبهيئات: محمد بن علي الجرجاني، تحقيق عبد القادر حسين، دار النهضة مصر، ١٩٨٢ . ص ٣٦ .

(٤) الطراز: ٢٠٨ ، وانظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ج٢/٢٨٢ .

(٥) يوسف: ٩٠ .

قال : أنا المظلوم المستحل منه المحرم المراد قتله، فاكتفى بإظهار الاسم عن هذه المعاني" (١) . وهو من التعريف بالعلمية لإحضاره في ذهن السامع ، وقد ذكر أبو السعود السر في التعريف باسم الإشارة هذا فقال في تفسيره للآية : "جواب عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله : "وهذا أخي" أي من أبويّ مبالغة في تعريف نفسه وتقخيماً لشأن أخيه" (٢) .

٢ - التعظيم والتفخيم:

كما في قوله تعالى : ﴿ تَلِكِ الدَّارُ الْآخِرَةُ ﴾ (٣) . بين الشوكاني الغرض من التعريف باسم الإشارة تلك فقال : "أي الجنة ، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها كأنه قال : تلك التي سمعت بخبرها وبلغك شأنها" (٤) .

وهو من التعريف بالإشارة بقصد التعظيم والتفخيم بالبعد وعلو الرتبة ، ولعل الشوكاني نقل هذا المعنى عن أبي السعود دون الإشارة إلى ذلك ، قال أبو السعود في توضيح الغرض من التعريف في الآية السابقة : "إشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل : تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها" (٥) .

٣ - التعظيم والتشريف:

وقد وضحه من خلال التعريف بالإضافة في قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ (٦) . فقال : "أضاف سبحانه الروح إليه وهو للملك تشريفاً وتعظيماً وهو يريد روح عيسى" (٧) .

وذكر مثله وأراد به التشريف والتكريم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴾ (٨) . "الإضافة للتشريف والتكريم ، وهذه الإضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته

(١) فتح القدير : ج ٣ / ٦٥ .

(٢) تفسير أبي السعود: ج ٣ / ٤٢٦ .

(٣) القصص: ٨٣ .

(٤) فتح القدير: ج ٤ / ٢٢٥ .

(٥) تفسير أبي السعود: ج ٥ / ١٣٨ .

(٦) الأنبياء : ٩١ .

(٧) فتح القدير: ج ٣ / ٥٣١، ٥٣٠ .

(٨) السجدة: ٩ .

وإن أمكن توجيهه بالنسبة على الجميع^(١) . إضافة الروح إليه سبحانه فيها تشریف وتعظيم لذلك المخلوق الذي أراد خلقه وهو الإنسان وتكريم له ورفع لشأنه بين المخلوقات جميعاً.

٤ - الشمول:

بين هذا الغرض من خلال التعريف بالألف واللام في قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ﴾^(٢) .

فقال : "الكتاب اسم جنس وتعريفه يفيد شموله لجميع الكتب"^(٣) . وذكره في موضع آخر بكلمة مرادفة له وهي العموم فقال في قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَكَّلٌ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾^(٤) . " أي إلى الخيرات ، على الحذف والإيصال ، أي بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيد السياق وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير، كما يفيد العموم المستفاد من تعريف الخيرات"^(٥) .

٥ - الاستغراق:

وذلك في قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٦) .

قال الشوكاني في الغرض من تعريف الحمد : أنه "لاستغراق أفراد الحمد وأنها مختصة بالرب سبحانه ، على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به ، لأن المنعم هو الله عز وجل ، أو على أن حمده هو الفرد الكامل فيكون الحصر ادعائياً ، ورجح صاحب الكشاف أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الاستغراق ، والصواب ما ذكرناه"^(٧) . بين الشوكاني أن الغرض من التعريف في كلمة الحمد هو استغراق الأفراد وذلك بإفراد الله سبحانه بالحمد دون غيره لأنه هو المنعم والمنفضل بالنعمة، وخالف الشوكاني الزمخشري في هذا التعريف فجعله للاستغراق لا للجنس.

(١) فتح القدير: ج٤/٢٩٩ .

(٢) البقرة: ١٥٩ .

(٣) فتح القدير: ج١/٢٢٨ .

(٤) البقرة: ١٤٨ .

(٥) فتح القدير: ج١/٢٢١ .

(٦) الفاتحة: ٢ .

(٧) فتح القدير: ج١/٤٠، ٤١ .

٦ - الإظهار وتقوية الحجة:

كما في قوله تعالى: ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر ﴾^(١) . قال الشوكاني: " الحجر يحتمل أن يكون حجراً معيناً فتكون اللام للعهد ، ويحتمل أن لا يكون معيناً فتكون للجنس ، وهو أظهر في المعجزة ، وأقوى للحجة"^(٢) . فإن كانت للعهد فهي إشارة إلى معهود ذهني معروف عند موسى عليه السلام ، وإن كانت للجنس فهي كما وضحها الشوكاني.

٧ - الاتساع:

في قوله تعالى: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾^(٣) . يقول الشوكاني: " يوم الدين : يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده... وهذه الإضافة إلى الظرف على طريق الاتساع كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار، ويوم الدين وإن كان متأخراً فقد يضاف اسم الفاعل وما في معناه إلى المستقبل"^(٤) .

٨ - التقرير:

كشف الشوكاني عن هذا الغرض من خلال التعريف باسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ وَرَأَوْتُهُ التِّي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾^(٥) .

يقول الشوكاني: "وإنما قال "التي هو في بيتها" ولم يقل : امرأة العزيز، وزليخا قصداً إلى زيادة التقرير مع استهجان التصريح باسم المرأة والمحافظة على الستر عليها"^(٦) . فالغرض من التعريف زيادة التقرير "لتنزيه يوسف عليه السلام من الفحشاء"^(٧) . " لأنه إذا كان في بيتها وتمكن من نيل مراده منها، ومع ذلك عف ، وامتنع ، كان ذلك غاية في النزاهة"^(٨) .

(١) البقرة: ٦٠ .

(٢) فتح القدير: ج ١/١٣٧ .

(٣) الفاتحة: ٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٤٥ .

(٥) يوسف: ٢٣ .

(٦) فتح القدير : ج ٣/٢١ .

(٧) الإيضاح: ٣٦ .

(٨) من أسرار البلاغة في القرآن، محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٤،

ص ١٠٠ .

يقول محمد أبو موسى: "ومما هو ظاهر في صور الكلام أن طريق التعريف بالموصولية أشيع هذه الطرق سواء في ذلك كلام الله سبحانه وكلام الناس ، وذلك لأنه مفرد متضمن جملة ، ولذلك يتسع لكثير من أحوال المعرف"^(١) .

٩- كثرة الوقوع :

في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾^(٢) . قال الشوكاني : "وجه تعريف الحسنة أنها كثيرة الوقوع"^(٣) . فقد كانت الحسنة والنعم تقع لآل فرعون بصورة كبيرة فجاء تعريف الحسنة بالألف واللام للدلالة على ذلك.

هذه بعض الأغراض البلاغية التي خرج إليها التعريف بصوره المختلفة ، والتي تبين بلاغة القرآن الكريم في هذا الجانب.

(٢) الأغراض البلاغية للتكثير:

تحدث الشوكاني عن الأغراض البلاغية التي يفيدها التكثير في آيات عديدة من آيات القرآن الكريم، وبين الحكمة منه والتي تفهم من سياق الآيات وأهم هذه الأغراض :

١- التعظيم:

بين الحكمة من تكثير كلمة فضل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾^(٤) فقال: "التكثير في قوله: "فضل" للتعظيم ، أي لذو فضل عظيم على الناس جميعاً"^(٥) . فلم يحدد سبحانه حجم هذا الفضل ليدل على عظيمه ولو أرادوا أن يحصوه لما استطاعوا ذلك.

ومثلها قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٦) .

(١) خصائص التراكيب، محمد أبو موسى، ص ١٥٢ ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٩٨٠ .

(٢) الأعراف: ١٣١ .

(٣) فتح القدير ج ٢/٣٠٢ .

(٤) البقرة: ٢٤٣ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٣٥٧ .

(٦) البقرة: ٢٥١ .

وذكر هذا الغرض أيضاً مع زيادة في التعظيم في قوله تعالى : ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (١) . فقال : "تتكبير الحرب للتعظيم ، وزادها تعظيماً نسبتها إلى اسم الله الأعظم وإلى رسوله الذي هو أشرف خليقته" (٢) . فالحرب عندما تكون بين البشر تكون عظيمة فما بالك وهي حرب معلنة من الله سبحانه ومن رسوله ﷺ ، والتي لا يمكن أن ينتصر فيها ذلك المرابي فلا بد من أن تكون حرباً عظيمة جداً فنكر كلمة حرب ليدل على عظم تلك الحرب وهولها .

وذكر ذلك الغرض في آيات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ (٣) . وذلك في تكبير كلمة رحمة ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٤) . تكبير كلمة عبرة ، وقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (٥) تكبير كلمة ظلم .

أما في قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٦) .

فيوضح الشوكاني أن فيها بلاغة عظيمة وفصاحة رفيعة ، فيقول في تفسيرها : "أي لكم في هذا الحكم الذي شرعه الله لكم حياة، لأن الرجل إذا علم أنه يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل ، وانزجر عن التسرع إليه والوقوع فيه ، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية ، وهذا نوع من البلاغة بليغ وجنس من الفصاحة رفيع ، فإنه جعل القصاص الذي هو موت حياة باعتبار ما يتوَل إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً إبقاء على أنفسهم ، واستدامة لحياتهم" (٧) . يفهم من كلام الشوكاني أن الإيجاز في هذه العبارة مع ما فيها من معاني كثيرة ، فيها هذه البلاغة والفصاحة ، إضافة على تكبير كلمة حياة وما فيها من تعظيم لقيمة هذه الحياة ، وجعل الموت بالقصاص حياة للناس جميعاً .

(١) البقرة: ٢٧٩ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٤٠٥ .

(٣) آل عمران: ٨ .

(٤) البقرة: ١٣ .

(٥) النساء: ١٦٠ .

(٦) البقرة: ١٧٩ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٢٤٦، ٢٤٧ .

٢ - التحقير : وهو مضاد التعظيم.

وقد بين الشوكاني هذا الغرض في تفسيره للعديد من آيات القرآن الكريم فذكر منها :
توضيح الغرض من تكبير كلمة حياة أيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَتَجِدْنَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ ^(١) . فبين أن الغرض هو التحقير بعكس الغرض منه في الآية التي مرت في الغرض السابق وهو التعظيم ، رغم أن الكلمة واحدة ، لكن السياق في الآيتين مختلف مما جعل الاختلاف في الغرض البلاغي للتكبير في نفس الكلمة ، يقول الشوكاني في الآية السابقة : "تكبير"حياة" للتحقير ، أي إنهم أحرص الناس على أحقر حياة وأقل لبث في الدنيا فكيف بحياة كثيرة ولبث متطول ، وقال في الكشاف : إنه أراد بالتكبير حياة مخصوصة ، وهي الحياة المتطولة" ^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ﴾ ^(٣) يقول الشوكاني : " المراد أن هذا اليوم لا تقضي نفس عن نفس شيئاً ، ولا تكفي عنها ، ومعنى التكبير التحقير ، أي شيئاً يسيراً حقيراً" ^(٤) . وأراد تحقير هذا الشيء ليدل على حرص النفس على أي شيء في ذلك اليوم لتجتاز به الصراط لعلها تفوز بالجنة ، لذلك لا تستطيع أن تعطيه لغيرها رغم حقارته.

ومن الآيات التي ذكر فيها الشوكاني هذا الغرض من التكبير، نذكر منها على سبيل المثال : قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُغْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ ﴾ ^(٥) . تكبير شيء للتحقير.

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ^(٦) . تكبير شيء أيضاً للتحقير.

(١) البقرة: ٩٦ .

(٢) فتح القدير : ج ١/١٦٨ ، وانظر: قول الزمخشري في الكشاف: ج ١/١٥٥ .

(٣) البقرة: ٤٨ .

(٤) فتح القدير: ج ١/١٢٦ .

(٥) المائدة: ٩٤ .

(٦) المائدة: ٦٨ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ (١) . تنكير الظن للتحقير .

٣ - التفخيم:

في قوله تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٢) . يوضح الشوكاني الغرض من التنكير في هذه الآية ، فيقول:"ومعنى "سواها" خلقها وأنشأها وسوى أعضائها ، قال عطاء : يريد جميع ما خلق من الجن والإنس ، والتنكير للتفخيم" (٣) . أي تنكير كلمة نفس ، أراد تفخيمها ليدل على قدرة الله في خلق هذه النفس وإنشائها بهذه الصورة الحسنة.

٤ - التكثير:

بين الشوكاني هذا الغرض في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (٤) . فقال : "التكثير في وجوه للتكثير أي وجوه كثيرة" (٥) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ (٦) . يقول الشوكاني:"التكثير في رسل للتكثير، أي:"برسل كثيرة" (٧) . فتكثير وجوه ورسول مع جمعها فيه دلالة على الكثرة ، كثرة الوجوه التي تبيض يوم القيامة ، والوجوه التي تسود ، وكثرة الرسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم فاستهزئ بهم.

٥ - التقليل:

جاء في قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (٨) . كلمة شيء جاءت هنا نكرة وقد وضح الشوكاني الغرض البلاغي من التنكير فقال : "تنكير شيء للتقليل ، أي بشيء قليل من هذه الأمور" (٩) .

(١) يونس: ٣٦ .

(٢) الشمس: ٧ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/٥٣٤ .

(٤) آل عمران: ١٠٦ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٤٩٩ .

(٦) الرعد: ٣٢ .

(٧) فتح القدير: ج ٣/١٠٦ .

(٨) البقرة: ١٥٥ .

(٩) فتح القدير: ج ١/٢٢٥ .

وذكر الشوكاني هذا الغرض وسماه ندرة الوقوع بدل التقليل ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ ﴾ (١) . قال: "وجه تذكير السيئة ندرة وقوعها" (٢) . فأراد أن السيئة كانت تصيبهم بدرجة قليلة ولذلك ينسبونها لموسى ومن معه. فالندرة مقصود بها القليل كما هو واضح.

٦- الشمول أو العموم :

كما أن الشمول والعموم كان مع التعريف كذلك ذكره الشوكاني كغرض للتكثير وذلك في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

قال الشوكاني: "قوله: "ولا خوف عليهم" ظاهر نفي الخوف عنهم في الدارين لما تفيده النكرة الواقعة في سياق النفي من الشمول" (٤) . وذكر العموم في وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ﴾ (٥) .

"النكرة في سياق النفي مشعرة بالعموم : أي لا يمتنع أحد من الكتاب أن يكتب كتاب التداين كما علمه الله" (٦) . فهو عام لكل من عرض عليه أن يكتب كتاب الدين . ويقول الزمخشري: "ولا يمتنع أحد من الكتاب ، وهو معنى تكثير كاتب" (٧) . وكأنه يقصد أن تكثير كاتب يفيد العموم لكل الكتاب كما وضحاها الشوكاني.

٧- الإبهام:

وهذا في قوله تعالى: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ (٨) .

(١) الأعراف: ١٣١ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٣٠٢ .

(٣) البقرة: ٢٦٢ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٣٨٧ .

(٥) البقرة: ٢٨٢ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٤٠٨ .

(٧) الكشاف: ج ١/٢٨٨ .

(٨) يوسف: ٩ .

بين الشوكاني ذلك بقوله: "انتصاب أرضاً على الظرفية والتكثير والإبهام: أي أرضاً مجهولة"^(١). فأراد إبهام الأرض لتكون غير معروفة لا يمكن الاهتداء إليها ، لذلك لم يقل الأرض لأنه أراد اطرحوه في أرض مجهولة منكورة لا يعرفها أحد فلا يهتدي إليه أبوه"^(٢). وفي الكشف يقول في "أرضاً": "منكورة بعيدة عن العمران ، وهو معنى تكثيرها وإخلائها من الوصف ، وإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة"^(٣). حيث شابها ظروف المكان المبهم في النصب فإن اسم المكان فلا يقبل النصب منه إلا نوعان ، أحدهما: المبهم... والمبهم كالجهاث الست ، نحو: فوق ، تحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف ، ونحو هذا، كالمقادير، نحو غلوة ، وميل ، وفرسخ ، وبريد ، تقول: (جلست فوق الدار، وسرت غلوة) ، فتنصبها على الظرفية"^(٤).

٨- التهويل:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾^(٥).

قال الشوكاني مبيناً ذلك: "هو يوم القيامة وتكثيره للتهويل"^(٦). فهو يوم لا يعرف كنهه ولا يستطيع أحد تصور ما فيه من هول ، لذا جاء نكرة لتهويل أمره ولتذهب العقول في تصوره كل مذهب.

٩- التخصيص:

في قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى ﴾^(٧). يقول الشوكاني: "جاز الابتداء بالنكرتين لأن الأولى تخصصت بالوصف والثانية بالعطف، والمعنى أن القول المعروف من المسئول للسائل وهو التأنيس والترجية بما عند الله"^(٨).

(١) فتح القدير: ج ١١/٣ .

(٢) خصائص التراكيب: ١٦٨ .

(٣) الكشف: ج ٤٤٧/٢ .

(٤) شرح ابن عقيل: ج ١/٤٨٤ .

(٥) البقرة: ٢٨١ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٤٠٦ .

(٧) البقرة: ٢٦٣ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٣٨٨ .

يفهم من ذلك أن النكرة هنا أفادت التخصيص بالوصف في "قول" ، وبالعطف في "مغفرة" وهذا يوافق ما ذكره الزمخشري بأنه "صح الإخبار عن المبتدأ النكرة لاختصاصه بالصفة"^(١) .

١٠- عدم الاختصاص:

كما في قوله تعالى: ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ ﴾^(٢) .

يقول الشوكاني: "الظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أي خير كان ، فهو لا يختص بنوع معين كما يفيد وقوع هذه النكرة في سياق النفي"^(٣) .

فتنكير خير يفيد عدم الاختصاص بنوع معين من الخير، بل يريدون أن لا ينزل أي خير على المسلمين.

خامساً : التقديم والتأخير

التقديم: من قدم الشيء إذا وضعه أمامه غيره والتأخير نقيض ذلك"^(٤) .

وفي اصطلاح البلاغيين: يقول الطوفي البغدادي (٧١٦هـ) في التقديم والتأخير: "هو جعل اللفظ في رتبة قبل رتبته الأصلية أو بعدها، لعارض اختصاص أو أهمية أو ضرورة"^(٥) .

ويقول الزركشي عن التقديم والتأخير: "هو أحد أساليب البلاغة ، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم ، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق"^(٦) .

(١) الكشاف: ج ١/٢٧٧ .

(٢) البقرة: ١٠٥ .

(٣) فتح القدير: ج ١/١٨١ .

(٤) اللسان: (قدم، آخر) .

(٥) الإكسير في علم التفسير: الطوفي، تحقيق عبد القادر حسين، ص ١٨٩ ، دار الأوزاعي، ١٩٨٩ .

(٦) البرهان في علوم القرآن: ج ٣/٢٣٣ .

والتقديم والتأخير له أغراض بلاغية ، تحدث عنها الشوكاني في تفسيره للكثير من الآيات التي جاء فيها التقديم والتأخير وأظهر من خلالها الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم ، ومن هذه الأغراض:

١- الاختصاص:

بين الشوكاني أن الغرض من التقديم والتأخير يفيد الاختصاص في عدد من الآيات منها قوله تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ** ﴾^(١) . يقول الشوكاني: "وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالافتداء ، والافتداء طلب موافقة الغير في فعله"^(٢) . فهو يريد أن نوجه عنايتنا للهداية التي كانوا عليها ونقتدي بها.

وجاء هذا الغرض في تقديم الظرف في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ** ﴾^(٣) . إذ يقول: "وتقديم الظرف في قوله: "منه تنفقون" يفيد التخصيص أي لا تخصوا الخبيث بالإنفاق ، والجملة في محل نصب على الحال ، أي : لا تقصدوا المال الخبيث مخصصين الإنفاق به قاصرين له عليه"^(٤) .

ويفيد التقديم الاختصاص في تقديم معمول الفعل في قوله تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾^(٥) . يقول الشوكاني: "ومعنى قوله: (أوف بعهدكم) أي بما ضمنتم لكم من الجزاء... وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم في: (إياك نعبد) وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار والتفسير مثل زيدا ضربته (وإياي فارهبون) كان أوكد في إفادة الاختصاص ، وفي هذا قال صاحب الكشاف: "وهو أوكد في إفادة الاختصاص من(إياك نعبد)"^(٦) . فتقديم المفعول على الفعل أوكد في إفادة الاختصاص " لما فيه من التقديم من تكرير المفعول والفاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط كأنه قيل : إن كنتم راهبين شيئاً فارهبوني"^(٧) .

(١) الأنعام: ٩٠ .

(٢) فتح القدير: ج ١٧٧/٢ .

(٣) البقرة: ٢٦٧ .

(٤) فتح القدير: ج ٣٩٤/١ .

(٥) البقرة: ٤٠ .

(٦) فتح القدير: ج ١١٦/١ وانظر قول صاحب الكشاف في الكشاف ج ١٢٣/١ .

(٧) تفسير أبي السعود: ج ١٢٧/١ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ (١) . قدم "وعلى الذين هادوا" على الفعل للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم" (٢) .

٢- الاختصاص والاهتمام:

إذ يجعل الشوكاني الغرض من التقديم والتأخير الاهتمام مرة ، والاختصاص مرة ثانية ، فهو لهما وذلك في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣) . فقال : " والضمير المنفصل هو "إيا" وما يلحقه من الكاف والهاء والياء هي حروف لبيان الخطاب والغيبة والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور ، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص ، وقيل للاهتمام ، والصواب أنه لهما ولا تزام بين المقترضات " والمعنى نخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل" (٤) . وبين الغرض من تقديم العبادة على الاستعانة وهو " كون الأولى وسيلة إلى الثانية ، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب" (٥) .

ونجده يجعل الغرض من تقدير الفعل مقدماً للاهتمام ، ومن تقديره متأخراً للاختصاص ، وذلك في تعقيبه على تفسير "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" (٦) . إذا يقول: " ومتعلق الباء محذوف وهو أقرأ أو أتلو لأنه المناسب لما جعلت البسمة مبدأ له ، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل ، ومن قدره متأخراً كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به ، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام" (٧) .

فيريد أن التأخير المفيد للاختصاص هو الأرجح وأولى من التقديم المفيد للاهتمام. وقد وافق الزمخشري في هذا الترجيح فقال الزمخشري: "إِن قلت: بم تعلق الباء؟ قلت بمحذوف

(١) الأنعام: ١٤٦ .

(٢) فتح القدير ج ٢/ ٢٢١ .

(٣) الفاتحة: ٥ .

(٤) فتح القدير: ج ١/ ٤٥ .

(٥) فتح القدير: ج ١/ ٤٦ .

(٦) الفاتحة: ١ .

(٧) فتح القدير: ج ١/ ٣٨ .

تقديره باسم الله أقرأ أو أتلو، لأن الذي يتلو التسمية مقروء... فإن قلت: لم قدرت المحذوف متأخراً؟ قلت: لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به... فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله - عز وجل - بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: "إياك نعبد" حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص^(١).

٣- العناية والاهتمام:

وهو من الأغراض البلاغية التي ذكرها الشوكاني ليكشف عن بلاغة التقديم، وكان يذكر الغرض من التقديم العناية وحدها أو الاهتمام وحده دون أن يجمع بين الكلمتين فيقول مثلاً: قدم للعناية والاهتمام وهذا ما سنلاحظه في الأمثلة الآتية:

في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٢). يقول: "قدم المفعول الثاني للعناية، كما تقول: علمت منطلقاً زيداً، أي أطاع هواه طاعة كطاعة الإله أي انظر إليه يا محمد وتعجب منه"^(٣). والفعل اتخذ يتعدى إلى مفعولين هما إلهه وهواه فقدم إلهه على هواه للعناية فجعل هواه هو إلهه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾^(٤). يقول الشوكاني مبيناً الغرض من التقديم: "عليكم متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء، وتقديمه على حفظة ليفيد العناية بشأنه، وأنه حقيق بذلك وقيل هو متعلق بحفظه"^(٥). وهو من تقديم شبه الجملة على المفعول به.

وجاء هذا الغرض في تقديم شبه الجملة من الجار والمجرور على الفاعل وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٦). فقال: "قوله: يحاسبكم به الله" قدم الجار والمجرور على الفاعل لإظهار العناية به"^(٧). ثم بين أن في الآية أكثر من تقديم وكل تقديم له غرضه البلاغي "وقدم الإبداء

(١) الكشاف: ج ١/ ١٢، ١١.

(٢) الفرقان: ٤٣.

(٣) فتح القدير: ج ٩٥/٤.

(٤) الأنعام: ٦١.

(٥) فتح القدير: ج ١٦١/٢.

(٦) البقرة: ٢٨٤.

(٧) فتح القدير: ج ٤١٥/١.

على الإخفاء لأن الأصل في الأمور التي يحاسب عليها هو الأعمال البادية، ... وقدم المغفرة على التعذيب لكون رحمته سبقت غضبه" (١) . فجاء التقديم بسبب السبق.

كذلك ذكر كلمة "الاهتمام" كغرض للتقديم دون ذكر كلمة "العناية" معها، نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ﴾ (٢) . قال الشوكاني: " الجار والمجرور متعلق بقوله : " أخذنا " والتقديم للاهتمام ، والتقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، أي في التوحيد والإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به " (٣) .

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (٤) . المراد إذا حضرت علاماته ، لأن من مات لا يمكنه الإشهاد ، وتقديم المفعول للاهتمام ولكمال تمكن الفاعل عند النفس " (٥) . ومثاله قوله تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ (٦) .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (٧) . يقول الشوكاني موضحاً السر في التقديم والتأخير في الآية: "الفريق الأول هم الرجال، والفريق الثاني هم النساء والذرية... ووجه تقديم مفعول الفعل الأول وتأخير مفعول الفعل الثاني أن الرجال كلما كانوا أهل الشوكة وكان الوارد عليهم أشد الأمرين وهو القتل كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام" (٨) نلاحظ هنا إبداع الشوكاني في تحليله لأسباب التقديم والتأخير مما يدل على تمكنه في علم البلاغة وإظهار الأغراض البلاغية لأقسامها المختلفة.

وذكر هذا الغرض أيضاً عند تقديم الخبر على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَبِشِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ﴾ (٩) . يقول: " وارتفاع حق على أنه خبر مقدم، والمبتدأ هو الضمير الذي بعده وتقديم الخبر للاهتمام" (١٠) .

(١) فتح القدير : ج ١٥/١ .

(٢) المائة: ١٤ .

(٣) فتح القدير : ج ٣١/٢ .

(٤) المائة: ١٠٦ .

(٥) فتح القدير: ج ١١٣/٢ .

(٦) المنافقون: ١٠ .

(٧) الأحزاب: ٢٦ .

(٨) فتح القدير: ج ٣٢٩/٤ .

(٩) يونس: ٥٣ .

(١٠) فتح القدير: ج ٥٧١/٢ .

٤ - الاهتمام ومراعاة الفواصل:

بين الشوكاني الغرض في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾^(١) فقال: "وتقديم المفعول للاهتمام، ورعاية الفواصل"^(٢). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٣). "تقديم المفعول على الفعل لإفادة القصر، أو لمجرد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة"^(٤).

٥ - الشمول:

وضح هذا الغرض من التقديم في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾^(٥). فقال: "وتقديم السر على الجهر للمبالغة في شمول علمه لجميع المعلومات"^(٦). فجعل الغرض من التقديم المبالغة في الشمول، فإله سبحانه يعلم ما يسره الإنسان ويخفيه في نفسه، وما يعلنه، فهو سبحانه عالم بكل شيء.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾^(٧). يقول الشوكاني: "أي جعلنا لكل إنسان ورثة موالى يلون ميراثه، و"لكل" مفعول ثانٍ قدم على الفعل لتأكيد الشمول"^(٨). وهو هنا يوافق أبا السعود في جعل الغرض من التقديم الشمول"^(٩).

٦ - كون المقام تحذير وترهيب:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾^(١٠). إذ يقول الشوكاني: "هذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام تحذير وترهيب."^(١١).

(١) الأنعام: ١ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/١٢٨ .

(٣) يونس: ٤٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/٥٦٦ .

(٥) يس: ٧٦ .

(٦) فتح القدير: ج ٤/٤٥٦ .

(٧) النساء: ٣٣ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٦١٥ .

(٩) انظر: تفسير أبي السعود: ج ٢/١٣١ .

(١٠) آل عمران: ١٠٦ .

(١١) فتح القدير: ج ١/٤٩٩ .

٧- تقديم الوسيلة على المتوسل إليه:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ﴾ (١) . قال الشوكاني: " قدم السمع والطاعة على طلب المغفرة لكون الوسيلة تتقدم على المتوسل إليه" (٢) .

٨- تقديم السبب على المسبب:

في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ (٣) .

يقول الشوكاني: " قدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة لكونه وسيلة إليها وقيل: إن التوبة من متمات الاستغفار، وقيل: معنى استغفروا توبوا، ومعنى توبوا أخلصوا التوبة واستقيموا عليها... وقيل: إنما قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها، وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب. " (٤) .

٩- تقديم الكلمة لتقدمها في الزمن:

كما في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (٥) . قال الشوكاني في سبب التقديم: " جمع السماوات لتعدد طباقها، وقدمها على الأرض لتقدمها في الوجود" (٦) . فخلق السماوات كان قبل خلق الأرض في الزمن فكان تقديمها بسبب هذا السبق في الخلق.

١٠- المناسبة : أي مناسبة المتقدم لسياق الكلام .

كقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (٧) . يبين الشوكاني جمال البلاغة في التقديم والتأخير وذلك في تقديم الإراحة على السراح فيقول :

(١) البقرة: ٢٨٥ .

(٢) فتح القدير: ج١/٤١٨ .

(٣) هود: ٣ .

(٤) فتح القدير: ج٢/٦٠٦ .

(٥) الأنعام: ١ .

(٦) فتح القدير: ج٢/١٢٨ .

(٧) النحل : ٦ .

"فالروح رجوعها بالعشي من المراعى ، والسراح مسيرها إلى مراعيها بالغدوة ، يقال سرحت الإبل أسرحها سرحا : إذ غدوت بها إلى المراعى ، وقدم الإراحة على التسريح لأن منظرها عند الإراحة أجمل ، وذواتها أحسن لكونها في تلك الحالة قد نالت حاجتها من الأكل والشرب فعظمت بطونها وانتفخت ضروعها ، وخص هذين الوقتين لأنهما وقت نظر الناظرين إليها لأنها عند استقرارها في الحظائر لا يراها أحد ، وعند كونها في مراعيها هي متفرقة غير مجتمعة كل واحد منها يرعى في جانب " (١) . وهنا كأن الشوكاني ينقل هذا المعنى عن السيوطي إذ يقول : " فإن الجمال بالجمال ، وإن كان ثابتاً حالتى السراح والإراحة ، إلا أنها حالت إراحتها وهو مجيئها من المرعى آخر النهار يكون الجمال بها أفخر، إذ هي في بطنان، وحالة سراحها للمرعى أول النهار يكون الجمال بها دون الأول ، إذ هي فيه خماص " (٢) .

وجعل الزركشي التقديم في هذه الآية من نوع سبق ما يقتضى تقديمه . (٣) .

١١- تقديم الكثير على القليل :

كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٤) . ذكر الشوكاني المعاني اللغوية لكل قسم من الأقسام الثلاثة ثم بين بعض ما قيل من آراء بلاغية في التقديم ورجح الرأي الذي رأى أنه أنسب يقول : " وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه والسابق أفضل منهما ، فقيل : إن التقديم لا يقتضى التشرىف كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (٥) .

ونحوها من الآيات القرآنية التي فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير ، وتقديم المفضولين على الفاضلين ، وقيل : وجه التقديم هنا أن المقتصدين بالنسبة إلى أهل المعاصي قليل والسابقين بالنسبة إلى الفريقين أقل قليل ، فقدم الأكثر على الأقل ، والأول أولى فإن الكثرة بمجردا لا تقتضى تقديم الذكر " (٦) .

(١) فتح القدير ج ١٨٧/٣ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ج ٣٦/٣ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ج ٢٦٢/٣ .

(٤) فاطر: ٣٢ .

(٥) الحشر : ٢٠ .

(٦) فتح القدير: ج ٤١٧/٤ .

وقد جعل أكثر أهل البلاغة التقديم في هذه الآية من تقديم الأكثر على الأقل كما عند الزركشي جعله للغلبة والكثرة^(١) . والسيوطي جعله للكثرة^(٢) . فالشوكاني خالف ما ذهب إليه الزركشي و السيوطي، وكذلك خالف ما قاله العلوي في هذه الآية: إذ جعلها مما يجوز تقديمه ولو آخر لم يفسد معناه يقول: "فإنما قدم الظالم لنفسه لأجل الإيذان بكثرتهم وأن معظم الخلق على ظلم نفسه، ثم نثي بعدهم بالمقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إلى الظالمين، ثم ثلث بالسابقين وهم أقل من المقتصدين ، فلا جرم قدم الأكثر ، ثم بعده الأوسط ، ثم ذكر الأقل آخرًا لما أشرنا إليه ، ولو عكست هذه القضية فقدم السابق لشرفه على الكل ، ثم نثي بالمقتصد لأنه أشرف ممن ظلم نفسه لم يكن فيه إخلال بالمعنى ، فلا جرم روعي في ذلك تقديم الأفضل فالأفضل"^(٣) . فالعلوي سوغ فيه الأمرين جواز التقديم والتأخير ، وجعل التقديم بسبب الكثرة . وأوافق الشوكاني في أن التقديم ليس للتشريف لأنه لا يمكن تقديم أهل المعاصي على أهل الخير للتشريف ، ولكن يجوز أن يكون التقديم للكثرة كما ذهب إليه العلماء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾^(٤) . قال الشوكاني : "وقدم الكافر على المؤمن لأنه الأغلب عند نزول القرآن"^(٥) .

سادساً : أسلوب القصر

القصر : الحبس، وفي القرآن "حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ"^(٦) . أي محبوسات فيها، والقصر: كفك نفسك عن أمر وكفها من أن تطمح به غرَبَ الطمع"^(٧) .

أما عند البلاغيين: "هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص"^(٨) . وذكره السيوطي باسم الحصر ويقال عنه القصر. فقال: "أما الحصر ويقال له القصر: فهو تخصيص أمر بآخر بطريق

(١) البرهان في علوم القرآن ج٣/٢٦٠ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن ج٣/٣٧ .

(٣) الطراز: ٢٣٨، ٢٣٧ .

(٤) التغاين : ٢ .

(٥) فتح القدير ج٥/٢٨٠ .

(٦) الرحمن: ٧٢ .

(٧) اللسان: قصر .

(٨) التلخيص في علوم البلاغة، القزويني، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الفكر العربي ، ط ٢

١٩٣٢، ص١٣٧ والإيضاح ١١٨ .

مخصوص، ويقال أيضاً: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه^(١). وفي المطول: تخصيص شيء بشيء بطريق معهود^(٢).

وقد تحدث الشوكاني في تفسيره فتح القدير عن هذا الأسلوب وبين الجوانب البلاغية لاستخدام هذا الأسلوب، وذكر القصر من عدة طرق، منها أنه غرض بلاغي من أغراض التقديم. والقصر باستخدام "إنما" وباستخدام النفي والاستثناء، وسأبين هذه الطرق من خلال الآية القرآنية التي تحدث عنها الشوكاني وأظهر فيها طرق القصر وبلاغته.

١ - القصر بطريق تقديم ما حقه التأخير: ويأتي بعدة طرق :

أ- تقديم المفعول به :

من ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾^(٣). يقول الشوكاني: "قوله "كلاً" مفعول أول لقوله: "وعد الله" قدم عليه لإفادته القصر، أي كل واحد من المجاهدين والقاعدين وعده الله الحسنى: أي المثوبة وهي الجنة"^(٤). وهو من تقديم المعمول حيث قدم المفعول به على الفعل والفاعل ليجعل ذلك الوعد مقصوراً على المجاهدين والقاعدين فكل له أجر ولكن هذا الأجر يقدره الله وحده .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(٥). قال الشوكاني: "ووجه تقديم المفعول أن المقام مقام حصر الفاعلية، ولو أخرج انعكس الأمر"^(٦). استخدام الشوكاني كلمة الحصر ككلمة مرادفة للقصر كما عند السيوطي، وتحدث عن فائدة التقديم إذا كان تقديم المفعول وهو الله سبحانه على الفاعل وهم العلماء، ليقرر خشية من الله على العلماء الذين فهموا الدين وعرفوا حدود الله وأوامره ونواهيه فكانوا أكثر خشية لله من غيرهم، وإنما جاءت للقصر وتأكيده.

(١) الإتيان في علوم القرآن : ج٣/١٢٧. ومعتك القرآن ج١/١٣٦ .

(٢) المطول: ٣٨١ .

(٣) النساء: ٩٥ .

(٤) فتح القدير : ج١/٦٧٢ .

(٥) فاطر : ٢٨ .

(٦) فتح القدير: ج٤/٤١٥ .

ب- تقديم الجار والمجرور:

كما في قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(١) . فقد أفاد التقديم غرضاً بلاغياً وهو القصر " وتقديم الجار والمجرور على الفعل الذي هو متعلق به أعنى كتبنا: يفيد القصر، أي من أجل ذلك لا من غيره"^(٢) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(٣) . إذ يقول: " وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله"^(٤) .

فلا يمكن أن يكون التوكل والإنابة والمصير إلا لله سبحانه فلا يتجاوز به إلى غيره حيث اختص المقصور بالمقصور عليه فلا يتعداه إلى غيره.

ويذكر الشوكاني التقديم دون أن يذكر كلمة القصر أو الحصر ولكن يفهم ذلك من كلامه كما في قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾^(٥) . يقول الشوكاني: "فيه ترغيب وترهيب: أي لها ثواب ما كسبت من الخير وعليها وزر ما اكتسبت من الشر، وتقديم لها وعليها على الفعلين ليفيد أن ذلك لها لا لغيرها وعليها لا على غيرها"^(٦) . يفهم من هذا أن التقديم للجار والمجرور يفيد القصر، فالثواب لها إن فعلت الخير لا لغيرها، والوزر عليها إن فعلت الشر لا لغيرها، فلا تزر وازرة وزر أخرى.

ومنه الآيات الآتية: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلِيَّ رَجْعُكَ الرَّجْعَى ﴾^(٧) . وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾^(٨) . وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ ﴾^(٩) .

(١) المائدة: ٣٢ .

(٢) فتح القدير: ج ٤٦/٢ .

(٣) الممتحنة: ٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٢٥٣/٥ .

(٥) البقرة: ٢٨٦ .

(٦) فتح القدير : ج ٤١٨/١ .

(٧) العلق: ٨ .

(٨) آل عمران: ١٦٠ .

(٩) آل عمران: ١٥٩ .

ج- تقديم الظرف :

كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ (١) قال الشوكاني: "أي رجوعكم، وتقديم الظرف للقصر" (٢) وهو من قصر الصفة على الموصوف فقصر الرجوع إلى الله سبحانه فكل شيء صائر إلى الله فلا يكون رجوع إلى غيره.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (٣) يقول الشوكاني: "وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير المذكور إشعار بالحصر وأن ما عدا هذا الأمر الذي هو أساس الإيمان ورأسه ليس بمستأهل للإيقان به والقطع بوقوعه" (٤).

د- تقديم الخبر:

كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥). قال الشوكاني: "وتقديم الخبر للدلالة على القصر، والمعنى أنكم بعد هذه الحياة الدنيا ومتاعها ترجعون إلى الله فيجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه" (٦). فقد خص الرجوع وقصره على الله سبحانه فنهاية الإنسان ومآله إلى الله.

٢- القصر باستخدام إنما:

يقول القزويني: "والدليل على أنها تفيد القصر كونها متضمنة معنى "ما" و"الإلا" (٧). والأصل فيها أن تأتي في الأمور التي يدعي أنها من الوضوح بمكان" (٨).

(١) آل عمران: ٥٥ .

(٢) فتح القدير : ج ١/٤٦٧ .

(٣) البقرة: ٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٦٦ .

(٥) يونس: ٢٧ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/٥٥١ .

(٧) الإيضاح: ١٢١ .

(٨) من بلاغة القرآن ، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر- القاهرة، ١٩٧٨، ص ١٥٩ .

وقد ذكر الشوكاني أن "إنما" من صيغ القصر موافقاً في ذلك البلاغيين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ .. ﴾ (١) .

يقول الشوكاني: "وإنما من صيغ القصر، وتعريف الصدقات للجنس أي جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها بل هي لهم لا لغيرهم" (٢) .

فأراد قصر الصدقات على الأصناف الثمانية المذكورة في الآية بحيث لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتجاوزهم إلى غيرهم، وهذا الذي سماه البلاغيون من قبله القصر الحقيقي (٣) . والقصر الحقيقي: "هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه لا يتعداه إلى غيره على الإطلاق" (٤) فإنما تضمنت "ما" و"إلا" فتكون الآية : ما الصدقات إلا للفقراء والمساكين، نفي مع استثناء.

كذلك استخدام كلمة الحصر المرادفة للقصر، قال الشوكاني: "و(إنما) كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه" (٥) . في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٦) . يقول: "وإنما من صيغ الحصر، والمعنى لا يتم إيمان ولا يكمل حتى يكون بالله ورسوله" (٧) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٨) يقول الشوكاني: "إنما للحصر أي إنما يتقبل الله القربان من المتقين لا من غيرهم، وكأنه يقول لأخيه: إنما أتيت من قبل نفسك لا من قبلي فإن عدم تقبل قربانك بسبب عدم تقواك" (٩) .

بل نجد ما يوضح ما يفيد القصر بإنما، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١٠)

(١) التوبة: ٦٠ .

(٢) فتح القدير: ج٢/٤٧٠ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٧٥ .

(٤) شروح التلخيص، التفنازي، دار الإرشاد الإسلامي ، بيروت، ج٢/١٦٦/١٦٧ .

(٥) فتح القدير: ج١/٢٣٨ .

(٦) النور: ٦٢ .

(٧) فتح القدير: ج٤/٧١ .

(٨) المائدة: ٢٧ .

(٩) فتح القدير: ج٢/٤٣ .

(١٠) الأنعام: ١٥٩ .

يقول في القصر بإنما" فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته، والحصر بإنما هو في حكم التعليل لما قبله، والتأكيد له" (١) فإنما أفادت معنى ثانياً وهو التعليل للحكم وتأكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ (٢) قال الشوكاني: "أي وقعتم في الفتنة بسبب العجل وابتليتم به، وضللتم عن طريق الحق لأجله، قيل: ومعنى القصر المستفاد من إنما هو أن العجل صار سبباً لفتنتهم لا لرشادهم وليس معناه أنهم فتتوا بالعجل لا بغيره" (٣) فليس المقصود قصر الفتنة على العجل، ولا يمكن أن يتعداه إلى غيره، بل أفادت إنما السبب في الفتنة وهو العجل ولكن قد تكون الفتنة في غيره.

كذلك وضح الشوكاني: إفادة إنما للتعريض، وهي أحسن ما تستعمل فيه إنما، "إذا استقرت وجدتها أحسن ما تكون موقفاً إذا كان الغرض بها التعريض بأمر هو مقتضى معنى الكلام بعدها" (٤) وهي " في مقام التعريض وسيلة مؤدبة مؤثرة معاً فضلاً عن إيجازها أما إنها مؤدبة فلأنها تصل إلى الغرض من غير أن تذكر الطرف المقابل، ومؤثرة من ناحية أنك توحى بأن ترك التصريح بما يخالف ما أثبتته هو من الوضوح بمكان، كما أن الاكتفاء بالمثبت يوحي أحياناً بأنه لا يليق أن يوازن بين ما أثبت وما نفي" (٥) لذلك لم يغفل الشوكاني هذا الجانب فقال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ... ﴾ (٦) "أي إنما يستجيب لك إلى ما تدعو إليه الذين يسمعون سماع تفهم بما تقتضيه العقول وتوجيه الأفهام، وهؤلاء ليس كذلك، بل هو بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ولا يعقلون، لما جعلنا على قلوبهم من الأكنة وفي آذانهم من الوقر، ولهذا قال: "والموتى يبعثهم الله" شبههم بالأموات بجامع أنهم جميعاً لا يفهمون الصواب ولا يعقلون الحق" (٧).

فهو تعريض بأولئك الذين لا يسمعون، فأراد بقصر الاستجابة على الذين يسمعون ويعقلون أن يعرض بالذين لا يستجيبون، فأظهر الشوكاني في سياق كلامه المعاني البلاغية للآية وهو التعريض المفهوم من القصر بإنما.

(١) فتح القدير: ج ٢/٢٣٣ .

(٢) طه: ٩٠ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/٤٧٨ .

(٤) الإيضاح: ١٢٦ .

(٥) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي: ص ١٦٠ .

(٦) الأنعام: ٣٦ .

(٧) فتح القدير: ج ٢/١٤٦ .

٣- القصر بأنما : بالفتح:

يقول السيوطي: "عدها من طرق الحصر الزمخشري والبيضاوي، فقالا في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١) إنما لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، نحو "إنما زيدٌ قائمٌ" و"إنما يقوم زيدٌ". وقد اجتمع الأمران في هذه الآية، لأن "إنما يوحى إلي" مع فاعله بمنزلة إنما يقوم زيد، و"إنما إلهكم" بمنزلة إنما زيد قائم، وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحي إلى الرسول ﷺ مقصور على استثناء الله بالوحدانية" (٢).

وهذا ما ذكره الشوكاني في هذه الآية إذ جعل "أنما" بالفتح من طرق القصر، ووضح القصر كما وضحه الزمخشري و البيضاوي. فقال: "إن كانت (ما) موصولة فالمعنى: أن الذي يوحى إلي هو أن وصفه تعالى مقصور على الوحدانية لا يتجاوزها إلى ما يناقضها ، أو يضادها وإن كانت (ما) كافة فالمعنى: أن الوحي إلى مقصور على استثناء الله بالوحدة، ووجه ذلك أن القصر أبداً يكون لما يلي إنما، فإنما الأولى لقصر الوصف على الشيء كقولك إنما يقوم زيد أي : ما يقوم إلا زيد، والثانية لقصر الشيء على الحكم كقولك إنما زيد قائم أي: ليس به إلا صفة القيام" (٣).

٤- القصر بالنفي والاستثناء:

تناول الشوكاني هذه الطريقة من طرق القصر وكشف عن الجانب البلاغي للقصر فيها، وذكر أقسام القصر الإفراد والقلب في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (٤) إذ يقول: "والقصر قصر إفراد كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين: الرسالة، وكونه لا يهلك، فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك، وقيل: هو قصر قلب" (٥) فالمخاطبون في حالة أنهم يعتقدون الشركة بين الأمرين فيفرد لهم أحدهما، وهذا مفهوم قصر الإفراد والذي يخاطب به من يعتقد الشركة" (٦) فأفرد الله سبحانه أمر

(١) الأنبياء: ١٠٨ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن : ج٣/١٢٩، وانظر الكشف: ج٣/٢٠٨ .

(٣) فتح القدير: ج٣/٥٣٧ .

(٤) آل عمران: ١٤٤ .

(٥) فتح القدير: ج١/٥١٩ .

(٦) الإيضاح: ١١٨، والإتيان في علوم القرآن ج٣/١٢٧ .

الرسالة وقصره عليها فلا يتعداها إلى الأمر الآخر وهو عدم الهلاك، لأنها صفة يختص بها رب العالمين، فالرسول يهلك كباقي الناس.

"أما عن كونه قصر قلب، فيكون اعتقادهم عكس الواقع والحقيقة بأنه ﷺ لن يهلك فرد الله عليهم ذلك في الآية الكريمة" (١) ومن الممكن أن أجعل قصر الأفراد قصر قلب (٢). والشوكاني يوافق البلاغيين (٣) في أنه قصر أفراد بالأولى من قصر القلب، وخالفهم أبو السعود في جعله قصر قلب أولاً، وقيل إنه قصر أفراد (٤).

وقد استخدم النفي والاستثناء هنا في موطن عدم الإنكار تنزيلاً للمخاطب منزلة المنكر "فالسحابة رضوان الله عليهم لا ينكرون هذه الحقيقة (موت النبي)، ولكن لما هالهم ما سمعوه حينما أشيع أن النبي ﷺ قد قتل وهم يعلمون أن النبي بشر، ومن شأن البشر أن يموت فلما استنكروا موته عليه الصلاة والسلام فكأنهم أنكروا بشريته، وإنكارهم لبشريته يلزم إنكارهم لرسالته، لذا جاء القصر بما وإلا ولم يأت بإنما" (٥).

ومن القصر بطريق النفي والاستثناء قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ (٦) يقول الشوكاني: "جعل الله ذلك الإمداد بشري بالنصر وطمأنينة للقلوب، وفي قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ" (٧) قصر الإمداد على النصر، وطمأنينة القلوب بغرض الإشارة إلى عدم مشاركة الملائكة في القتال يومئذ.

٥- القصر بضمير الفصل:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (٨) يقول الشوكاني: "ضمير الفصل للحصر ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده" (٩) وعده السيوطي من طرق

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني، ٦٧٧.

(٢) الإيضاح: ١١٩.

(٣) الإيضاح: ١٢٣، المطول: ٣٩٧.

(٤) تفسير أبي السعود: ج ٤١/٢.

(٥) البلاغة فنونها وأبنائها" علم المعاني، د. فضل عباس، دار الفرقان، الأردن، ١٩٨٩م. ص ٣٧٥.

(٦) آل عمران: ١٢٦.

(٧) فتح القدير: ج ١/٥٠٩.

(٨) آل عمران: ٦٢.

(٩) فتح القدير: ج ١/٤٦٩.

القصر (١) . فأراد قصر القصص الحق على قصص القرآن الكريم التي يقصها الله على نبيه وعلى المسلمين.

وفي قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) قال الشوكاني: "وفائدة ضمير الفصل الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره" (٣) والمقصود بالاختصاص هنا أي القصر، فقصر المسند إليه على المسند دون غيره .

ومنه قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (٤) قال الشوكاني: "ضمير الفصل في قوله: "هو المسيح" يفيد الحصر" (٥) .

سابعاً : خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

تناول الشوكاني هذا الجانب من جوانب علم المعاني وكشف عن البلاغة القرآنية في صور خروج الكلام عن مقتضى الحال، ومن هذه الصور:-

أولاً : الالتفات:

وهو من "لفت وجهه عن القوم إذا صرفه، والتفت التفاتاً، والتفت أكثر منه وتلفت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه، ويقال: لفت فلاناً عن رأيه، أي صرفته عنه وفيه الالتفات" (٦) .

أما في تعريف البلاغيين: يقول السكاكي: "وأعلم أن هذا النوع، أعنى نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة، لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعاني" (٧) .

(١) الإتيان في علوم القرآن ج٣/١٣٠ .

(٢) البقرة: ٥ .

(٣) فتح القدير: ج١/٦٧ .

(٤) المائدة: ١٧ .

(٥) فتح القدير ج٢/٣٤ .

(٦) اللسان : (لفت) .

(٧) مفتاح العلوم: ١٩٩ .

ويرى القزويني أن هذا التعريف عام وذلك عند حديثه عن تعريف الجمهور للالتفات "والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها. وهذا أخص من تفسير السكاكي... فكل التفات عندهم التفات عنده، من غير عكس" (١) .

وقد سبقهم الزمخشري في دراسة الالتفات إذ: "لم يتحدد مفهوم الالتفات، وتتضح معالمه كفن من فنون البلاغة، ولم تدرس صورته دراسة بلاغية كاشفة عن أسرارها، ومحللة لشواهد، ومبينة فائدته وقيمه البلاغية، إلا على يد الإمام الزمخشري (٥٣٨هـ)" (٢) .

ونقل العلوي تعريف الالتفات عن ابن الأثير في كتابه المثل السائر، وكذلك عن الزمخشري (٣) .

وقد عرفه السيوطي وجعل له شرطاً فقال: "الالتفات: نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، أعنى من المتكلم أو الخطاب أو الغيبة على آخر منها بعد التعبير الأول" (٤) "وشرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائداً في نفس الأمر إلى المنتقل عنه، وإلا يلزم عليه أن يكون في (أنت صديقي) التفات" (٥) .

وقد نقل الشوكاني في تفسيره تعريف الالتفات كما عند علماء المعاني وذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٦) بعد "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (٧) .

قال: "عدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن نظرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني" (٨) .

(١) الإيضاح: ٧١ .

(٢) أسلوب الالتفات دراسة تاريخية فنية، نزيه عبد الحميد فراج، دار البيان، مصر. ط ١، ١٩٨٣م. ص ٦ .

(٣) انظر: الطراز ٢٦٥، والمثل السائر: ج ٢/١٦٧، ١٦٨، والكشاف: ج ١/١٩، ٢٠ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن: ج ٣/٢١٤ .

(٥) المصدر نفسه: ج ٣/٢١٨ .

(٦) الفاتحة: ٤ .

(٧) الفاتحة: ١ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٤٥ .

وقد كشف الشوكاني عن الفائدة التي يضيفها هذا الأسلوب على الكلام والأغراض البلاغية المستفادة من وروده في الكلام، وسنذكر هنا الأغراض البلاغية للانتفات كما بينها الشوكاني وستظهر من خلالها صور الانتفات التي تحدث عنها، وكان في بعض الآيات يذكر الانتفات والغرض البلاغي منه، دون ذكر لصورته.

الأغراض البلاغية للانتفات عند الشوكاني :

١ - تطرية نشاط السامع وإيقاظه:

وهذا ما ذكرناه آنفاً في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

فقد " عدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الانتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني"^(١) . فالشوكاني يذكر هنا صورة من صور الانتفات وهي الانتفات من الغيبة إلى الخطاب، ويبين الغرض البلاغي منه، وهو تنشيط السامع وإيقاظه لصرف الملل والكسل عنه، فيصل المطلوب إلى عقل السامع وقلبه بأقصى سرعة، وإن كان هذا الغرض ينطبق على جميع صور الانتفات والشوكاني هنا يوافق الزمخشري بل يأخذ بقوله في فائدة الانتفات البلاغية .

يقول السيوطي في الانتفات: "ومن محاسنه ما وقع في سورة الفاتحة، فإن العبد إذا ذكر الله تعالى وحده ثم ذكر صفاته التي كان كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال وآخرها" مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ المفيد أنه مالك الأمر كله في يوم الجزاء يجد نفسه حاملاً لا يقدر على دفعه على خطاب من هذا صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات"^(٢) . ويقول ابن الأثير في التعليق على الآيات: "فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب، لأن الحمد دون العبادة ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده؟ فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ " الحمد" لتوسط مع الغيبة في الخير، فقال: " الْحَمْدُ لِلَّهِ" ولم يقل: الحمد لك، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ" فخاطب بالعبادة إصراراً بها، وتقرباً منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها"^(٣) .

(١) المصدر نفسه: ج١/٤٥ .

(٢) الإتيان في علوم القرآن: ج٣/٢١٧ .

(٣) المثل السائر: ج٢/١٧٠ .

ومثاله في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاہُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِہَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (١) .

يقول الشوكاني "فتثير سحاباً" جاء بالمضارع بعد الماضي استحضاراً للصورة، لأن ذلك أدخل في اعتبار المعترين، ومعنى كونها تثير السحاب أنها تزعجه من حيث هو " فسقناه إلى بلد ميت" قال أبو عبيدة: سبيله فتسوقه، لأنه قال: " فتثير سحاباً" قبل النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع: الدلالة على التحقق" (٢). وهنا يريد الشوكاني بالمضارع بعد الماضي أي التكلم بعد الغيبة، إلى الانتقال من الغيبة إلى التكلم وهي صورة من صور الالتفات ووضح الغرض منها في قوله " استحضاراً للصورة، لأن ذلك أدخل في اعتبار المعترين" ويقصد بذلك تنشيط السامع وإيقاظاً له ليصل المعنى المراد إليه سريعاً.

ثم ذكر الصورة المقابلة للصورة السابقة من صور الالتفات وهي الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: "التعبير بالماضيين بعد المضارع" والغرض منها التحقق من وقوع ذلك الأمر وهو إحياء الأرض بعد موتها ليلفتنا إلى تلك الحقيقة ويقربها إلى عقولنا وأفهامنا وقلوبنا فنعتبر ونؤمن، يقول ابن الأثير: "وهو حكاية الحال التي يقع فيها إثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة" (٣) .

وفي البرهان: "عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم، لأنه أدخل في الاختصاص، وأدل عليه وأفخم" (٤) .

٢ - التوبيخ:

ذكر هذا الغرض من الالتفات على إحدى القراءات القرآنية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يُمْنَى ﴾ (٥) . قال الشوكاني: "قرأ الجمهور "ألم يكُ" بالتحنية على إرجاع الضمير إلى الإنسان، وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات

(١) فاطر: ٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/٤٠٦ .

(٣) المثل السائر: ج ٢/١٨١ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ج ٣/٣٢٠، وانظر الكشف: ج ٣/٦٢٤ .

(٥) القيامة: ٣٧ .

إليه توبيخاً له^(١) . فيكون التفات من الغيبة إلى الخطاب والغرض منه التوبيخ له على تكبره وكفره بعد أن كان نطفة لا تملك شيئاً.

٣ - التوبيخ والتفريع:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢) .

يقول الشوكاني: " هذا خطاب للذين في قلوبهم مرض بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتفريع"^(٣) . وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتفريع لهم، ويقول الزمخشري فيه: "قد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ليكون أبلغ في التوكيد"^(٤) .

فيكون الشوكاني وافق الزمخشري في الغرض من الالتفات فلعل الزمخشري يريد المبالغة في توكيد التوبيخ والتفريع لأولئك الذين في قلوبهم مرض لو تولوا الحكم فإنه يكون منهم التناحر والفساد، والمفهوم من كلمة المزيد عند الشوكاني التأكيد.

٤ - العناية:

كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥).

" وفي (أخرجنا به) التفات من الغيبة إلى التكلم إظهاراً للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه"^(٦) . وهنا صورة أخرى من صور الالتفات وهي من الغيبة إلى التكلم والغرض منها العناية بذلك المخلوق وملاحظة طريقة إنباته لما فيها من دلالة على قدرة الله سبحانه وتعالى من إعادة الخلق بعد الموت.

(١) فتح القدير: ج ٤٠٥/٥ .

(٢) محمد: ٢٢ .

(٣) فتح القدير: ج ٤٦/٥ .

(٤) الكشاف: ج ٢١٩/٤ .

(٥) الأنعام: ٩٩ .

(٦) فتح القدير: ج ١٨٥/٢ .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ... ﴾^(١). يقول الشوكاني: "فأخرجنا به) أي بالماء، والنكته في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع"^(٢).

والشوكاني هنا يوافق أبي السعود في أن الغرض من الالتفات هو كمال العناية ويقول أبو السعود: "أي بذلك الماء، والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة"^(٣).

٥ - التفخيم:

كما في قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ ﴾^(٤).

يبين الشوكاني الغرض من الالتفات فقال: "إنما قال: " واستغفر لهم الرسول" على طريقة الالتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول ﷺ^(٥). وهو التفات من التكلم إلى الخطاب، وفي الكشف: "لم يقل: واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً بشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبهها على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان"^(٦).

٦ - الترهيب:

كقوله تعالى: ﴿ قَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَيَايَ فَارْهَبُونَ ﴾^(٧). يقول الشوكاني: "نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال: (فياي فارهبون) أي إن كنتم راهبين شيئاً فياي فارهبون لا غيري"^(٨).

(١) فاطر: ٢٧ .

(٢) فتح القدر: ج ٤/٤١٤ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ١/٦٤٥ .

(٤) النساء: ٦٤ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٦٤٥ .

(٦) الكشف: ج ١/٤٦٠. وانظر من أسرار البلاغة في القرآن: ص ١٨ .

(٧) النحل: ٥١ .

(٨) فتح القدير: ج ٣/٢١٣ .

وفيه موافقة للزمخشري في أن الغرض هو زيادة الترهيب فقال في قوله تعالى: "فإياي فارهبون": نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغائب هو المتكلم، وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله: وإياه فارهبوه، ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم" (١).

٧- التحذير:

كما في قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (٢). وهو التفات من الغيبة إلى التكلم، يقول الشوكاني: "فاتقون" الخطاب للمستعجلين على طريق الالتفات وهو تحذير لهم من الشرك بالله" (٣). فجاء الالتفات من الغيبة إلى التكلم على طريق الأمر بغرض التحذير من الشرك، وذلك أنه أراد أن يشهدوا بوحدانيته تعالى وإنذارهم من أن يتخذوا آلهة أخرى.

٨- التهديد:

يكشف الشوكاني لنا الغرض أو الفائدة من الالتفات بعد أن يحدد صورة هذا الالتفات في قوله تعالى: ﴿ أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٤). إذ يقول: "قوله: (فإن تبتم) أي من الكفر، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب، قيل: وفائدة هذا الالتفات زيادة التهديد" (٥). ولعل الشوكاني ينقل هذا عن أبي السعود. (٦). ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٧). يقول الشوكاني: "قوله: (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) هذا التفات إلى مخاطبة الكفار تهديداً لهم ومبالغة في إدخال الروعة في قلوبهم، والمراد به عذاب الدنيا كيوم بدر وعذاب الآخرة" (٨). وهو التفات من الغيبة إلى المخاطبة بغرض التهديد والمبالغة فيه.

(١) الكشاف: ج ٢/ ٥٨٥.

(٢) النحل: ٢.

(٣) فتح القدير: ج ٣/ ١٨٦.

(٤) التوبة: ٣.

(٥) فتح القدير: ج ٢/ ٤٢٣.

(٦) تفسير أبي السعود: ج ٣/ ١٢٢.

(٧) الأنفال: ٣٥.

(٨) فتح القدير: ج ٢/ ٣٨٨.

٩ - الإعراض:

أورد هذا الغرض في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا... ﴾ (١). قال الشوكاني: "وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة إعراضاً عنهم، والمراد بالآيات: الآيات التي في الكتاب العزيز: أي وإذا تلا التالي عليهم آياتنا الدالة على إثبات التوحيد وإبطال الشرك حال كونها بينات: أي واضحات الدلالة على الطلاب" (٢).

ومثاله قوله تعالى: ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ، الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ (٣).

"فيختم الله على أفواههم ختماً لا يقدرُونَ معه على الكلام، وفي هذا التفات من الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن أفعالهم القبيحة مستدعية للإعراض عن خطابهم" (٤). فالغرض من الالتفات في الآيتين هو الإعراض عن الكفار وخطابهم.

١٠ - التنبيه:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ﴾ (٥). قال الشوكاني: "وإنما التفات إلى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة" (٦). التفات من الغيبة إلى التكلم للتنبيه على قدرة الله سبحانه في إحياء الزرع بالماء وإحياء الإنسان بعد موته، وهي بنفس المعنى مع الآيات التي كان فيها الغرض من الالتفات هو العناية، وهنا أراد التنبيه إلى تلك الأزواج المتشابهة من أصناف النبات المختلفة والتي تسقى بماء واحد.

(١) يونس: ١٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/ ٥٤٤ .

(٣) يس: ٦٤، ٦٥ .

(٤) فتح القدير: ج ٤/ ٤٥١ .

(٥) طه: ٥٣ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/ ٤٦٤ .

١١ - رد على المقالة الشنعاء:

في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ^(١) . "في قوله: (لقد جئتم شيئاً إدا) التفات من الغيبة إلى الخطاب، وفيه رد لهذه المقالة الشنعاء" ^(٢) . فهم قد قالوا قولاً عظيماً وثقيلاً، فأراد أن يلفتهم لعظم هذه المقالة وأثرها حتى أن الجماد يتشقق وتنهد الجبال وتسقط ، يقول الزمخشري في هذه الآية: "قوله: لقد جئتم -وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة- وهو الذي يسمى الالتفات في علم البلاغة -زيادة تسجيل عليهم بالجرأة على الله و التعرض لسخطه وتنبيه على عظم ما قالوا" ^(٣) . وكأنه يريد منهم رد تلك المقالة وعدم العودة لها ، وقد جعل الزركشي الغرض من الالتفات هو التوبيخ ويقول: "عدل عن الغيبة على الخطاب، للدلالة على أن قائل مثل قولهم، ينبغي أن يكون موبخاً ومنكراً عليه، ولما أراد توبيخهم على هذا أخبر عنه بالحضور فقال: (لقد جئتم)، لأن توبيخ الحاضر أبلغ في الإهانة له" ^(٤) ونستطيع أن نقول أن الآية فيها توبيخ لمن قال هذه المقالة وتنبيه لهم على عظمها، ورد لتلك المقالة لعظمها وشناعتها في حق الله سبحانه.

١٢ - الذم:

كقوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخِلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخِلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخِلَاقِهِمْ ﴾ ^(٥) . يقول الشوكاني: "شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب... والغرض من هذا التمثيل ذم هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار في الاستمتاع بما رزقهم الله" ^(٦) .

١٣ - المبالغة، أو المقت والتباعد: كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيئَةٍ ﴾ ^(٧) .

(١) مريم: ٨٨، ٨٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/٤٤٢ .

(٣) الكشاف: ج ٣/١٢٨، ١٢٩ .

(٤) البرهان في علوم القرآن : ج ٣/٣٣٠ .

(٥) التوبة: ٦٩ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/٤٨٠ .

(٧) يونس: ٢٢ .

نقل الشوكاني هذا الغرض عن سبقه من العلماء فقال: "وفي قوله: (وجرين بهم) التفات من الخطاب إلى الغيبة، جعل الفائدة فيه صاحب الكشاف للمبالغة، وقال الرازي: الانتقال من مقام الخطاب إلى مقام الغيبة في هذا المقام دليل المقمت والتبعيد"^(١). فهو قد تأثر بالزمخشري^(٢). وبالفخر الرازي^(٣).

ويقول الدكتور محمد أبو موسى: "وكأن نقل الحديث إلى الغيبة فيه معنى التشهير بهم وكأنه يروي قصتهم لغيرهم لأن هذه الطبائع العجيبة جدية بأن تذاق وتروى، ثم فيه لطيفة أخرى هي أنهم كانوا في مقام الخطاب كائنين في الفلك (كنتم في الفلك) فهم في مقام الشهود والوجود، ثم لما جرت بهم الريح ذهبوا بعيداً عن مقام الخطاب فلاءم هذه الحال طريق الغيبة"^(٤).

تلك أهم الأغراض البلاغية التي أفادها الالتفات كما وضحها الشوكاني في تفسيره وقد كان الشوكاني يذكر صورة الالتفات والغرض منه، أو يذكر كلمة التفات دون تحديد صورته مع ذكر الغرض، وأحياناً يذكر الصورة أو الالتفات دون أن يبين الغرض من الالتفات. كذلك ذكر خمس صور من صور الالتفات ولم يذكر الصورة السادسة وهي: الالتفات من الخطاب إلى التكلم لأنها لم يأت لها شاهد من القرآن، كما يقول الدكتور محمود السيد شيخون: "وهذه الصور توجد في القرآن الكريم، ما عدا الصورة الثالثة وهي الانتقال من الخطاب إلى التكلم، فلم اعثر لها على شاهد في القرآن الكريم"^(٥).

ثانياً: وضع الظاهر موضع المضمرة:

"لحظ البلاغيون أن دراسة وضع المظهر موضع المضمرة وعكسه، ودراسة الالتفات تتصل بباب المسند إليه لأنها من أحواله فألحقوها به، كما لاحظوا أن أساليبها مما لا تجري على مقتضى المقررات المتعارفة، وإنما هي ضروب من المخالفة، فترجموا لها بخروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر وألحقوا به أسلوب الحكيم لأنه ضرب من المخالفة"^(٦).

(١) فتح القدير: ج ٢/ ٥٥٠.

(٢) الكشاف: ج ٢/ ٣٥٦.

(٣) التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥٦/١٧.

(٤) خصائص التراكيب: ١٩٨.

(٥) من أسرار البلاغة في القرآن: ٨.

(٦) خصائص التراكيب: ١٨٧.

وقد ذكر الشوكاني هذا الأسلوب مبيناً الأغراض البلاغية المستفادة من استعماله ، ومن هذه الأغراض:

١ - المدح:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

قال الشوكاني: "المراد بالمتقين كل من ثبتت له صفة التقوى، وقيل : المراد من تقدم ذكره وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة، ووضع الظاهر موضع المضمرة مدحاً لهم ورفعاً من شأنهم" (٢) . فقد وضع الظاهر وهي كلمة المتقين موضع المضمرة وهو "بهم" ليمدح المتقين ويرفع من شأنهم.

وسماه أيضاً الثناء في قوله تعالى: ﴿ ... وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (٣) . يقول الشوكاني: "أي لئن صبرتم عن المعاقبة بالمثل فالصبر خير لكم من الانتصاف، ووضع الصابرين موضع الضمير، ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد" (٤) . حيث وضع الظاهر (الصابرين) موضع المضمرة (لكم) زيادة في الثناء والمدح.

٢ - التعظيم:

كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

يقول الشوكاني: "وجه الإظهار في قوله: (فإن الله) مع كون المقام مقام إضمار لقصد التعظيم أو التعميم" (٦) . فإن كان للتعظيم فهو لتعظيم الله وتعظيم ذلك الأمر، وإن كان للتعميم فالقصد تعميم عدم حب الله للكافرين على كل الكافرين بلا استثناء.

(١) آل عمران: ١١٥ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٥٠٤ .

(٣) النحل: ١٢٦ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/٢٥٦ .

(٥) آل عمران: ٣٢ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٤٥٢ .

٣ - تعظيم الأمر وتقييح فعلهم:

جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) . فقال: "فأنزلنا علي الذين ظلموا" هو من وضع الظاهر موضع المضمرة لنكتة، كما تقرر في علم البيان وهي هنا تعظيم الأمر عليهم وتقييح فعلهم" (٢) . وضع اسم الموصول محل الضمير عليهم العائد على (الذين ظلموا) الأولى ليبين قبيح فعلهم من ظلم و يعظم ذلك الأمر وهو إنزال الرجز عليهم.

٤ - التعيين والتقرير:

كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٣) . يقول الشوكاني: "قيل: والنكتة في وضع الظاهر موضع المضمرة زيادة التعيين والتقرير" (٤) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (٥) والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير، ومعنى جرى الأنهار من تحت الجنات أنها تجري تحت أشجارها وغرفها" (٦) فكان مقتضى الظاهر أن يقال "وعدهم الله" لدلالة الآية السابقة عليهم، لكنه عدل عن مقتضى الظاهر، وأتى بالاسم الظاهر محل الضمير لزيادة التقرير بالوعد من الله.

٥ - التهويل والتهديد:

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٧) . إذ قول الشوكاني: "والإظهار في قوله: "(فإن الله) مع كونه مقام الإضمار للتهويل عليهم والتهديد لهم" (٨) . فكان مقتضى الظاهر أن

(١) البقرة: ٥٩ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ١٣٦ .

(٣) يونس: ٤٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/ ٥٦٦ .

(٥) التوبة: ٧٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/ ٤٨٢ .

(٧) آل عمران: ١٩ .

(٨) فتح القدير : ج ١/ ٤٤٢ .

يقال: (فإنه سريع الحساب) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأظهر الاسم الشريف تهويلاً عليهم وتهديداً لهم.

٦ - التهديد والتخويف:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَحذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾^(١). "جعلت النفس في موضع الإضمار، وفي هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاته أعدائه"^(٢). كان مقتضى الظاهر أن يقال: (ويحذركم الله إياه) فعدل عن مقتضى الظاهر ووضع الظاهر (نفسه) مكانه للتهديد والتخويف من عقابه.

٧ - التوبيخ والإزراء:

كما يفيد قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾^(٣). أوضح الشوكاني ذلك فقال: "والمعنى: أن تكذبيهم ليس يرجع إليك فإنهم يعترفون لك بالصدق ولكن تكذبيهم راجع إلى ما جئت به، ولهذا قال: "ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون" ووضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة التوبيخ لهم والإزراء عليهم ووصفهم بالظلم لبيان أن هذا الذي وقع منهم ظلم بيّن"^(٤). كان المقام أن يقال: (ولكنهم بآيات الله يجحدون) ولكنه عدل عن ذلك وأظهر الاسم (الظالمين) لزيادة توبيخهم والإزراء عليهم وإظهار ظلمهم.

٨ - الاحتراز أو الإشعار بالعلة:

كما في قوله تعالى: ﴿ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾^(٥). يقول الشوكاني: "قوله (من رسله) أظهر محل الإضمار للاحتراز عن توهم اندراج الملائكة في الحكم أو الإشعار بعلة عدم التفريق بينهم"^(٦).

(١) آل عمران: ٢٨ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٤٥٠ .

(٣) الأنعام: ٣٣ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/١٤٤، ١٤٥ .

(٥) البقرة: ٢٨٥ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٤١٨ .

٩ - إظهار العلة الموجبة للنصر:

كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) . قال الشوكاني: قوله: (انصرنا على القوم الكافرين) هم جالوت وجنوده، ووضع الظاهر موضع المضمرة إظهاراً لما هو العلة الموجبة للنصر عليهم وهي كفرهم، وذكر النصر بعد سؤال تثبت الأقدام لكون الثاني هو غاية الأول (٢) .

فوضح كلمة القوم (الكافرين) بدلاً من الضمير (عليهم) لتوضيح العلة الموجبة للنصر عليهم وهي الكفر.

١٠ - بيان شدة الفساد:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) . يقول الشوكاني: "إن كانت اللام للجنس فهم (اليهود) داخلون في ذلك دخولاً أولياً، وإن كانت للعهد فوضع الظاهر موضع المضمرة لبيان شدة فسادهم وكونهم لا يتفكرون عنه" (٤) .

١١ - تسجيل الظلم على الظالمين:

وضح الشوكاني ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴾ (٥) . يقول: "وضع الظاهر موضع المضمرة تسجيلاً عليهم بالظلم" (٦) . فمقتضى الظاهر أن يقال: (ولا تزدهم إلا ضلالاً) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وأتى بالاسم الظاهر (الظالمين) محل الضمير لتسجيل الظلم عليهم ووصمهم به.

(١) البقرة: ٢٥٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٧٧/٢ .

(٣) المائدة: ٦٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٧٧/٢ .

(٥) نوح: ٢٤ .

(٦) فتح القدير: ج ٣٥٨/٥ .

١٢ - قصد الدلالة على الشيء:

كما يفيد قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١). فقد وضح الفائدة من الإظهار في موضع الاضمار بقوله: "وقوله (للكافرين) من وضع الظاهر موضع المضمرة، أي فإن الله عدو لهم لقصد الدلالة على أن هذه العداوة موجبة لكفر من وقعت منه" (٢).

١٣ - زيادة البيان:

كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَتَمُودَ ﴾ (٣).

قال: "وضع الظاهر موضع المضمرة لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً تعليلاً للدعاء عليهم بقوله: (ألا بعداً لتمود)" (٤). والشوكاني ينقل هذا المعنى عن أبي السعود، يقول أبو السعود: "وضع موضع الضمير لزيادة البيان وصرح بكفرهم مع كونه معلوماً مما سبق من أحوالهم تقبيحاً لحالهم وتعليلاً لاستحقاقهم بالدعاء عليهم بالبعد والهلاك في قوله تعالى: ﴿ أَلَا بُعْدًا لَتَمُودَ ﴾" (٥).

١٤ - استجلاب الشفقة:

كما في قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ (١). قال الشوكاني: "قيل ووجه الإظهار في لا تقتلوا يوسف استجلاب شفقتهم عليه" (٢). فمقتضى الظاهر أن يقال: (لا تقتلوه) لكنه عدل عن مقتضى الظاهر وجاء بالاسم الظاهر مكان المضمرة لاستجلاب الشفقة عليه لعلهم يعدلوا عن قتله. ولعله نقل ذلك عن أبي السعود أيضاً فقد جعله لاستجلاب الشفقة أو استعظام القتل. (٣).

(١) البقرة: ٩٨ .

(٢) فتح القدير: ج ١/١٧١ .

(٣) هود: ٦٨ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/٦٤١ .

(٥) تفسير أبي السعود: ج ٣/٣٣١ .

(٦) يوسف: ١٠ .

(٧) فتح القدير: ج ٣/١١ .

(٨) تفسير أبي السعود: ج ٣/٣٦٩ .

ثالثاً: وضع الضمير موضع الظاهر:

مثل ضمير الشأن وضمير القصة وقد بين الشوكاني أهمية هذا الضمير نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) . يقول الشوكاني: "يجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه" (٢) .

أما ضمير القصة ذكره في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (٣) . قال الشوكاني: "والضمير في (فإذا هي) للقصة أو مبهم يفسره ما بعده، وإذا للمفاجأة، وقيل: إن الكلام تم عند قوله هي، والتقدير: فإذا هي يعني القيامة بارزة واقعة كأنها آتية حاضرة، ثم ابتدأ فقال: شاخصة أبصار الذين كفروا" (٤) .

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا لَأَتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٥) . قال الشوكاني: "التأنيب على الأبصار أو القصة أي: فإن الأبصار لا تعمي، أو فإن القصة لا تعمي الأبصار أي: أبصار العيون (ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) أي ليس الخلل في مشاعرهم وإنما هو عقولهم أي: لا تدرك عقولهم مواطن الحق ومواقع الاعتبار" (٦) .

رابعاً: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

وهي إحدى صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر "وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ وأؤكد في تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها" (٧) .

(١) الإخلاص: ١ .

(٢) فتح القدير: ج ٦١٩/٥ .

(٣) الأنبياء: ٩٧ .

(٤) فتح القدير: ج ٥٣٢/٣ .

(٥) الحج: ٤٦ .

(٦) فتح القدير: ج ٥٧٢/٣ .

(٧) المثل السائر: ج ١٨٥/٢ .

وقد تناول الشوكاني هذا الأسلوب في تفسيره وبين السر البلاغي أو الغرض البلاغي له، ويغلب ذكر هذا الأسلوب أو هذه الصورة كما يقول الشوكاني في تفسيره في الأمور المهولة التي تثير الرعب في القلوب، وخاصة في الأمور التي تتحدث عن الغيب كمشاهد يوم القيامة أو عذاب النار، لذا نجده يحدد السر البلاغي أو الفائدة المرجوة من هذا الأسلوب في معظم شواهد بقوله: جاءت للتنبيه على تحقق وقوع الفعل، وأنه حاصل لا محالة في ذلك ولا يرتابه أدنى شك" (١) .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) . يقول الشوكاني: "الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما ذكره علماء المعاني" (٣) .

وقوله تعالى: ﴿ آتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (٤) . عبر عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقق وقوعه" (٥) .

وفي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (٦) .

إذ يقول الشوكاني: "أي برز العباد لله أو الظالمون كما يفيد السياق أي: ظهروا من قبورهم، أو ظهر من أعمالهم ما كانوا يكتُمونه، والتعبير على المستقبل بلفظ الماضي للتنبيه على تحقق وقوعه" (٧) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ (٨) . يقول الشوكاني في توضيح الصورة قوله: (وقضي الأمر) عطف على

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، ٦٨٥ .

(٢) الأنعام: ٢٧ .

(٣) فتح القدير: ج٢/١٤٠، ١٤١ .

(٤) النحل: ١ .

(٥) فتح القدير: ج٣/١٨٥ .

(٦) إبراهيم: ٤٨ .

(٧) فتح القدير: ج٣/١٤٩ .

(٨) البقرة: ٢١٠ .

يأتيهم داخل في حيز الانتظار، وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة، أي: وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم" (١) .

وفي آية أخرى جعل الغرض من التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي هو التغليب أو التنبيه على تحقيق وقوعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) . فعبر بالماضي مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيهاً على تحقق الوقوع كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله" (٣) . ويعلق الدكتور محمد علوان على كلام الشوكاني بقوله: "تجده يعبر عن هذا الأسلوب بالتغليب، وربما قصد بذلك المعنى اللغوي للتغليب وهو الترجيح، أو حتى الاصطلاحي... فإن كليهما سواء وبينهما التقاء في المفهوم العام فالتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي هو من باب ترجيح أحد المغلوبين" (٤) .

خامساً: التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل:

وهي عكس الصورة السابقة في رابعاً يقول ابن الأثير: "اعلم أن الفعل المستقبل إذا أتى به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذلك لأن الفعل المستقبل يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك في الفعل الماضي" (٥) . وقد أوضح الشوكاني هذه الصورة في تفسيره للآيات القرآنية وبين المعاني البلاغية لها.

في مثل قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ (٦) .

(١) فتح القدير: ج ١/٢٩٢ .

(٢) البقرة: ٤ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٦٦ .

(٤) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٦٨٦ .

(٥) المثل السائر: ج ٢/١٨١ .

(٦) البقرة: ١٤٢ .

"قيل: إن (سيقول) بمعنى قال، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته واستمراره عليه" (١) . فالتعبير عنه بلفظ المستقبل للدلالة على أن هناك سفهاء على مدار الحياة سيرددون تلك المقالة ويطعنوا في الدين ويلمزوا عليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...﴾ (٢) . يقول الشوكاني: "قوله: (إذ يرفع) هو حكاية لحال ماضية استحضاراً لصورتها العجيبة" (٣).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ مِمَّا يَشَاءُ﴾ (٤) . قيل: إن المضارع هنا موضوع موضع الماضي... وظاهر هذا التركيب أن الله سبحانه علمه مما قضت به مشيئته وتعلقت به إرادته" (٥) .

وذكر ذلك دون أن يقول عبر عن الماضي بلفظ المستقبل، بل يفهم ذلك من كلامه كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٦) . يقول الشوكاني: "وإنما قال: (الله يستهزئ بهم) لأنه يفيد التجدد وقتاً بعد وقت، وهو أشد عليهم وأنكأ لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الاسمية، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتاً بعد وقت، والمتجددة حيناً بعد حين أشد على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر لأنه يألفه ويوطن نفسه عليه" (٧) . فقد استخدم المستقبل (يستهزئ) وكان مقتضى الحال أن يقال: (استهزأ) بالماضي .

وذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (٨) . وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل" (٩) . فهنا يعدل عن الماضي لكي

(١) فتح القدير: ج ١ / ٢١٣ .

(٢) البقرة: ١٢٧ .

(٣) فتح القدير: ج ١ / ٢٠٣ .

(٤) البقرة: ٢٥١ .

(٥) فتح القدير: ج ١ / ٣٦٣ .

(٦) البقرة: ١٥ .

(٧) فتح القدير: ج ١ / ٧٦ .

(٨) الحج: ٦٣ .

(٩) فتح القدير: ج ٣ / ٥٧٩ .

لا يبقى الصورة ثابتة غير متحركة توحى بالوقوع والانتها، بل يريدها صورة متجددة متحركة تعطي جواً من النشاط والحيوية ومشهداً يحرك النفس فتتفكر في مظاهر خلق الله سبحانه في هذا الكون ولذا قال: وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾^(١). يقول الشوكاني: "أي أتممه وجاء بصيغة الاستقبال مع كونه قال لهم هذه المقالة بعد تجهيزهم للدلالة على أن ذلك عادته المستمرة"^(٢).

يتضح مما سبق أن الشوكاني قد تحدث عن هذه الصورة وبين الفائدة البلاغية من كل صورة تناولها وكأن أغلبها في: إفادة تجدد الحدث أو استحضار الصورة، والدلالة على الاستمرار والاستدامة والعادة المستمرة والدائمة وجميعها متقاربة المعنى تقريباً.

سادساً: التغليب:

وهو من غلبه: قهره، وغلب على صاحبه: حُكِمَ عليه بالغلبة، وتغلب على بلد كذا: استولى عليه قهراً، وغلبت أنا عليه تغليباً"^(٣).

يقول الزركشي: "وحقيقته إعطاء الشيء حكم غيره، وقيل ترجيح أحد المغلوبين على الآخر، أو إطلاق لفظه عليها، إجراءً للمختلفين مجرى المتفقين"^(٤).

ذكر المبرد أمثلة للتغليب عن العرب فقال: الأسودان: التمر والماء، الأحمران: اللحم والنبيد، وقالوا: الأحامرة: اللحم والنبيد والزعفران، والأبيضان: الشحم واللبن، والأطيبان: الطعام والنكاح، والحجران: الذهب والفضة، والعصران: الغداة والعشي"^(٥).

ويعلق على قول الفرزدق:

لنا قمرها والنجوم الطوالع

أخذنا بأفاق السماء عليهم

(١) يوسف: ٥٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٤٧/٣ .

(٣) اللسان: (غلب) .

(٤) البرهان في علوم القرآن: ج ٣٠٢/٣ .

(٥) المقتضب، المبرد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. ص ٣٢٦ .

يريد الشمس والقمر: لأنهما قد اجتمعا في قولك: (النَّيِّرَانِ)، وغُلَّب الاسم المذكور، وإنما يُؤثر في مثل هذا الخفة، وقالوا العمران لأبي بكر وعمر... فإن قال قائل: فلم لم يقولوا: أبوي بكر، وأبو بكر أفضلهما؟ فلان عمر اسم مفرد، وإنما طلبوا الخفة^(١).

وقد حدد الشوكاني صوراً للتغليب والفائدة البلاغية منها وذلك في آيات كثيرة من القرآن الكريم مظهراً البلاغة القرآنية في كتاب الله، ومن هذه الصور:

١- تغليب العاقل على غير العاقل:

"وهذا اللون من التغليب أمثلته في القرآن كثيرة لا يمكن حصرها، والمراد به أن يأتي التعبير بغير العاقل بلفظ العاقل تغليباً للعقلاء على غيرهم"^(٢). كما في قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣). يوضح الشوكاني المقصود بكلمة (العالمين) ويذكر آراء العلماء في ذلك فيقول: "العالمين: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى قاله قتادة، وقيل: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، وقال ابن عباس: العالمون: الجن والإنس، وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عن يعقل وهم أربعة أمم: الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل، حكى هذه الأقوال القرطبي في تفسيره وذكر أدلتها، وقال: إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود... وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجوده كذا قال الزجاج وقال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة، انتهى، وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليباً للعقلاء على غيرهم"^(٤).

فهنا غلب العقلاء وهم كما قال أبو عبيدة: الإنس والجن والملائكة والشياطين، على غير العقلاء وهم عالم الحيوان وعالم النبات وغيره من العوالم الأخرى.

(١) الكامل في اللغة والأدب، المبرد، تحقيق عبد الرحمن هندواوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م ج١/١٤٥، ١٤٥.

(٢) أسلوب التغليب في القرآن الكريم، محمود عبد العظيم صفا، مطبعة الأمانة، مصر، ط١، ١٩٨٣. ص ١١٣.

(٣) الفاتحة: ٢.

(٤) فتح القدير: ج١/٤٤.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ﴾ (١). "اختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء والظاهر الأول، لأن عرض نفس الأسماء غير واضح وعرض الشيء إظهاره، ومنه عرض الشيء للبيع، وإنما ذكر ضمير المعروضين تغليباً للعقلاء على غيرهم" (٢). فالضمير في (عرضهم) وهو لجمع المذكر تغليب للعقلاء على غير العقلاء والجمادات ولم يقل عرضها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (٣). يقول الشوكاني: "لما وضعت الأعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ووصفت بما يوصفون به... والمعنى: أنها إذا ذلت رقابهم ذلوا، فالإخبار عن الرقاب إخبار عن أصحابها" (٤).

ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ (٥). فالضميران لما في السماوات والأرض بتغليب العقلاء على غيرهم، وما بين أيديهم وما خلفهم عبارة عن المتقدم عليهم والمتأخر عنهم، أو عن الدنيا والآخرة وما فيهما" (٦).

٢ - تغليب غير العاقل على العاقل:

"وهذا التعبير شائع في كلام العرب أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطي حكماً من أحكامه إظهاراً لأثر الملابس المقارنة" (٧).

وفي البحر المحيط: "أن ما لا يعقل إذا اختلط بمن يعقل جاز أن يعبر عن الجميع بما" (٨).

(١) البقرة: ٣١ .

(٢) فتح القدير ج ١/١٠٣ .

(٣) الشعراء: آية ٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٤/١١٥ .

(٥) البقرة: ٢٥٥ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٣٧١ .

(٧) أسلوب التغليب: ١٢٠ .

(٨) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، طبعة دار الفكر، ج ١/٣٦٣ .

ذكر الشوكاني هذه الصورة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(١). يقول الشوكاني: "عبر بما تغليباً لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم أو لتزليل العقلاء منزلة غيرهم"^(٢). فقد استخدم (ما)الموضوعة لغير العاقل وذلك على سبيل التغليب.

٣- تغليب المذكر على المؤنث:

وقد ذكر الشوكاني هذه الصورة مرة بلفظ المذكر على المؤنث، ومرة بلفظ الرجال على النساء، كما في الأمثلة التالية:

في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَعْرَضُ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾^(٣). يقول الشوكاني: "أي عن هذا الأمر الذي جرى واكتمه ولا تتحدث به، ثم أقبل عليها بالخطاب فقال: (استغفري لذنبك) الذي وقع منك (إنك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) أي من جنسهم، والجملة تعليل لما قبلها من الأمر بالاستغفار، ولم يقل من الخاطئات تغليباً للمذكر على المؤنث"^(٤)

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتُ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾^(٥). قال الشوكاني: "يجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة، وقال: (من القانتين) ولم يقل: (من القانتات) لتغليب الذكور على الإناث"^(٦). فقد "غلب المذكر على المؤنث تكريماً لها، وإبرازاً لجدها واجتهادها في العبادة حتى بلغت في ذلك مبلغ الرجال من العلم بشريعة الله والعمل لها، فلما اتخذت طريق الرجال الشاق في العبادة خلع عليها أوصاف الرجال العابدين القانتين"^(٧). فقال: (وكانت من القانتين). وقال في ذلك ابن يعقوب المغربي في مواهب الفتح في شرح تلخيص المفتاح: "لما اشترك المذكر والمؤنث في صحة الوصف بالقنوت

(١) آل عمران: ١٠٨ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٤٩٩ .

(٣) يوسف: ٢٩ .

(٤) فتح القدير ، ج ٣/٢٥ .

(٥) التحريم: ١٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٥/٣٠٦ .

(٧) فن البلاغة، د. عبد القادر حسين، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤م . ص ٣٢٦ .

غلب جانبه على جانبها فاستعملت صيغته المختصة به في مكان صيغتها فالتغليب هنا أوجب استعمال الصيغة مكان أخرى مع الاشتراك في مادة اللفظ والمعنى^(١) .

وكما ذكرنا من قبل جعل تغليب الرجال على النساء، كما في قوله تعالى: ﴿ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٢) . إذ يقول: " إن معنى الآية: إذا سلمتم ما آتيتم من إرادة الاسترضاع، أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي وكان ذلك عن اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر، وعلى هذا فيكون قوله:(سلمتم) عاماً للرجال والنساء تغليبا^(٣) . فغلب الرجال على النساء لقيومة الرجل على المرأة وسيادته في البيت.

٤ - تغليب الأب على الأم:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْأَبَوِيَّةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾^(٤) . فالمراد بالأبوين الأب والأم والتنشئة على لفظ الأب للتغليب^(٥) . وهو من تغليب الأشهر على غيره لأن الأب أشهر من الأم.

٥ - تغليب الموجودين على غير الموجودين:

وضح الشوكاني ذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾^(٦) . فقال: "المراد بالناس: الموجودون عند الخطاب من بني آدم، ويدخل من سيوجد بدليل خارجي وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون، أو تغليب الموجودين على من لم يوجد كما غلب الذكور على الإناث في قوله:(اتقوا ربكم) لاختصاص ذلك بجمع المذكر"^(٧) .

فذكر هنا تغليب الموجودين على غير الموجودين وتغليب المذكر على المؤنث وهي صورة ذكرناها من قبل.

(١) شروح التلخيص، التفتازاني، دار الإرشاد الإسلامي، بيروت، ج ٢/٥٢ .

(٢) البقرة: ٢٣٣ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٣٣٨ .

(٤) النساء: ١١ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٥٧٨ .

(٦) النساء: ١ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٥٥٨ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١) . وإنما عبر بالماضي مع أنه لم ينزل إذ ذاك إلا البعض لا الكل تغليبا للموجود على ما لم يوجد، أو تنبيهاً على تحقق الوقوع كأنه بمنزلة النازل قبل نزوله (٢) .

وقد ذكرنا هذه الآية من قبل في صورة التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي على أن التغليب غرض من أغرض هذا الأسلوب. ونذكره هنا في صورة تغليب الموجودين على غير الموجودين كما ذكره أيضاً الزمخشري (٣) .

٦- تغليب الكثير على القليل:

أورده الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ (٤) . يقول الشوكاني "لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً تغليبا للملائكة الذين هم ألوف مؤلفة على إبليس الذي هو فرد واحد بين أظهرهم" (٥) . فغلب الملائكة على إبليس بسبب الكثرة "لأنه كان جنياً واحداً بين ألوف من الملائكة، مغموراً بهم، فغلبوا عليه في قوله: فسجدوا، ثم استثنى منهم استثناء واحد منهم" (٦) .

٧- تغليب الإنس على الجن:

كما في قوله تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ (٧) .

قال الشوكاني: "ظاهره أن الله يبعث في الدنيا إلى الجن رسلاً منهم كما يبعث إلى الإنس رسلاً منهم، وقيل: معنى منكم، أي ممن هو مجانس لكم في الخلق والتكليف... وقيل: إنه من باب تغليب الإنس على الجن، كما يغلب الذكر على الأنثى" (٨) .

(١) البقرة: ٤ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٦٦ .

(٣) الكشاف: ج ١/٤٣ .

(٤) البقرة: ٣٤ .

(٥) فتح القدير: ج ١/١٠٥ .

(٦) الكشاف: ج ١/١٢٠ .

(٧) الأنعام: ١٢٠ .

(٨) فتح القدير: ج ٢/٢٠٨ .

٨- تغليب الإثم على الخطيئة:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا ﴾ (١) .

فقوله: (ثم يرم به بريئاً) توحيد الضمير لكون العطف بأو، أو لتغليب الإثم على الخطيئة^(٢) . وتغليب الإثم على الخطيئة لأن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد (أو) لأن الخطيئة الصغيرة، والإثم الكبيرة^(٣) . ويقول الزمخشري: "لأنه بكسب الإثم آثم، وبرمي البريء باهت، فهو جامع بين الأمرين"^(٤) .

سابعاً: وضع المفرد موضع الجمع:

وهو من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، حيث أن المتكلم جعل الجمع كالشيء الواحد لشدة الاتصال والتماسك لا ينفصل أحدهما عن الآخر ولا يحدث بينهما تمايز أو افتراق، وهناك علل بلاغية أخرى ترجع إلى كل مثال على انفراد^(٥) .

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ (٦) .

يوضح الشوكاني هنا هذه الصورة فيقول: "قوله: (أول كافر به) إنما جاء به مفرداً ولم يقل كافرين حتى يطابق ما قبله، لأنه وصف لموصوف محذوف مفرد اللفظ متعدد المعنى، نحو فريق أو فوج... فيكون هذا المفرد قائماً مقام الجمع"^(٧) .

يقول الفراء: "فوحّد الكافر وقبله جمع وذلك من كلام العرب فصيح جيد في الاسم إذا كان مشتقاً من فعل، مثل الفاعل والمفعول، ويراد به ولا تكونوا أول من يكفر فتحذف (من) ويقوم

(١) النساء: ١١٢ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٦٨٥ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٦٨٥ .

(٤) الكشاف: ج ١/٤٨٩ .

(٥) من بلاغة القرآن، علوان ١٠٤ .

(٦) البقرة: ٤١ .

(٧) فتح القدير: ج ١/١١٦ .

الفعل مقامها فيؤدي الفعل عن مثل ما أدت (من) عنه من التأنيث والجمع وهو في لفظ توحيد^(١) .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً... ﴾^(٢) . أي نخرجكم من بطون أمهاتكم طفلاً: أي أطفالاً، وإنما أفراده إرادة للجنس الشامل للواحد والمتعدد^(٣) . قال الزجاج إن طفلاً "في معنى أطفال ودل عليه ذكر الجماعة، وكان طفلاً يدل على معنى: ويخرج كل واحد منكم طفلاً"^(٤) .

ويقول ابن جني في سبب استخدام المفرد بدلاً من الجمع هنا لأنه (موضع إضعاف للعباد وإقلال لهم، فكان لفظ الواحد لقلته أشبه بالموضوع من لفظ الجماعة، لأن الجماعة على كل حال أقوى من الواحد"^(٥) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ... ﴾^(٦) .

يقول الشوكاني: "أفراد الضمير في قوله: (آمن بالله) مع رجوعه إلى كل المؤمنين لما أن المراد ببيان إيمان كل فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع"^(٧) .

وكقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾^(٨) . يقول الشوكاني: "وإنما أخبر عن قوله: (بعضكم) بقوله: (عدو) مع كونه مفرداً لأن لفظ (بعض) وإن كان معناه محتملاً للتعدد فهو مفرد، فروعي جانب اللفظ وأخبر عنه بالمفرد، وقد يراعي المعنى فيخبر عنه بالمتعدد، وقد يجاب بأن (عدو) وإن كان مفرداً فقد يقع موقع المتعدد"^(٩) .

(١) معاني القرآن للفراء: ج ١/٣٢، ٣٣ .

(٢) الحج: ٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/٥٤٤ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ج ٣/٣٣٥، وانظر فتح القدير: ج ٣/٥٤٤ .

(٥) المحتسب، ابن جني، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: ج ١/٢٠٢، ج ٢/٢٦٧ .

(٦) البقرة: ٢٨٥ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٤١٧ .

(٨) البقرة: ٣٦ .

(٩) فتح القدير: ج ١/١٠٨ .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (١) . قال الشوكاني في قوله: "لكم عدو" أي أعداء، وأفرده لكونه اسم جنس، أو لتشبيهه بالمصادر" (٢) . فاستخدم كلمة عدو بدلاً من الجمع أعداء فهم بجماعتهم أعداء للإسلام والمسلمين على اختلاف نوع كفرهم من يهود أو نصارى أو مجوس أو غيرهم فلا اختلاف بينهم على عدا الإسلام فصاروا بمجموعهم عدو واحد لذا عبر عنهم بالمفرد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ (٣) . أي لو أن جميع ما في الأرض من الشجر أقلام، ووجد الشجرة لما تقرر في علم المعاني أن استغراق المفرد أشمل، فكأنه قال: كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد برئت أقلاماً" (٤) . فقوله (استغراق المفرد أشمل) وتوحيد الشجرة أي وضع المفرد موضع الجمع وهو ينقل ذلك عن علم المعاني للدلالة على أنها صورة من صور علم المعاني.

ثامناً: وضع الجمع موضع المفرد:

كما يفيدته قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ (٥) . قال الشوكاني: "المراد بالناس هنا نعيم بن مسعود... وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم" (٦) . فقد وضع الجمع وهي كلمة (الناس) موضع المفرد وهو (نعيم بن مسعود) فهو واحد من الناس فجاز وضع الجمع موضع المفرد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ... ﴾ (٧) . يقول الشوكاني: في جعل (المساجد) جمعاً أنه "يحتمل أن يراد بالجمع المسجد الحرام خاصة وهذا جائز فيما كان من أسماء الأجناس" (٨) . وهذا ما ذهب إليه الفراء حيث يقول: "وهو يعني المسجد الحرام وحده، وقرأها مجاهد وعطاء بن أبي رباح: (مسجد الله)، وربما ذهبت العرب

(١) الكهف: ٥٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/٣٦٩ .

(٣) لقمان: ٢٧ .

(٤) فتح القدير ج ٤/٢٩١ .

(٥) آل عمران: ١٧٣ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٥٣٧ .

(٧) التوبة: ١٧ .

(٨) فتح القدير: ج ٢/٤٣٥ .

بالواحد إلى الجمع، وبالجمع إلى الواحد، ألا ترى الرجل على البرذون فتقول: قد أخذت في ركوب البراذين، وترى الرجل كثير الدراهم فتقول: إنه لكثير الدراهم، فأدى الجمع عن الواحد، والواحد عن الجمع" (١) .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢) . أي: بل يحسدون الناس، يعني اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والنصر وقهر الأعداء" (٣) . فلو أخذنا بالرأي الأول أنهم يحسدون النبي فقط فيكون من وضع الجمع (الناس) موضع الفرد (النبي) يقول الألويسي: " والمراد بالناس: الرسول ﷺ ، وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع وهو واحد لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقاً في الجمع العظيم" (٤) .

تاسعاً: وضع المفرد موضع المثني:

كما في قوله تعالى عندما سأل فرعون موسى: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (٥) . أي قال فرعون لهما: فمن ربكما؟ فأضاف الرب إليهما ولم يصفه إلى نفسه لعدم تصديقه لهما ولجده للربوبية، وخص موسى بالنداء لكونه الأصل في الرسالة" (٦) . مع كونه وجه الخطاب إليهما أي موسى وهارون وزيره، يقول الفراء في ذلك: "يكلم الاثنين ثم يجعل الخطاب لواحد، لأن الكلام إنما يكون من الواحد لا من الجميع، ومثله مما جعل الفعل على اثنين وهو لواحد" (٧) . فهو يريد أن فرعون خص موسى بالكلام لأن موسى هو من كان يكلم فرعون ويحاوره مع وجود هارون.

وفي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ (٨) .

(١) معاني القرآن للفراء: ج٤٢٦، ١٤٢٧ .

(٢) النساء : ٥٤ .

(٣) فتح القدير ج١/٦٣٩ .

(٤) روح المعاني، الألويسي: ج١/٢٦٥ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(٥) طه: ٤٩ .

(٦) فتح القدير: ج٣/٤٦٢ .

(٧) معاني القرآن: ج٢/١٨٠ .

(٨) ق: ١٧ .

قال الشوكاني: "إنما قال: (قعيد) ولم يقل قعيدان، وهما اثنان، لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثاني عليه"^(١). وهذا ما قال به الزجاج.^(٢) . فجعل المفرد (قعيد) موضع المثني (قعيدان) .

وكذلك في وقوله تعالى: ﴿ فَآتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) . قال الشوكاني: "ووجد الرسول هنا ولم يثنه... لأنه مصدر بمعنى رسالة، والمصدر يوحد... وقيل: إنهما لما كانا متعاضدين متساندين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد"^(٤) . فكان الحال أن يقول: (إننا رسول رب العالمين) فوضع المفرد موضع المثني فقد جاء برسالة واحدة وبدعوة واحدة. يقول الزمخشري: "جعل ههنا بمعنى الرسالة فجازت التسوية فيه إذ وصف به بين الواحد والتثنية والجمع... ويجوز أن يوحد لأن حكمهما لتساندهما واتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما لذلك وللأخوة كان حكماً واحداً فكأنهما رسول واحد أو أريد أن كل واحد منا"^(٥) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴾^(٦) يقول الشوكاني في سبب استخدام كلمة (يرضوه) للمفرد بدل (يرضوهما) للمثني - وهي التي تقبل في السياق -: "وإفراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الإلهي بإفراده بالذكر، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله وإرضاء الله إرضاء لرسوله، أو المراد الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك"^(٧) .

عاشراً: وضع المثني موضع المفرد:

جاءت هذه الصورة في قوله تعالى: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾^(٨) . ففي قوله: (يخرج منهما) "إنما يخرج ذلك من المالح لا من العذب، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد

(١) فتح القدير: ج ٩١/٥ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ج ٣٧/٥ .

(٣) الشعراء: ١٦ .

(٤) فتح القدير: ج ١١٧/٤ .

(٥) الكشاف: ج ٣٥٣/٣ .

(٦) التوبة: ٦٢ .

(٧) فتح القدير: ج ٤٧٦/٢ .

(٨) الرحمن: ٢٢ .

خرج منهما" (١) . فمنهما دلت على المثني مع أن خروج اللؤلؤ والمرجان يكون من المالح وهو مفرد، فوضع المثني موضع المفرد، فأراد يخرج من أحدهما.

قال الزجاج كما نقل الشوكاني: "إنما يخرج من البحر الملح لأنه قد ذكرهما وجمعهما، فإذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما" (٢) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْنَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (٣) . استخدم المثني (قريتين) بدل (إحدى القريتين) يقول الشوكاني موضحاً ذلك: "وظاهر النظم أن المراد رجل من إحدى القريتين عظيم الجاه واسع المال مسودّ في قومه، والمعنى: أنه لو كان قرآناً لنزل على رجل عظيم من عظماء القريتين" (٤) .

وفي قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ (٥) . يقول الشوكاني: "جعل الدعوة ها هنا مضافة إلى موسى وهارون، وفيما تقدم أضافها إلى موسى وحده، فقبل: إن هارون كان يؤمن على دعاء موسى فسمي هاهنا داعياً، وإن كان الداعي موسى وحده، ففي أول الكلام أضاف الدعاء إلى موسى لكونه الداعي ، وها هنا أضافه إليهما تنزيلاً للمؤمنين منزلة الداعي" (٦) . يفهم من كلام الشوكاني أنه إذا كان موسى هو الداعي، فإنه هنا قد وضع المثني وهي (دعوتكما) موضع المفرد التي هي (دعوتك) لتشمل الإجابة الإثنتين موسى وهارون لأنهما يحملان دعوة واحدة.

الحادي عشر: وضع المثني موضع الجمع :

وهذه الصورة نحو قولهم: (لييك وسعديك) فليس المراد هنا إجابتين اثنتين، ولا اسعادتين اثنتين، ألا ترى أن الخليل فسره بقوله : كلما كنت في أمر ودعوتني له أجبتك إليه وساعدتك عليه فقوله: (كلما) يؤكد ما نحن عليه" (٧) .

(١) فتح القدير: ج ١٦١/٥ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه : ج ٥ - ٧٩ .

(٣) الزخرف: ٣١ .

(٤) فتح القدير: ج ٦٥٧/٤ .

(٥) يونس: ٨٩ .

(٦) فتح القدير ج ٥٩٢/٢ .

(٧) المحتسب : ج ٣٩٢/٢ .

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ (١) . قال الشوكاني: "أي رجعتين مرة بعد مرة، وانتصابه على المصدر، والمراد بالنتنية التكثير، كما في لبيك وسعديك، أي رجعة بعد رجعة وإن كثرت، ووجه الأمر بتكرير النظر على هذه الصفة أنه قد لا يرى ما يظنه من العيب في النظرة الأولى ولا في الثانية" (٢) .

وكما في قوله تعالى: ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَمِاسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٣) . يقول الشوكاني: "وإنما قال سبحانه: (مرتان) ولم يقل: طلقتان، إشارة إلى أنه ينبغي أن يكون الطلاق مرة بعد مرة، لا طلقتان دفعة واحدة" (٤) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (٥) . يقول الشوكاني في قوله: (فأصلحوا بين أخويكم) يعني كل مسلمين تخاصما وتقاتلاً، وتخصيص الإثنين بالذكر لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوقهما بطريق الأولى" (٦) .

يبين الشوكاني أنه استخدم الاثنين وأورد بهم الجماعة، فلفظ التنثية يأتي ويراد به الجماعة. وهذا ما وضحه الزمخشري بقوله: "فإن قلت: لم خص الاثنين بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزم المصلحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأن الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين" (٧) .

وبه قال ابن جني أن: "لفظها لفظ التنثية ومعناها الجماعة، أي كل اثنين فصاعداً اقتتلا فأصلحوا بينهما ألا ترى أن هذا حكم عام في الجماعة، وليس يختص به اثنان مقصودان" (٨) .

(١) الملك: ٤ .

(٢) فتح القدير: ج ٣٠٩/٥ .

(٣) البقرة: ٢٢٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٣٢٦/١ .

(٥) الحجرات: ١٠ .

(٦) فتح القدير: ج ٧٧/٥ .

(٧) الكشف ج ٢٥٥/٣ .

(٨) المحتسب ج ٢٧٨/٢ .

الثاني عشر: وضع الجمع موضع المثني:

وهي إحدى صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وقد تحدث عنه الشوكاني في آيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾^(١) . إذ يقول: "وقوله: (اهبطوا) خطاب لأدم وحواء، وخطبا بما يخاطب به الجمع وهو (اهبطوا) موضع المثني، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وقلنا اهبطا..). ولكنه عدل إلى الجمع فقال: (اهبطوا) لأن العرب قد تأتي بلفظ الجمع وهي تريد التثنية"^(٢) .

وقوله تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾^(٣) . يقول الشوكاني: "القطع معناه الإبانة والإزالة وجمع الأيدي لكرامة الجمع بين تثنيتين"^(٤) . ويقول الفراء فيها: "وإنما قال: (أيديهما) لأن كل شيء موحد من خلق الإنسان إذا ذكر مضافاً على اثنين فصاعداً جمع، فقيل: قد هشمت رعوسهما، وملأت ظهورهما وبطنونهما ضرباً... وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما تكون عليه الجوارح اثنين في الإنسان: اليدين والرجلين والعينين"^(٥) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾^(٦) فوضع (أطراف) وهي للجمع موضع المثني (طرفي) وهما "المغرب والظهر" ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول وأول طرف النهار الآخر"^(٧) . فوضع الجمع بدل المغرب والظهر وهما مثني.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾^(٨) . يقول الشوكاني: "وآراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وأنه متول لحفظهما وكلاءتهما، وأجراهما مجرى الجمع فقال: (معكم) لكون الإثنين أقل الجمع على ما ذهب إليه بعض الأئمة"^(٩) .

(١) البقرة: ٣٦ .

(٢) فتح القدير ، ج ١/١٠٨ .

(٣) المائدة: ٣٨ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/٥٤ .

(٥) معاني القرآن للفراء: ج ١/٢٠٦، ٢٠٧ .

(٦) طه: ١٣٠ .

(٧) فتح القدير: ج ٣/٤٩٣ .

(٨) الشعراء: ١٥ .

(٩) فتح القدير: ج ٤/١١٧ .

الثالث عشر: أسلوب الحكيم:

وهو من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر وقد تحدث عنه السكاكي وعرفه بأنه "تلقى المخاطب بغير ما يترقب، كما قال الشاعر:

أنت تشتكي عندي مزاولة القرى وقد رأيت الضيفان ينحون منزلي

فقلت كأني ما سمعت كلامها هم الضيف جدي في قراهم وعجلي

أو: السائل بغير ما يتطلب، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (١) " (٢) .

وقد وضحه القزويني أكثر فقال: "هو تلقى المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب، بتنزيل سؤاله منزلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له" (٣) .

وقد نقل الشوكاني هذا التعريف أثناء توضيحه لهذا الأسلوب في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (٤) . فقال: "فيه بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عبادتهم ومعاملتهم بها كالصوم والفطر والحج... وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب، أعنى قوله: "قل هي مواقيت" من الأسلوب الحكيم، وهو تلقى المخاطب بغير ما يترقب، تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها فأجيبوا بالحكمة التي كانت تلك الزيادة والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصد السائل، وأحق بأن يتطلع لعلمه" (٥) .

(١) البقرة: ١٨٩ .

(٢) مفتاح العلوم : ٣٢٧ .

(٣) الإيضاح: ٧٥، التبيان في البيان ، الطوفي ، ص ٤٣٠ ، تحقيق عبد الستار زموط ، دار الجيل ، بيروت ،

ط ١ ، ١٩٩٦ .

(٤) البقرة: ١٨٩ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٢٦٤ .

وقد بين السكاكي الفائدة من هذا الأسلوب بقوله: "إن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور، وأبرزه في معرض المسحور" (١) .

وذكر الشوكاني هذا الأسلوب أيضاً في قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ... ﴾ (٢) . إذ يقول: "السائلون هنا هم المؤمنون، سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو؟ فأجيبوا ببيان المصروف الذي يصرفون فيه تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه وصادف مصرفه" (٣) . فهو يقصد الأسلوب الحكيم كما في التعريف.

ثامناً : عطف الخاص على العام

وهي إحدى صور الإطناب كما هو التكرار، يقول السيوطي: "وفائدته التنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنس العام، تنزيلاً للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات" (٤) .

وقد ذكر الشوكاني هذا الأسلوب وتحدث عنه في مواضع كثيرة أثناء تفسيره لآيات القرآن الكريم، وأظهر السر البلاغي من عطف الخاص على العام، كما في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٥) . حيث بين أن الغرض البلاغي من عطف الخاص على العام هنا هو التشريف فيقول: "قوله (بيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) من عطف الخاص على العام إظهاراً لأشرف المعطوف بإفراده بالذكر، لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه والبيِّنَاتِ تختص بالمحكم منه" (٦) .

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَتَكُنْ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (٧) . يقول الشوكاني فيها: "من باب عطف الخاص على العام، إظهاراً لشرفهما وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه" (٨) .

(١) مفتاح العلوم: ٣٢٧ .

(٢) البقرة: ٢١٥ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٢٩٨ .

(٤) الإتيان في علوم القرآن: ج ٣/١٨١ .

(٥) البقرة: ١٨٥ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٢٥٥ .

(٧) آل عمران: ١٠٤ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٤٩٨ .

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) . فالغرض من عطف الخاص على العام التشريف والدلالة على فضل الملكين كما يقول الشوكاني: " وإنما خص جبريل وميكائيل بالذكر بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما، وأنهما وأن كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة، تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي" (٢) . وهذا مما ذكره السيوطي في توضيح الفائدة من عطف الخاص على العام كما أشرنا من قبل " وقيل: إن جبريل وميكائيل لما كانا أميري الملائكة لم يدخل في لفظ الملائكة أولاً، كما أن الأمير لا يدخل في مسمى الجند" (٣) .

وفي آيات أخرى يبين الشوكاني أن الغرض من عطف الخاص على العام هو الشمول والعموم كما في قوله تعالى: ﴿ نَبِّئُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ (٤) . يقول الشوكاني بعد توضيح المقصود من كل من الخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات: "وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها" (٥) .

كذلك جاءت الفائدة من عطف الخاص على العام (إظهار الفظاعة من شدة العذاب) كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٦) . فقوله: (وأغرقنا آل فرعون) " معطوف على أهلكتناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه أشد أنواع الإهلاك" (٧) . فقد خص آل فرعون بالإغراق لأنهم كانوا أشد أعداء موسى عليه السلام ولا يناسبهم إلا ذلك.

(١) البقرة: ٩٨ .

(٢) فتح القدير: ج ١/١٧١ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن: ج ٣/١٨١ .

(٤) البقرة: ١٥٥ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٢٢٥ .

(٦) الأنفال: ٥٤ .

(٧) فتح القدير: ج ٢/٤٠٣ .

تاسعاً : عطف العام على الخاص

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُخْرِجِ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجِ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرِ الْأَمْرَ ﴾^(١) . يقول الشوكاني: "قوله: (ومن يدبر الأمر) هذا من عطف العام على الخاص لأنه قد عم ما تقدم وغيره"^(٢) . فالغرض من العطف هنا العموم فقد عطف ما هو عام وهو الأمر والمقصود بالأمر كل ما سبق وكل ما في الكون من أشياء، عطفه على الخاص وهو جزء من الأمر.

في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾^(٣) . يقول الشوكاني: "و(القرآن العظيم) معطوف على(سبعاً من المثاني) ويكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن"^(٤) . فالقرآن الكريم يعم الفاتحة لأنها سورة من سورته، وإن كانت أيضاً السبع الطوال فهو يعمها لأنهن من سورته فعطف العام على الخاص و يبين السيوطي الفائدة من عطف العام على الخاص بقوله: " والفائدة فيه واضحة وهو التعميم، وأفرد الأول بالذكر اهتماماً بشأنه"^(٥) . وعليه يكون إفراد(سبعاً من المثاني) الغرض منه الاهتمام بشأنها سواء كانت الفاتحة وهو الاعتقاد الأكبر لأهميتها وترديدها في كل ركعة من الصلاة وما فيها من دعاء وتنزيه لله سبحانه وإفراده بالعبادة، أو كانت السبع الطوال وما فيها من أحكام ومعاملات تفيد الإنسان المسلم.

هذه أهم موضوعات علم المعاني التي تناولها الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) وأظهر من خلالها بلاغة القرآن الكريم وإعجازه البلاغي والبياني، وإن كان هناك بعض الموضوعات التي تحدث عنها لكنه لم يظهر الأغراض البلاغية منها بشكل كبير وواضح، أو تحدث عنها بصورة مختصرة مثل: الحذف والذكر، والاعتراض، والإيجاز والإطناب، والتوكيد، والعطف.

(١) يونس: ٣١ .

(٢) فتح القدير ج٢/٥٦٠ .

(٣) الحجر: ٨٧ .

(٤) فتح القدير: ج٣/١٧٩ .

(٥) الإتيقان في علوم القرآن : ج٣/١٨١ .

الفصل الثاني

الصور البيانية في تفسير الشوكاني

علم البيان: "هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"^(١).

يقول التفتازاني في معنى التعريف السابق: "أن علم البيان ملكة أو أصول يقتدر بها على إيراد كل معنى واحد، يدخل في قصد المتكلم وإرادته بتركيب يكون بعضها أوضح دلالة عليه من بعض"^(٢).

وقد ذكر في أبجد العلوم تعريف علم البيان وموضوعه وغرضه وغايته ومبادئه فقال: "علم البيان: هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بتركيب مختلفة في وضوح الدلالة على المقصود بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض، وموضوعه اللفظ العربي من حيث وضوح الدلالة على المعنى المراد، وغرضه تحصيل ملكة الإفادة بالدلالة العقلية وفهم مدلولاتها ليختار الأوضح منها مع فصاحة المفردات، وغايته الاحتراز من الخطأ في تعيين المعنى المراد بالدلالة، ومبادئه بعضها عقلية كأقسام الدلالات والتشبيهات والعلاقات المجازية ومراتب الكنايات، وبعضها وجدانية ذاتية كجوه التشبيهات وأقسام الاستعارات وكيفية حسنها ولطفها"^(٣).

وقد بين الشوكاني في تفسيره مباحث علم البيان وتحدث عنها بصورة واضحة جلية مما أعطى صورة عن تمكنه من هذا العلم ومعرفته له، وتلك المباحث هي:

أولاً: التشبيه :

ثانياً: المجاز :

ثالثاً: الاستعارة :

رابعاً: الكناية والتعريض :

وسنتحدث عن تلك المباحث كل على حدة موضحين جهود الشوكاني في هذا العلم من علوم البلاغة.

(١) الإيضاح: ٢١٢، والتلخيص في علوم البلاغة، ٢٣٥ .

(٢) المطول: ٥٠٦ ،

(٣) أبجد العلوم ، صديق بن حسن الفنوجي، وضع فهارسه عبد الجبار زكار، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٨٨. ج٢ق١/١٧٠ .

أولاً : التشبيه :

التشبيه في اللغة: الشبه والشبيه: المثل، وأشبه الشيء: مائله، وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبه على، وتشابه الشيطان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه والتشبيه المثل "(١) .

أما في اصطلاح البلاغيين: فقد عرفه القزويني بقوله: "التشبيه: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى" (٢) .

ويوافقه التفازاني في هذا التعريف ولكنه يضيف إليه بأداة ظاهرة أو مقدره فيقول معلقاً على هذا التعريف في شرحه للتلخيص: "فمعنى التشبيه في الاصطلاح عند المصنف هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، لا على وجه الاستعارة التحقيقية والاستعارة بالكناية والتجريد، وينبغي أن يزداد فيه قولنا: بالكاف ونحوه لفظاً أو تقديراً ليخرج عنه" (٣) .

ويعرفه الدكتور عبد العزيز عتيق بالمعنى السابق نفسه فيقول: "التشبيه: بيان أن شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو مقدره، تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه" (٤) .

وعليه يكون التشبيه: "هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى بأداة من أدوات التشبيه الظاهرة أو المقدره" (٥) .

وقد تناول الشوكاني هذا المبحث من مباحث علم البيان فبين أنواع التشبيه وفوائده وبلاغته، وكان يذكر أحياناً نوع التشبيه في الآية وأحياناً لا يذكره بل يبين موضع التشبيه في الآية دون ذكر نوعه وهذا ما سنوضحه من خلال الآيات التي ذكر فيها هذا المبحث.

أنواع التشبيه:

١ - التشبيه البليغ: " هو ما حذف منه الأداة ووجه الشبه" (٦) .

(١) اللسان: (شبه) .

(٢) الإيضاح: ٢١٣ .

(٣) المطول: ٥١٧ .

(٤) علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٤. ص ٦٢ .

(٥) من بلاغة القرآن: د. محمد، د. نعمان علوان: ص ١٥٠ .

(٦) المصدر السابق: ١٧٧ .

وقد ذكره الشوكاني في تفسيره لبعض الآيات القرآنية وفي آيات أخرى لم يذكره مباشرة لكن بوضوحه من خلال الشرح، نجد ذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾^(١). يقول الشوكاني موضحاً هذا النوع من التشبيه: "فقال: 'واشربوا' تشبيه بليغ، أي جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه، ومثله قول زهير:

فصحت عنها بعد حب داخل والحب يشربه فؤادك دائماً

وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، والطعام يجاوزها ولا يتغلغل فيها"^(٢).

وفي تفسيره لهذه الصورة وكأنه يجعل التشبيه والاستعارة نوعاً واحداً كما يقول الدكتور محمد علوان: "وإذا ما أعدنا النظر في قول الشوكاني نجده يخرج الصورة البيانية في الآية على أنها تشبيه بليغ، مع أنها خلاف ذلك إذ هي استعارة، وهذا ما وضحه في شرحه، ولعله بذلك يجعل التشبيه والاستعارة ضرباً واحداً لا فرق بينهما"^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾^(٤). وضح الشوكاني هذا التشبيه فقال: "هو تشبيه بليغ، والمراد بالخيط الأبيض هو المعترض في الأفق لا الذي هو كذنب السرحان، فإنه الفجر الكاذب الذي لا يحل شيئاً ولا يجرمه والمراد بالخيط الأسود سواد الليل، والتبين أن يمتاز أحدهما عن الآخر"^(٥).

فقد شبه أول ما يظهر من الفجر بالخيط الأبيض، وسواد الليل قبل أول الفجر شبيهه بالخيط الأسود، ويرد الزمخشري على من سأل عن هذه الآية أهى استعارة أم تشبيه؟ فيقول: "قوله من الفجر أخرجه من باب الاستعارة، كما أن قولك 'رأيت أسداً' مجاز، فإذا زدت من فلان رجع تشبيهاً، فإن قلت: فلم زيد من الفجر حتى كان تشبيهاً، وهلا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه وادخل في الفصاحة؟ قلت: لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام ولم يذكر من الفجر لم يُعلم أن الخيطين مستعاران، فزيد من الفجر،

(١) البقرة: ٩٢ .

(٢) فتح القدير: ج ١/١٦٧ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٦٩٨ .

(٤) البقرة: ١٨٧ .

(٥) فتح القدير: ج ١/ ٢٦٠ .

فكان تشبيهاً بليغاً^(١) .

فالشوكاني يتوافق مع الزمخشري في أن الآية فيها تشبيه بليغ حيث حذف أداة التشبيه ووجه الشبه وبقي المشبه والمشبه به.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾^(٢) .

وضح الشوكاني هذا التشبيه ولم يبين نوعه فقال: "فقد شبه ما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بما يلقي في الأرض من البذور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه"^(٣) . ويوافق الشوكاني هنا أبا السعود في أن الصورة تشبيه فقال أبو السعود "أي مواضع حرث لكم شبهن بها لما بين ما يلقي في أرحامهن وبين البذور من المشابهة من حيث أن كلا منهما مادة لما يحصل منه"^(٤) .

نلاحظ تشابهاً كبيراً بين توضيح أبي السعود للتشبه وتوضيح الشوكاني وكان الشوكاني ينقله عن أبي السعود ولكن بصياغة تدل على تمكنه من المعرفة بهذه الصورة من صور التشبيه، وقد سبقهم الزمخشري في توضيح تلك الصورة بالمعنى نفسه فقال: "شبهن بالمحارث تشبيهاً لما يلقي في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبذور، وقوله: (فاتوا حرثكم أنى شئتم) تمثيل أي فأتوهن كما تأتون أراضيكم التي تريدون أن تحرثوها"^(٥) .

وكقوله تعالى: ﴿ فَاحْتَمِلِ السَّيْلَ زَبْداً رَابِياً ﴾^(٦) . فإن " المراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل"^(٧) . وذلك بجامع الذهاب والزوال في كل منهما، فقد حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، والغرض من التشبيه هو تقبيح المشبه.

(١) الكشاف: ج ١ / ٢١٠ .

(٢) البقرة: ٢٢٣ .

(٣) فتح القدير: ج ١ / ٣١١ .

(٤) تفسير أبي السعود: ج ١ / ٢٦٩ .

(٥) الكشاف: ج ١ / ٢٤١ .

(٦) الرعد: ١٧ .

(٧) فتح القدير: ج ٣ / ٩٤ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾^(١) . شبه سبحانه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر، قال ابن جرير: "وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث إنه يستر الأشياء ويغشاها"^(٢) . وهو تشبيه بليغ حيث حذف أداة التشبيه ووجه الشبه وهو الستر والغطاء للشيء.

ومنه قوله تعالى في نفس الآية ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾^(٣) . شبه اليقظة بالحياة كما شبه النوم بالسبات التشبيه بالممات.^(٤) . فحذف الأداة ووجه الشبه وجاء بالمشبه وهو اليقظة والمشبه به الحياة، والمشبه الثاني النوم والمشبه به السبات.

وجاء كلام الشوكاني موافقاً لكلام الزمخشري إذ يقول في الكشاف: "شبه ما يستر من ظلام الليل باللباس الساتر، والسبات الموت والمسبوت الميت لأنه مقطوع الحياة... وهذه الآية مع دلائلها على قدرة الخالق فيها إظهار نعمته على خلقه لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية، والنوم واليقظة وشبههما بالموت والحياة : أي عبرة فيها لمن اعتبر"^(٥) .

٢ - التشبيه التمثيلي:

وهو "ما وجهه وصف، منتزع من متعدد أمرين أو أمور"^(٦) . وهذا ما ذكره السكاكي من قبل فقال: "اعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي، وكان منتزعا من عدة أمور رخص باسم التمثيل"^(٧) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾^(٨) .

(١) الفرقان: ٤٧ .

(٢) فتح القدير: ج ٤ / ٩٨ .

(٣) الفرقان: ٤٧ .

(٤) فتح القدير: ج ٤ / ٩٨ .

(٥) الكشاف: ج ٣ / ٣٣٤ .

(٦) الإيضاح: ٢٤٩ .

(٧) مفتاح العلوم: ٣٤٦ .

(٨) البقرة: ١٧ .

يقول الشوكاني: "ضرب الله المثل للمنافقين لبيان أن ما يظهره من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت به أحكام الإسلام، كمثل المستوقد الذي أضاعت ناره ثم طفت، فإنه يعود إلى الظلمة ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة، فكأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده، وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك تسطع ذوائب لهب ناره لحظة ثم تخفت" (١) .

والشوكاني يظهر هنا جمال التشبيه من خلال تحليله لتلك الصورة وكأنها مشهد يراه ويتابعه القارئ، ثم يبين الغرض من ضرب هذه الأمثال وهي الفائدة البلاغية فيقول: "وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنًا عظيمًا في إبراز خفيات المعاني ورفع أسرار محجبات الدقائق، ولهذا استكثر الله من ذلك في كتابه العزيز" (٢) .

وقد وضح القزويني هذا التشبيه مطبقاً من خلاله التعريف السابق فقال في هذه الآية: "إن تشبيه حال المنافقين بحال الموصوف بصلة الموصول في الآية في أمر حقيقي منتزع من متعدد، وهو الطمع في حصول مطلوب، لمباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة، لانقلاب الأسباب" (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (٤) .

فالمراد بالأعمال هنا: هي الأعمال التي من أعمال الخير كالصدقة والصلة وفك العاني وعمار البيت وسقاية الحاج،... وتخصيص الحسبان بالظمان مع كون الريان يراه كذلك لتحقيق التشبيه المبني على الطمع... والمعنى أن الكفار يعملون على أعمالهم التي يظنونها من الخير ويطمعون في ثوابها، فإذا قدموا على الله سبحانه لم يجدوا منها شيئاً لأن الكفر أحبطها ومحا أثرها" (٥) .

فالصورة تشبيه تمثيلي حيث شبه أعمال الكفار كالسراب ووجه الشبه فيه منتزع من متعدد وهي صفات السراب أنه بقية، ويحسبه الظمان ماءً فإذا جاءه لم يجده، وأعمالهم كذلك

(١) فتح القدير: ج ١ / ٧٩ .

(٢) المصدر السابق: ج ١ / ٧٩ .

(٣) الإيضاح: ٢٥٠ .

(٤) النور: ٣٩ .

(٥) فتح القدير: ج ٤ / ٤٨، ٤٩ .

يحبسها الكفار ستدخلهم الجنة حتى إذا جاءوا للحساب عند الله لم يجدوا منها شيئاً، والشوكانى يتوافق مع أبي السعود في نقل هذه الصورة وكأنه ينقل عنه ذلك يقول أبو السعود: "وتخصيص الحسبان بالظمان مع شموله لكل ما يراه كائناً ما كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه في وجه الشبه الذي هو المطلع المطمع والمقطع المؤيس" (١) .

يقول د. عبد الفتاح لاشين: "إن النسق اللغوي والنظم الإلهي يضيف حياة على الصورة التشبيهية، ويكسبها ظلالاً إيحائية لا يستطيع طرفي التشبيه وحدهما أن يقوما بها، فالنظم الإلهي والتركيب اللغوي يبرز حالة نفسية حركية تصور معاناة سائر في صحراء قاحلة تناوشه أحاسيس الظمأ ويحاول تهدئتها بقرب إدراكه الماء الذي يتكشف في نهاية الطريق عن وهم خادع" (٢) .

وكما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا... ﴾ (٣) .

يقول الشوكانى: "مثل الله سبحانه هذا المنفق بصفوان عليه تراب يظنه الظان أرضاً منبته طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلدًا، أي مجرد نقياً من التراب الذي كان عليه، فكذلك هذا المرئي فإذا نفقته لا تنفعه كما لا ينفع المطر الواقع على الصفوان الذي عليه تراب" (٤) . ووجه الشبه: أن الشيء يراه الناظر حسناً ولكن نهايته سيئة شنيعة، "فإذا دققنا النظر في شرح الشوكانى للآية نجده في بداية حديثه يحدد لنا نوع التشبيه بقوله: (مثل) فإذا ما أتمنا كلامه تبين لنا أن الغرض البلاغي الذي أفاده التشبيه هو بيان حال المشبه أي حال هذا المنافق الذي صورته وبينته لنا حالة المشبه به تلك الصورة الحية التي نشاهدها أمام أعيننا" (٥) .

وتلك الصورة لها صورة مقابلة تبين حال المشبه الذي ينفق ماله ابتغاء وجه الله، وذلك في الآية التالية للآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ

(١) تفسير أبي السعود: ج٤/٤٦٨ .

(٢) لبيان في ضوء أساليب القرآن: د. عبد الفتاح لاشين، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥م، ص ٥٥ .

(٣) البقرة: ٢٦٤ .

(٤) فتح القدير: ج١/٣٨٨ .

(٥) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكانى: ٦٩٦ .

فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ . إذ يقول الشوكاني في هذه الصورة: "يجوز أن يعتبر التمثيل ما بين حالهم باعتبار ما صدر عنهم من النفقة الكثيرة والقليلة، وبين الجنة المعهودة باعتبار ما أصابهم من المطر الكثير والقليل، فكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكلها، فكذلك نفقتهم جلت أو قلت بعد أن يطلب بها وجه الله زاكية زائدة في أجورهم" (٢) . فهي كالصورة السابقة تشبيه تمثيلي لحال المنفق المكثر أو المقل في نفقته بتلك الجنة التي ينبت شجرها ويثمر بالكثير من الماء والقليل بجامع أن كلاً من المنفق والجنة يجد نتيجة ذلك بزيادة الخير ومضاعفته فتكون النتيجة خيراً في النهاية.

ونلاحظ هنا أن الشوكاني ينقل هذا الكلام نقلاً تاماً عن أبي السعود مع تغيير بعض الألفاظ (٣) .

ويتبع الآيتين السابقتين آية أخرى تصور حال من يعمل خيراً ويجمع معه الشر فيكون مآله الخسران، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ... ﴾ (٤) .

يبين الشوكاني ما في الآية من تشبيه تمثيلي بقوله: "هذه الآية تمثيل من يعمل خيراً ويضم إليه ما يحبطه فيجده يوم القيامة عند شدة حاجته إليه لا يسمن ولا يغني من جوع بحال من له هذه الجنة الموصوفة وهو متصف بتلك الصفة" (٥) . وهي بيان لحال المشبه وما يؤول إليه يوم القيامة بسبب أعماله.

ومنه قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ (٦) .

يقول الشوكاني: "والمعنى: أن أعمالهم باطلة غير مقبولة، والرماد ما يبقى بعد احتراق الشيء، ضرب الله سبحانه هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة

(١) البقرة: ٢٦٥ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ٣٩٠ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ١/ ٣٠٨، ٣٠٩ .

(٤) البقرة: ٢٦٦ .

(٥) فتح القدير: ج ١/ ٣٩٣ .

(٦) إبراهيم: ١٨ .

الرماد في يوم عاصف... فلا يقدر الكفار مما كسبوا من تلك الأعمال الباطلة على شيء منها، ولا يرون له أثراً في الآخرة يجازون به ويثابون عليه، بل جميع ما عملوه في الدنيا باطل ذاهب كذهاب الريح بالرماد عند شدة هبوبها"^(١) .

فقد جاء هنا بالرماد الذي يطير مع أي ریح، فكيف به وهو يتعرض لريح شديدة في يوم عاصف فأراد أن يعطي مشهداً حياً ظاهراً للعيان ليتصور ما يحدث ويقارنه بأعمال الكفار وما تصير إليه يوم القيامة، فقد شبهها في حبوطنها وذهابها هباءً منثوراً لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به، وكونها لوجهه، برماد طيرته الريح العاصف"^(٢) .

وجاء التشبيه التمثيلي في قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ ^(٣) .

فهذا مثل ضربه الله سبحانه لأصحاب النبي ﷺ ، وأنهم يكونون في الابتداء قليلاً ثم يزدادون ويكثررون ويقوون كالزرع، فإنه يكون في الابتداء ضعيفاً ثم يقوى حالاً بعد حال حتى يغلظ ساقه"^(٤) . فقله: (مثل) أي تشبيهه فقد شبه الصحابة مع النبي وزيادة عددهم مع مر الأيام بالزرع يكون ضعيفاً ثم ينمو ويكبر ويغلظ ساقه فيقوى حتى يعجب الزراع وهم كذلك.

قال الفراء: "هو مثل ضربه الله عز وجل للنبي ﷺ إذ خرج وحده ثم قواه بأصحابه، كما قوى الحبة بما نبت منها"^(٥) .

"ونلاحظ هنا أن المشبه به -الزرع- استغرق فقرات كثيرة، ذلك لأنه من نعم الله على البشرية، فالقرآن يبطن في عرضها، ويتمهل في إظهارها، لتقرع تلك النعم مسامع الناس وقتاً طويلاً"^(٦) .

(١) فتح القدير: ج ٣/ ١٢٧ .

(٢) الكشاف: ج ٢/ ٥٣٢ .

(٣) الفتح: ٢٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٥/ ٦٩ .

(٥) معاني القرآن: ج ٣/ ٦٩ .

(٦) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٧٦ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١). "أي فمن يكفر بالشيطان أو الأصنام أو أهل الكهانة ورؤوس الضلالة أو الجميع (ويؤمن بالله) عز وجل بعد ما تميز له الرشد من الغي فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق أي المحكم، والوثقى: فعلى من الوثاقه وجمعها وثق مثل الفضلى والفضل، وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة، فقيل: المراد بالعروة الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا إله إلا الله، ولا مانع من الحمل على الجميع" (٢). فهو تشبيه تمثيلي لحال من يؤمن بالله بحال من أراد أن يسقط من مكان مرتفع فيتشبث بحبل متين قوي لا يمكن أن ينقطع.

وهذا ما ذكره صاحب الكشاف في تفسيره لتلك الصورة فقال: "فمن اختار الكفر بالشيطان أو الأصنام والإيمان بالله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) من الحبل الوثيق المحكم المأمون انفصامها أي انقطاعها، وهذا تمثيل للمعلوم، والنظر الاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصوره بالسامع كأنه ينظر إليه بعينه" (٣).

وقد بين الشوكاني التشبيه السابق بصورة أوضح في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ (٤).

فقال "أي يفوض إليه أمره ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته (وهو محسن) في أعماله، لأن العبادة من غير إحسان لها ولا معرفة بما يحتاج إليه فيها لا تقع بالموقع الذي تقع به عبادة المحسنين... (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي اعتصم بالعهد الأوثق وتعلق به، وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه إلى الله بحال من أراد أن يترقى إلى شاهرق جبل، فتمسك بأوثق عرى جبل متدل منه" (٥).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ (٦).

(١) البقرة: ٢٥٦ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ٣٧٦ .

(٣) الكشاف: ج ١/ ٢٧٢ .

(٤) لقمان: ٢٢ .

(٥) فتح القدير: ج ٤/ ٢٩٠ .

(٦) آل عمران: ١٠٣ .

"أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالإسلام،... وهو تمثيل للحالة التي كانوا عليها في الجاهلية"^(١) .

نفهم من كلام الشوكاني أن الصورة تشبيه تمثيلي فقد شبه الكفر وما كانوا عليه في الجاهلية بمن يقف على حافة حفرة بها نار مشتعلة يكاد يقع فيها ف جاء الإسلام وأنقذهم من الوقوع بها، ويلاحظ ما في الصورة من ظلال الرحمة التي جاء بها الإسلام ليخرج البشرية من النار والظلمات إلى النعيم والنور و العدل لينقذهم من الهلاك إلى الحياة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً... ﴾^(٢) .

يقول الشوكاني: "فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعيتهم وهو محمد ﷺ بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل فلا يسمع إلا دعاء ونداء ولا يفهم ما يقول"^(٣) . وقد ذكر الزجاج هذا التشبيه التمثيلي من قبل فقال: "ضرب الله عز وجل لهم هذا المثل، وشبههم بالغنم المنعوق بها بما لا يسمع منه إلا الصوت، فالمعنى: مثلك يا محمد ومثلهم كمثل الناعق والمنعوق به، بما لا يسمع، لأن سمعهم ما كان ينفعهم، فكانوا في شركهم عدم قبول ما يسمعون بمنزلة من لم يسمع، والعرب تقول لمن يسمع ولا يعمل بما يسمع: أصم"^(٤) . وفي هذه الآية تتجلى غفلة الداعي وعبث الدعوة، كما تتجلى غفلة المدعويين، واستحالة استجابتهم"^(٥) . ولكن لا يمكن أن يشبه هنا النبي ﷺ بالراعي الناعق لأنه انقاص من مكانته وقدره، ولا تكون غفلة من الداعي وعبث الدعوة فالنبي ﷺ لم يغفل عن دعوته ولم تكن دعوته عبثاً حتى تتجلى فيه هذه الصورة يقول الدكتور عبد الفتاح لاشين: "قد يأتي تركيب التشبيه في صورة يوهم ظاهراً أن بها إخلالاً في التركيب أو فساد في الترتيب، لكن بالتأمل والبحث عن العلل نجد أن الأساليب جارية على منهج البلاغة ولو جاء التركيب على الصورة التي توهمها المتوهم لكان النظم معيباً"^(٦) .

(١) فتح القدير: ج ١/٤٩٥، ٤٩٦ .

(٢) البقرة: ١٧١ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٢٣٦ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ج ١/٢١٠ .

(٥) القرآن والصورة البيانية، د. عبد القادر حسين. ص ٦٥، دار المنار، القاهرة، ط ١، ١٩٩١ م .

(٦) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٤٤ .

ويقول معلقاً على التشبيه في الآية السابقة: "والتصريح بتشبيه الكفار بالضأن مُنْفَرٍ عن الرسول عليه السلام...وفي التصريح بتشبيه الرسول عليه السلام بالراعي الذي ينعق بالضأن غض من مكانته، ومخالفة الأدب في مخاطبته، ومعلوم مدى مكانته ﷺ عند ربه وتلطفه في مخاطبته، فلهذا قلب الكلام عن وجهه فحذف من كل جملة من الجملتين شيء، حذف المشبه به من الجملة الأولى، والمشبه من الثانية، لدلالة الناعق على المنعوق بها، ولو جاء الكلام على وجهه لم يفد ذلك" (١).

ومنه أيضاً: قوله تعالى: ﴿ وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ .

يقول الشوكاني: "قوله: (فمثله كمثل الكلب) أي فصار لما انسلخ عن الآيات ولم يعمل بها منحطاً إلى أسفل رتبة مشابهاً لأخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث في كلا حالتي قصد الإنسان له أو تركه، فهو لاهث سواء زجر أو ترك، طرد أو لم يطرد، شد عليه أو لم يشد عليه وليس بعد هذا في الخسة والدناءة شيء... والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء وعظه الواعظ وذكره المذكر وزجره الزاجر أو لم يقع شيء من ذلك" (٢).

وقد وضح الشوكاني تلك المشابهة بين الذي انسلخ من آيات ربه وبين الكلب الذي يلهث في حالة التعب وحالة الراحة فيها عادة لا يمكن أن تفارقه وعليه فإن انسلخ ذلك الرجل من آيات الله لا يمكن أن تنتهي بل هي صفة علقته به ولا يمكن أن يعود عنها وجاء بكلمة انسلخ ليصور انسلخ جلد الشاة عن لحمها فإنه لا يمكن أن يعود إلى ما كان عليه.

ويقول الجرجاني في التمثيل: "ينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة

(١) المصدر السابق: ٤٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٣٣٧ .

إلى الجملة أكثر" (١). ثم إن "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها" (٢). فقد كان الجرجاني مؤصلاً لعلوم البلاغة وموضحاً لكل موضوع من موضوعاته وقادراً على التعبير عن كل فكرة منه.

٣- التشبيه المقلوب:

"ويسمى أيضاً التشبيه المعكوس، فيجعل المشبه مشبهاً به، وبالعكس فتعود فائدته إلى المشبه به، لادعاء أن المشبه أتم وأكمل وأظهر وأشهر من المشبه به في وجه الشبه والمقصود من هذا القلب في التشبيه المبالغة" (٣).

وقد سماه ابن الأثير (الطرد والعكس): "وهو أن يُجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به" (٤). وسماه ابن جني غلبة الفروع على الأصول (٥).

وقال عبد القاهر الجرجاني في معناه: "جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً وهو إذا استقرت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها، وذلك نحو أنهم يشبهون الشيء فيها بالشيء في حال ثم يعطفون على الثاني فيشبهونه بالأول فتري الشيء مشبهاً مرة ومشبهاً به أخرى، فمن أظهر ذلك أنك تقول في النجوم كأنها مصابيح ثم تقول في حالة أخرى في المصابيح كأنها نجوم، ومثله في الظهور والكثرة تشبيه الخد بالورد والورد بالخد..." (٦).

"والشرط في استعماله أن لا يرد إلا فيما كان متعارفاً، حتى تظهر فيه صورة الانعكاس" (٧).

(١) أسرار البلاغة في علم البيان، عبد القاهر الجرجاني، تصحيح محمد رشيد رضا: ٨٧، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٩٨٨.

(٢) أسرار البلاغة: ٩٢، ٩٣.

(٣) القرآن والصورة البيانية: ٩٥، وانظر: جواهر البلاغة: ٢٧٥، ومن بلاغة القرآن لعلوان: ١٨٠.

(٤) المثل السائر: ج ٢/ ١٥٦.

(٥) الخصائص، ابن جني، دار الكتاب العربي، بيروت: ج ١/ ٣٠٨.

(٦) أسرار البلاغة: ١٧٧.

(٧) الطراز: ١٤٨.

ولم يغفل الشوكاني ذكر هذا النوع من التشبيه أثناء تفسيره لآيات القرآن الكريم فبينه في آية واحدة ووضح طرفيه وكيف جعل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (١) . إذ يقول: "أي أنهم جعلوا البيع والربا شيئاً واحداً وإنما شبهوا البيع بالربا مبالغة بجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً أي إنما البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله" (٢) وقد بين الشوكاني الغرض من التشبيه وهو المبالغة فتمنوا أن يكون مثل البيع لأن فيه الربح الكثير في تصورهم.

وقد قالوا في التشبيه المقلوب إنه: "موضع من علم البيان حسن الموقع، لطيف المأخذ" (٣).

وينوه الوطواط ببلاغة المعكوس ذلك أن أجمل التشبيهات، وأكثرها قبولاً لدى الطباع، وهي تلك التي إذا انعكست وشبه فيها المشبه به بالمشبه فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته، وصواب التشبيه وصحته" (٤) .

و"قال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: إنكم معاشر أهل الحضر، لتخطئون المعنى، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول: كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن، فيقول: كأنها الشمس، ولم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه؟" (٥) .

فأراد الأعرابي التشبيه المقلوب فيشبه الأسد بالرجل، والشمس بالمرأة، وهذا يدل على ذوق الأعرابي وفطرته اللغوية للجمال في التشبيه.

وتلك الآية التي ذكرناها آنفاً هي الآية الوحيدة التي ذكر الشوكاني فيها هذا النوع من التشبيه وهو التشبيه المقلوب، وإن جاءت بعض الآيات في هذا القالب لكنه لم يتعرض فيها بذكر هذا التشبيه.

(١) البقرة: ٢٧٥ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٤٠٢ .

(٣) المثل السائر: ج ٢/١٥٧ .

(٤) القرآن والصورة البيانية: ٩٨، وانظر التشبيه بين عبد القاهر وابن الأثير، د. الكردي، ١٢٧ طبعة السعادة .

(٥) نهاية الأرب: ج ٣/١٨٥، النويري، مطبوعات وزارة الثقافة .

٤ - التشبيه الضمني:

وهو: تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة بل يلحاح في التركيب، وهذا النوع يؤتى به ليفيد أن الحكم الذي أسند إلى المشبه ممكن^(١).

وهو "يفهم ضمناً لا صراحة، ويؤتى به عادة للبرهان على صحة حكم، والتدليل على دعوى بأنها ممكنة وصحيحة، فأحياناً يذكر المتكلم أمراً غريباً يستبعد حصوله ويجد في نفسه حاجة إلى أن يسوق ما يكون كالدليل يزيل عنه الغرابة، ويجعله من الأمور الممكنة التي لا بعد في حصولها، وحينئذ يأتي بتشبيه يبدو وكأنه البرهان والدليل، وإن لم يكن على صورة من الصور المعروفة للتشبيه الصريح"^(٢).

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾^(٣).

يقول الشوكاني مظهراً هذا التشبيه: "مثل سبحانه الغيبة بأكل الميتة، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحي لا يعلم بغيبة من اغتابه، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه وأنه كما يحرم أكل لحمه يحرم الاستطالة في عرضه، وفي هذا من التنفير عن الغيبة والتوبيخ لها والتوبيخ لفاعلها والتشنيع عليه ما لا يخفى، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية وتستكرهه الجبلة البشرية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً"^(٤).

فقول الشوكاني: (مثل) أي (شبه) وهو تشبيه يلح من سياق الآية، فهو أمر غريب يصعب حصوله من الإنسان لأخيه الإنسان، ولكن يحدث ذلك حقيقة إذا اغتابه وتكلم في عرضه، فيظهر لنا التشبيه أن المغتاب غير موجود فهو لا يسمع وكذلك الميت، وأن المغتاب لا يسمع ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه وكذلك الميت. وبين الشوكاني الغرض من هذا التشبيه وهو التنفير والتوبيخ والتشنيع.

(١) انظر: بغية الإيضاح، د. عبد العال الصعيدي، ج ٣/٣٨، مكتبة الآداب ومطبعتها، وجواهر البلاغة: ٢٧٤، والبلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، ص ٤٥، المكتبة العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٢، وانظر: البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البيان)، د. بكرى شيخ أمين، ص ٥٣، دار العلم للملايين، ١٩٨٢.

(٢) البيان في ضوء أساليب القرآن: ١٠٣.

(٣) الحجرات: ١٢.

(٤) فتح القدير: ج ٥/ ٧٩.

وقد ذكر الزمخشري هذا التشبيه وبينه كما بينه الشوكاني فقال في الآية: "تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفضح وجه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى: منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولاً بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جعل الإنسان أحياناً، ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتاً^(١) .

٥- التشبيه المركب:

وهو الصورة المنتزعة من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض حتى تصبح شيئاً واحداً^(٢) . "يستخرج من مجموعها وجه الشبه، فيكون حاله حال الشئيين أو الأشياء يمزج أحدهما بالآخر حتى تحدث صورة جديدة غير تلك الصورة التي عهدناها في حال الأفراد"^(٣) .

وقد بين الشوكاني هذا النوع من التشبيه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

فيقول: "لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها وتجلب النفوس ببهجتها، تحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً، ويهتكوا حرهم حباً لها وعشاقاً لجمالها الظاهري، وتكالبوا على التمتع بها، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى آخر الآية. والمعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وبيانه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيته، بعد أن كان غصناً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس

(١) الكشاف ج ٤/٢٦٠، وانظر: تفسير أبي السعود ج ٦/١١٨ .

(٢) من بلاغة القرآن : علوان ١٦٩ .

(٣) القرآن والصورة البيانية: ٥٧ .

المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله تعالى: (كماء أنزلناه من السماء) بل يفهم من الكلام^(١) .

وهكذا يحلل الشوكاني ذلك المشهد الذي عرضه القرآن الكريم ليصل بنا إلى وجه الشبه المنتزع من ذلك المشهد الحياة الدنيا بزینتها، ونبات الأرض الذي نزل عليه الماء ونما وترعرع ثم كل منهما يزول وينتهي، ومثاله في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ ﴾ . يقول الشوكاني: "أي اذكر لهم ما يشبه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها وسرعة زوالها لئلا يركنوا إليها"^(٢) . شبهها بنبات الأرض اختلط بماء المطر فاستوى، ثم يتكسر وتفرقه الرياح فلا يبقى منه شيء ويزول بسرعة، فالحياة الدنيا مثل ذلك النبات.

ومنه قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِعَبَاءٍ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ .

يقول الشوكاني: "فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حر ولا قر ولا مطر، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيئاً"^(٣) . فبين وجه الشبه المنتزع من هذه الصورة وهو أن كل من بيت العنكبوت ومن يتخذوه ولياً لا يغني صاحبه بشيء، ثم يأتي الشوكاني برأي الفراء فيقول: "قال الفراء: هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً، قال: ولا يحسن الوقوف على العنكبوت، لأنه لما قصد بالتنشيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به"^(٤) . فالعنكبوت تجهد نفسها في بناء بيتها وجهدها يضيع لضعف ذلك البناء، والمتخذ آلهة غير الله يعبدها ويتقرب إليها جهده ضائع لن ينال أجراً على ذلك، ويذكر الدكتور عبد الفتاح لاشين ما اكتشفه العلماء عن العنكبوت فيقول: "وعلماء الحيوان اكتشفوا أن العنكبوت أشرس الحيوان وقد بلغ من شراسته أن الأم تقتل الأب بل الأولاد أيضاً، ثم هو يحول بيته من خيوط وهي على سمكها البسيط أقوى من مثلها من الصلب بأكثر من مرتين، ويتخلل هذا الخيط نقطة لزجة تساعد على اصطيد الفريسة بسهولة، والبيت بهذه الصورة التي اكتشفها علماء

(١) فتح القدير: ج ٢/٥٥٢، ٥٥٣ .

(٢) فتح القدير ج ٣/٣٦٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٤/٢٤٤ .

(٤) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، ومعاني القرآن، الفراء ج ٢/٣١٧ فيه إلى "ولا برداً" .

الحيوان صورة مهلكة لمن يدخله أو يلتجئ إليه، وليس فيه أي صفة من صفات الأمان والاستقرار" (١) .

ثم يوضح وجه الشبه بين المشبه والمشبه به في ضوء هذه الصورة المكتشفة فيقول: "وعلى ضوء هذا الفهم الجديد للآية يكون معنى التشبيه أن لجوء المشركين لآلهتهم تلك مهلك لهم ومميت كمن يلجأ من الحشرات إلى بيت العنكبوت فمآله الدمار والهلاك، وقد ختمت الآية بما يفيد أن هذا العلم صعب وغير ميسور للجميع وإنما يفهمه ذوو العلم والإدراك" (٢) .

فالدكتور لاشين هنا جاء بمشبه ومشبه به مغايران وهما المتخذين آلهة من دون الله، والحشرات التي تلجأ إلى بيت العنكبوت، والصورة الأولى المشبهة: الآلهة المتخذة من دون الله، والمشبه به: بيت العنكبوت بجامع الضعف في كل منهما. وعليه يكون هناك اختلاف بين الصورتين.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ .

يقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْتَدَّةٌ ﴾ أنهم قد "شبهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندين بها بالخشب المنصوبة المسندة إلى الحائط التي لا تفهم ولا تعلم، وهم كذلك لخلوهم من الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه" (٣) .

فوجه الشبه بين المشبه والمشبه به حسن الصورة مع عدم الفهم والإدراك وعدم النفع في كل منهما.

٦- تشبيه المحسوس بالمتخيل (أو المعقول):

ذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ . فقال: "أي ثمرها وما تحمله كأنه في تناهي قبحه وشناعة منظره رعوس الشياطين،

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٧٦ .

(٢) المصدر السابق: ٧٦ .

(٣) فتح القدير: ج ٢٧٥/٥ .

فشبه المحسوس بالمتخيل، وإن كان غير مرئي، للدلالة على أنه غاية في القبح، كما تقول في تشبيهه من يستقبحونه: كأنه شيطان وفيه تشبيهه من يستحسنونه كأنه ملك" (١) .

فهو يريد أنه شبه طلع شجرة الزقوم وهي شيء حسي، برؤوس الشياطين وهي شيء متخيل وعقلي، ووجه الشبه بينهما قبح النظر وشناعته، وفيه توضيح للغرض من التشبيه وهو تقبيح المشبه والتفجير منه" ولم يخرج هذا التشبيه عما ألفته العرب كقول الشاعر:

أيقنني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

فقد شبه المشرقي بأنياب الأغوال، وأنياب الأغوال من المعاني الوهمية التي لا دخل للحس في إدراكها، وقد استغلها الشاعر ولتهويل شأن الأسنه وإيرازها في صورة مرعبة مفزعة" (٢) .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ .

فالعصا صارت تتحرك كما يتحرك الجان، وهي الحية البيضاء، وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمتها" (٣) .

فقد شبه ما هو حسي وهي العصا، بما هو عقلي متخيل وهو الجان بجامع خفة الحركة في كل من الثعبان والجان، والجان لم ير ولكن يتخيل بالعقل وبما ورد عنه في القرآن أو في السيرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ . يقول الشوكاني: "وإنما نفين عنه البشرية لأنه قد برز في صورة قد لبست من الجمال البديع مالم يعهد على أحد من البشر، ولا أبصر المبصرون ما يقاربه في جميع الصور البشرية ثم لما نفين عنه البشرية، لهذه العلة اثبتن له الملكية وإن كن لا يعرفن الملائكة، لكنه قد تقرر في الطباع أنهم

(١) فتح القدير: ج ٤/٤٧٤ .

(٢) من بلاغة القرآن ، علوان: ١٥٦ .

(٣) فتح القدير: ج ٤/١٥٤ .

على شكل فوق شكل البشر في الذات والصفات وأنهم فائقون في كل شيء كما تقرر أن الشياطين على العكس من ذلك" (١) .

يفهم من كلام الشوكاني أنهن شبهن يوسف عليه السلام في صورته البشرية ذات الجمال الفائق، وهي صورة حسية، بالملائكة الذين هم- في تصورهن العقلي- أحسن صورة من البشر، وذلك بجامع الجمال في كل منهما. ويقول الشوكاني: "واعلم أنه لا يلزم من قول النسوة هذا أن الملائكة صورهم أحسن من صور بني آدم، فإنهن لم يقلن له دليل، بل حكمن على الغيب بمجرد الاعتقاد المرتكز في طباعهن" (٢) .

ويقول الرازي في تصور الناس لكل من الملائكة والشياطين: "إن الناس لما اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيره واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح والتشويه في الصورة والسيره، فكما حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة وجب أن يحسن برؤوس الشياطين في القبح وتشويه الخلقه" (٣) .

٧- تشبيه المعقول بالمحسوس:

يقول الشوكاني في توضيح الغرض من هذه الصورة من التشبيه وذلك في تعليقه على قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ (٤) "أي يبين الأشياء بأشباها ونظائرها تقريباً لها إلى الأفهام وتسهيلاً لإدراكها، لأن إبراز المعقول في هيئة المحسوس وتصويره بصورته يزيده وضوحاً وبياناً" (٥) .

مثال هذا التشبيه قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٦) .

(١) فتح القدير: ج ٢٩/٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٢٩/٣ .

(٣) التفسير الكبير، للفخر الرازي: ج ٩٩/٧ .

(٤) النور : ٣٥ .

(٥) فتح القدير: ج ٤٣ / ٤ .

(٦) الرعد: ١٤ .

يقول الشوكاني: "أي والآلهة الذين يدعونهم يعني الكفار من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كائناً ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه، لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه... قال الفراء: إن المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام"^(١). فقد بين الشوكاني ركني هذا التشبيه وهما عباد الوثن عندما يدعون آلهتهم فلا يستجيبون لهم وهي صورة عقلية، ومن يبسط كفه إلى الماء وكأنه يناديه ليصل إلى فيه فلا يصل، وهذا الدعاء من كل منهما لا يفيد ولا ينفع بوجه من الوجوه فهو من تشبيه المعقول بالمحسوس.

وقد ذكرنا آيات في التشبيه التمثيلي هي من تشبيه المعقول بالمحسوس .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴾ (٢) .

وفي التشبيه المركب كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ... ﴾ (٣) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (٤) . يجلي الشوكاني لنا هذه الصورة فيقول: "أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير... ولم يمنع من الإثابة عليها إلا الكفر الذي هم عليه، فمثلت حالهم وأعمالهم بحال قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه، فقدم إلى ما معهم من المتاع فأفسده ولم يترك منها شيئاً... والمعنى: أن الله سبحانه أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور، لم يكتف سبحانه بتشبيه عملهم بالهباء حتى وصفه بأنه متفرق متبدد"^(٥). شبه أعمال الكفار التي أحبطها الله وهي عقلية، بالهباء المنثور المتفرق وهي صورة حسية.

(١) فتح القدير: ج ٩٢/٣ .

(٢) البقرة: ١١٧ .

(٣) العنكبوت: ٤١ .

(٤) الفرقان: ٢٣ .

(٥) فتح القدير: ج ٨٦/٤ .

٨- تشبيه المحسوس بالمحسوس:

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ﴾^(١). قال الشوكاني: تشبه الموج لكبره بما يظل الإنسان من جبل أو سحاب أو غيرها، وإنما شبه الموج وهو واحد بالظلل وهي جمع لأنه مصدر، وأصل الموج الحركة والازدحام^(٢). المشبه الموج والمشبه به الظلل وهما حسيان.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ﴾^(٣).

يقال: قعرت النخلة إذا قلعته من أصلها حتى تسقط شبههم في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رعوس، وذلك أن الريح قلعت رعوسهم أولاً ثم كبتهم على وجوههم^(٤). فشبه قوم عاد وهم شيء حسي، بأعجاز النخل المنقعر وهي شيء حسي.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾^(٥). يقول الشوكاني: شبههن سبحانه باللؤلؤ المكنون، وهو الذي لم تمسه الأيدي، ولا وقع عليه الغبار، فهو أشد ما يكون صفاء^(٦).

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾^(٧) "أي كل شررة من شررها التي ترمي به كالقصر من القصور في عظمها، والشرر ما تطاير من النار متفرقاً... ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال: (كأنه جمالة صفر) وهي جمع جمال، وهي الإبل"^(٨).

(١) لقمان: ٣٢.

(٢) فتح القدير: ج٤/٢٩٣.

(٣) القمر: ٢٠، ١٩.

(٤) فتح القدير: ج٥/١٥٠.

(٥) الرحمن: ٢٣، ٢٢.

(٦) فتح القدير: ج٥/١٨٠.

(٧) المرسلات: ٣٣، ٣٢.

(٨) فتح القدير: ج٥/٤٢٥.

في الأولى شبه الشرر في ضخامته بالقصر في ضخامته وهما حسيان، ثم شبه الشرر في لونه الأصفر بالإبل في لونها وهما حسيان أيضاً، وفي الكشف: "أن في التشبيه بالقصر وهو الحصن تشبيهاً من جهتين: من جهة العظم ومن جهة الطول في الهواء، وفي التشبيه بالجمالات وهي القلوس تشبيهه من ثلاث جهات: من جهة العظم، والطول، والصفرة"^(١).

والغرض من هذا التشبيه هو تخويف الكفار وتعظيم شأن النار.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾^(٢).

يقول الشوكاني في قوله تعالى: (فجعلهم كعصف مأكول) "أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاءه"^(٣). وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾^(٤). يقول الشوكاني: "إذا نظرت إليهم ظننتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم لؤلؤاً مفرقاً، قال عطاء: يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً، قال أهل المعاني: إنما شبهوا بالمنثور لانتثارهم في الخدمة، ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم، وقيل: إنما شبههم بالمنثور لأنهم سراع في الخدمة بخلاف الحور العين فإنه شبههن باللؤلؤ المكنون، لأنهن لا يمتحن بالخدمة"^(٥).

فقد شبه (الولدان المخلدون) باللؤلؤ المنثور وهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس والغرض من التشبيه تحسين صورة المشبه من خلال تشبيهه باللؤلؤ المنثور في صفائه ونضارته ونقائه.

(١) الكشف: ج ٤/٥٢٧ .

(٢) الفيل ١-٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٤/٥٩٣ .

(٤) الإنسان: ١٩ .

(٥) فتح القدير: ج ٥/٤١٦ .

٩- التشبيه المتعدد:

وهو الذي يكون فيه "وجه الشبه متعدداً حينما تشبه مفرداً بمفرداً له صفات كثيرة مثل قولنا: محمد كالأسد شجاعة، وكالبحر عطاء، وكالبدر ضياء، وكالجبل سموخاً"^(١). والمراد بالتعدد هنا أن يُذكر في التشبيه عدد من أوجه الشبه من اثنين فأكثر على وجه صحة الاستقلال، بمعنى أن كل واحد منهما لو اقتصر عليه كفى في التشبيه، مثال ذلك أن يقال: البرتقالة كالتفاحة في شكلها وفي لونها وفي حلاوتها، وفي رائحتها، فلو اسقط وجهان من أوجه الشبه هذه لكفى الباقي في التشبيه للإبانة عن قصد المتكلم، وهذا هو وجه الشبه المتعدد"^(٢).

وقد تحدث عبد القاهر الجرجاني عن التشبيه المتعدد فقال: " اعلم أنني قد قدمت بيان المركب من التشبيه وها هنا ما يذكر مع الذي عرفت أنك أنه مركب ويقرن إليه في الكتب وهو على الحقيقة لا يستحق صفة التركيب ولا يشارك الذي مضى ذكره في الوصف الذي كان له تشبيهاً مركباً ، وذلك أن يكون الكلام معقوداً على تشبيه شيئين بشيئين ضربة واحدة إلا أن أحدهما لا يدخل الآخر في الشبه ومثاله قول إمريء القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

وذلك أنه لم يقصد إلى أن يجعل بين الشيئين اتصالاً وإنما أراد اجتماعاً في مكان فقط " (٣).

وقد أشار الشوكاني إلى هذا التشبيه في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) " فضرب للفريقين مثلاً وهو: تشبيه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وتشبيه فريق المؤمنين بالبصير والسميع، على أن كل فريق شبه بشيئين أو شبه بمن جمع بين الشيئين، فالكافر شبه بمن جمع بين العمى والصمم ، والمؤمن شبه بمن جمع بين السمع والبصر، وعلى هذا تكون الواو في (الأصم) وفي (السميع) لعطف

(١) من بلاغة القرآن، علوان: ١٦٨ .

(٢) علم البيان: ٨٤ .

(٣) أسرار البلاغة : ١٦٨ .

(٤) هود : آية ٢٤ .

الصفة على الصفة^(١) . فقد شبه الكافرين وهو مفرد بصفتين وهما العمى و الصمم، وشبه المؤمنين بصفتين وهما الإبصار والسمع، فشبه مفرد بمتعدد في كل فريق من الفريقين.

يقول الدكتور محمد علوان: " والشوكاني بكلامه هذا يلفت أنظارنا إلى أمور مهمة وهي :

أولاً : أن هذا التشبيه هو من باب التشبيه المتعدد ، والذي أكد لنا ذلك قوله : (وعلى هذا تكون الواو في الأصم وفي السميع لعطف الصفة على الصفة) ، أي أن المتعدد يعطف بواو العطف ، بخلاف المركب الذي تكون فيه الواو واو المعية أو المصاحبة .

ثانياً : بين لنا نوع هذا التشبيه وهو تشبيه الجمع أحد أقسام التشبيه المتعدد ، وهو أن يتعدد الطرف الثاني (المشبه به) دون الطرف الأول (المشبه) ، وهذا ما ذكره في قوله : أن كل فريق شبه بمن جمع بين الشئيين ^(٢) .

ويقول الدكتور عبد الفتاح لاشين موضعاً التشبيه في الآية : " والناظر إلى ظاهر التشبيه يتوهم أن نظم هذه الآية قد أتى على غير طريق البلاغة ، حيث إن الطريق الأمثل أن يقال : مثل الفريقين كالأعمى والبصير ، والأصم والسميع ، ليلائم بعض الألفاظ بعضاً ، وتتلقى بالطباق اللفظي ، وبالتأمل في الآية نرى أن الكلام على الترتيب الذي جاء عليه تصحيح للمعنى حيث إن الحق تبارك وتعالى قال : " مثل الفريقين " وقد اقتضى الأمر تفسير (الفريقين) فقال: (كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع) ليكون المشبه به قسمين ، ويكون المشبه به وفق عدد الفريقين ، أحد الفريقين مبتلى ، والآخر معافى ، حتى يصبح السؤال عن التسوية بينهما مع تضادهما من باب تجاهل العارف للسؤال عن معلوم ، لقصد التوبيخ ^(٣) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتٌ طَرْفٍ لَمْ يَطْمِئُنَّ بِإِنْسٍ قَبْلَهُمْ وَلَا جِانٌّ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ^(٤) .

(١) فتح القدير ج ٢ / ٦٢٠ .

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني : ٦٩٩ .

(٣) البيان في ضوء أساليب القرآن : ٤٥ .

(٤) الرحمن / الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

يقول الشوكاني في قوله تعالى : ﴿ كَانَهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ : " هذا صفة لقاصرات ، أو حال منهن ، شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرة بالياقوت والمرجان ، والياقوت هو الحجر المعروف " (١) . فهو يريد تشبيه قاصرات الطرف بأشياء متعددة وهي الياقوت والمرجان في الصفاء والنقاء والجمال فهو تشبيه متعدد.

يقول الدكتور أحمد بدوي في دور النفس والحس في الجمع بين المشبه والمشبّه به معلقاً على الآية السابقة : " فليس في الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب ، وإنما هو لون صاف حي فيه نقاء وهدوء ، وهي أحجار كريمة تصان ويحرص عليها ، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص ، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن ، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط ، أما الصلة التي تربطهن بالبيض المكنون ، فضلاً عن نقاء اللون ، فهي هذا الرفق والحذر الذي يجب أن يعامل به كلاهما ، أولاً ترى في هذا الرفق أيضاً صلة تجمع بينهما ، وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيب أي نصيب " (٢) . فالنفس لها دور في الجمع بين المشبه والمشبّه به .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ لَأ تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءِ إِذَا وَكَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (٣) . يقول الشوكاني: " شبههم بالموتى وبالصم فقال : (فإنك لا تسمع الموتى) إذا دعوتهم ، فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب (ولا تسمع الصم الدعاء) إذا دعوتهم إلى الحق ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها " (٤) .

فقد شبه الكفار الذين لا يستجيبون لله بالموتى وبالصم الذين لا يسمعون الدعاء والنداء بجامع أن كل منهم لا يسمع ولا يستجيب للدعاء والنداء .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَأ تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءِ إِذَا وَكَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (٥) .

(١) فتح القدير ج ٥ / ١٦٩ .

(٢) من بلاغة القرآن ، بدوي : ١٩٣ .

(٣) الروم : آية ٥٢ .

(٤) فتح القدير ج ٤ / ٢٧٧ .

(٥) النمل : آية ٨٠ .

شبه الكفار بالموتى الذين لاحس لهم ولا عقل ، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء إلى الله ، ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيدة فقال : (إذا ولوا مدبرين) أي إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً ، فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً ؟ " (١) . وهذا ما ذهب إليه صاحب الكشاف في توضيحه لهذا التشبيه وأضاف إليه تشبيههم بالعمي في الآية التالية وهي قوله تعالى : " وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ " (٢) . فقال : " شبهوا بالعمي حيث يضلون الطريق ولا يقدر أحد أن ينزع ذلك عنهم وأن يجعلهم هداة بصراء إلا الله - عز وجل - " (٣) .

ثانياً : المجاز

المجاز: "من جرت الطريق، وجاز الموضوع جوازاً، وجاز به وجاوزه وأجاز غيره، وجاهه سار فيه وسلكه وجاوزت الموضوع جوازاً بمعنى جزته والمجاز والمجازاة: الموضوع" (٤) .

وفي أساس البلاغة: أرض مجازة: كثيرة الجوز، وجزت المكان وأجزته، وجاوزته وتجاوزته، قال امرؤ القيس:

فلما أجزنا ساحة الحيّ وانتحي بنا بطنُ خَبْتِ ذِي خَفَافِ عَقَنْقَلِ

وأعانك الله على إجازة الصراط، وهو مجاز القوم ومجازتهم" (٥) .

أما المجاز عند البلاغيين: يقول الجرجاني: "المجاز كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعاً لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز" (٦) وذكر العلاقة بين التعريف اللغوي والتعريف الاصطلاحي للمجاز

(١) فتح القدير ج ٤ / ١٨٢ .

(٢) النمل : آية ٨١ .

(٣) الكشاف ج ٣ / ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

(٤) اللسان: (جوز) .

(٥) أساس البلاغة: (ج و ز) ص ٦٩ .

(٦) أسرار البلاغة: ٣٠٤ .

فقال: "المجاز مفعول من جاز الشيء يجوزُه إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أو لا"^(١) .

وقال السكاكي: "وأما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعه له بالتحقيق استعمالاً في الغير، بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع"^(٢) .

فلو أطلقنا كلمة القمر على صاحب الوجه الحسن نكون قد وضعنا كلمة القمر في غير ما وضعت له، وتجاوزنا بها المعنى الحقيقي إلى معنى آخر وهو المعنى المجازي.

وقال فيه ابن رشيق: "المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعاً في القلوب والأسماع، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ، ثم لم يكن مجالاً محضاً، فهو مجاز لاحتماله وجوه التأويل، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلية تحت المجاز، إلا أنهم خصوا به - أعني اسم المجاز - باباً بعينه وذلك أن يسمى الشيء باسم ما قاربه أو كان منه بسبب، كما قال جرير بن عطية :

إِذَا سَقَطَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ وَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَاباً

أراد المطر لقربه من السماء، ويجوز أن يريد بالسماء السحاب"^(٣) .

وقد ذكر الشوكاني هذا القسم من أقسام علم البيان في تفسيره، وتحدث عن أقسامه كالمجاز العقلي، والمجاز المرسل وعلاقات كل منهما .

المجاز العقلي:

وقد عرفه السكاكي فقال: "المجاز العقلي هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل، إفادة للخلاف لا بواسطة وضع، كقولك: أنبت الربيع البقل،

(١) أسرار البلاغة: ٣٤٢ .

(٢) مفتاح العلوم: ٣٥٩ .

(٣) العمدة: ج ١/١٦٨ .

وشفى الطبيب المريض" (١) .

وهو ما يعرف بمجاز التركيب أو مجاز الإسناد وعلاقته الملابس، وذلك أن يسند الفعل أو شبهه إلى غير ما هو له أصالة لملاسته له" (٢) . وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع وجود قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي" (٣) . والمجاز العقلي له علاقات مختلفة منها :

علاقته السببية :

وذكره الشوكاني باسم الإسناد المجازي في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٤) . علاقته السببية فقال: "أسند الربح إليها على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك وخسرت صفتك وهو من الإسناد المجازي، وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل كما هو مقرر في علم المعاني" (٥) . وهو ما يعرف بالمجاز العقلي وعلاقته هنا علاقة سببية فقد أسند الفعل (ربح) إلى التجارة، وهي السبب في الربح، وكان الأصل أن يسند إلى صاحبها وهو التاجر. ونجد الشوكاني هنا يحدد تعريف المجاز الإسنادي أو المجاز العقلي كما حدده البلاغيون.

وينقل هذا الإسناد بعلاقته السببية عن الزمخشري وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ (٦) . يقول الشوكاني: "وقد أطل المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا وفي نسبته إلى الله سبحانه... وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سبباً فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي" (٧). وفي الكشاف: "وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل

(١) مفتاح العلوم: ٣٩٣ .

(٢) معترك الأقران: ج ١/ ١٨٦ .

(٣) من بلاغة القرآن، علوان: ١٩٩ .

(٤) البقرة: ١١ .

(٥) فتح القدير: ج ١/ ٧٨ .

(٦) البقرة: ٢٦ .

(٧) فتح القدير: ج ١/ ٩٣ .

إلى السبب، لأنه لما ضرب المثل، فضلَّ به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم^(١) .

ومن المجاز العقلي علاقته السببية قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا ﴾^(٢) . يقول الشوكاني: "أي: قال للعملة: انفخوا على هذه الزبر بالكيران (حتى إذا جعله ناراً) أي : جعل ذلك المنفوخ فيه، وهو الزبر ناراً أي: كالنار في حرها، وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز لكونه الأمر بالنفخ"^(٣). فقد اسند فعل الجعل إلى ذي القرنين إسناداً مجازياً علاقته السببية، لأن ذي القرنين هو السبب في الجعل وهو المسئول عن التنفيذ.

علاقته المكانية:

وفيها يسند الفعل إلى المكان الذي وقع فيه الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾^(٤) . وضح الشوكاني علاقة المجاز في الآية من خلال توضيح الإسناد والحقيقة بقوله: "والأنهار جمع نهر، وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر، والمراد الماء الذي يجري فيها، وأسند الجري إليها مجازاً، والجاري حقيقة هو الماء، كما في قوله تعالى: "وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ"^(٥) . أي أهلها"^(٦) .

ويفهم من قول الشوكاني أن المجاز هنا علاقته المكانية إذ أسند الجري إلى الأنهار وهي مكان جري الماء والذي يجري فيها هو الماء على الحقيقة، أما في استشهاده بالآية الثانية وهي: (وأسأل القرية) "فقد وقع في لبس حينما جعل المجاز في قوله تعالى: (وأسأل القرية) عقلياً، إذ أنه مرسل إذ أنه سمي الشيء باسم محله"^(٧) . وذكره السيوطي في المجاز في المفرد أو المجاز اللغوي وعلاقته إطلاق المحل على اسم الحال، وهو التعبير بالقرية عن ساكنيها^(٨) .

(١) الكشاف: ج ١/١١٢ .

(٢) الكهف: ٩٦ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/٣٩٤ .

(٤) البقرة: ٢٥ .

(٥) يوسف: ٨٢ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٩٠ .

(٧) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٧٠١ .

(٨) معترك الأقران: ج ١/١٩٠ .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ ^(١) . يقول الشوكاني نقلاً عن أبي علي الفارسي في قوله: (فسالت أودية) "توسع، أي: سال ماؤها، قال: ومعنى (بقدرها) بقدر مائها لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها" ^(٢) يفهم من ذلك أنه أسند السيلان إلى الأودية مجازاً، والذي يسيل ويتحول إلى سيلاً هو الماء، وقد ذكر هذا أبو السعود فقال: "فإن أريد بها ما يسيل فيها مجازاً فإسناد السيلان إليها حقيقي، وإن أريد معناها الحقيقي، فالإسناد مجازي كما في جري النهر" ^(٣) .

وقد ذكر الشوكاني: التوسع، وهو من السعة: ضد الضيق، والتوسع من توسع، قيل توسعوا في المجالس أي تفسحوا" ^(٤) .

علاقته الزمانية:

وفيه يسند الفعل إلى الزمان الذي وقع فيه الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ ^(٥) .

"أي جعل لعباده الزمان منقسماً إلى قسمين أحدهما: مظلم وهو الليل لأجل يسكن العباد فيه عن الحركة والتعب ويريحون أنفسهم عن الكد والكسب، والآخر: مبصر لأجل يسعون فيه بما يعود على نفعهم وتوفير معاشهم ويحصلون ما يحتاجون إليه في وقت مضيء منير لا يخفى عليهم فيه كبير ولا حقير، وجعله سبحانه للنهار مبصراً مجازاً، والمعنى: أنه مبصر صاحبه كقولهم: نهاره صائم" ^(٦) .

فالنهار لا يبصر ولكن يبصر من هم في النهار فالإسناد هنا إلى زمان الفعل، وهو وقت الإبصار في النهار.

(١) الرعد: ١٧ .

(٢) فتح القدير، ج ٣/٩٤ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ٣/٤٤٩ .

(٤) اللسان: (وسع) .

(٥) يونس: ٦٧ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/٥٨١ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ ﴾^(١) . يقول الشوكاني: "واليوم الأليم هو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازي مبالغة"^(٢) . أي الإسناد العقلي لأنه أسند العذاب إلى اليوم، واليوم هو الزمن الذي يقع فيه العذاب، وعليه فالعلاقة زمانية. وهذا ما ذكره صاحب الكشف فقال: "وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه، فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟ قلت: مجازي مثله، لأن الأليم في الحقيقة هو العذاب، ونظيرهما قولك: نهارك صائم وجدَّ جدَّه"^(٣) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾^(٤) " أي في ذلك المكان وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل، فمعنى تبلوا تذوق وتختبر، وقيل: تعلم، وقيل تتبع وهذا على قراءة من قرأ "تبلو" بالمشناة الفوقية، بإسناد الفعل إلى كل نفس"^(٥) . فهنا مجاز عقلي علاقته الزمنية ويظهر ذلك من قوله: (إسناد الفعل إلى كل نفس) وقوله: (استعارة) والمقصود به المجاز، وقوله (في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان) يدل على علاقة المجاز، والشوكاني ينقل هذا الكلام عن الزمخشري نقلاً يكاد يكون تاماً، ولكن في الكشف "على استعارة اسم المكان للزمان"^(٦) .

وفي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾^(٧) .

" وإسناد الأكل إلى السنين مجاز، والمعنى يأكل الناس فيهن أو يأكل أهلهن ما قدمتم لهن أي : ما ادخرتم لأجلهن فهو من باب: نهاره صائم، ومنه قول الشاعر:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة
وليلك نوم والردى لك لازم"^(٨) .

ومفهوم من كلام الشوكاني أن يأكلن فيه إسناد مجازي وعلاقته الزمانية وذلك من إسناده الأكل إلى السنين، وتمثيله للمجاز أنه من باب: نهاره صائم، وهو ما علاقته الزمانية.

(١) هود: ٢٦ .

(٢) فتح القدير ج٢/٦٢٢ .

(٣) الكشف: ج٢/٣٩٧ .

(٤) يونس: ٣٠ .

(٥) فتح القدير: ج٢/٥٥٦ .

(٦) الكشف: ج٢/٣٦٠ .

(٧) يوسف: ٤٨ .

(٨) فتح القدير: ج٣/٤٠ .

علاقته المصدرية:

وهو أن يسند فيه الفعل إلى المصدر بدلاً من الفاعل الحقيقي ، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١) . يقول الشوكاني: «قرأ الجمهور (نفخةً واحدةً) بالرفع فيهما على أن (نفخة) مرتفعة على النيابة، و(واحدة) تأكيد لها، وحسن تذكير الفعل لوقوع الفصل»^(٢) .

يفهم هذا المجاز من قول الشوكاني فقد جاءت (نفخةً) نيابة عن الفاعل الحقيقي وهو النافخ، ولذا يكون قد أسند الفعل نفخ إلى المصدر (نفخة)، وهو إسناد مجازي علاقته المصدرية.

علاقته المفعولية:

وهو أن يسند فيها الفعل إلى صيغة اسم الفاعل والمراد اسم المفعول ، وهي كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾^(٣) .

قال الشوكاني: «ومعنى (عيشة راضية) مرضية يرضاها صاحبها، قال الزجاج: «أي ذات رضى يرضاها صاحبها، وقيل عيشة راضية : أي فاعلة للرضى، وهو اللين والانقياد لأهلها، والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة»^(٤) .

فقول الشوكاني: معنى (عيشة راضية) مرضية، فكلمة راضية صيغة اسم الفاعل حيث أسند الفعل إلى صيغة اسم الفاعل (راضية)، وأراد صيغة اسم المفعول (مرضية) فالذي يرضى هو صاحب العيشة وليست العيشة نفسها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾^(٥) .

(١) الحاقة: ١٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٣٣٥/٥ .

(٣) القارعة: ٦، ٧ .

(٤) فتح القدير: ج ٥٨١/٥ .

(٥) هود: ٤٣ .

وضح الشوكاني المجاز في الآية من خلال قوله: "ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً على أن يكون عاصم بمعنى معصوم أي: لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله مثل: (ماءٍ دافق) (١) .

و(في عيشة راضية) (٢) . ومنه قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

أي المطعم المكسو" (٣) .

فقد أسند الفعل إلى صيغة اسم الفاعل (عاصم) وأراد صيغة المفعول (معصوم) .

ومنه كما ذكر الشوكاني ، قوله تعالى: ﴿ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ (٤) . إذ يقول: "يقال : ماء دافق أي : مدفوق، مثل (عيشة راضية) أي: مرضية، قال الفراء والأخفش : ماء دافق أي: مصبوب في الرحم، قال الفراء: وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم، كقولهم: سر كاتم، أي: مكتوم، وهم ناصب، أي : منصوب" (٥) .

وقد بين الزمخشري هذا الإسناد فقال: "والدقق صب فيه دفع، ومعنى دافق النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق كاللابن والتامر، أو الإسناد المجازي والدقق في الحقيقة لصاحبه" (٦) .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (٧) .

يقول الشوكاني: "عزم الأمر : جد الأمر، أي جد القتال ووجب وفرض، وأسند العزم إلى الأمر وهو لأصحابه مجازاً" (٨) . فالمقصود أن العزم هو من أهل الأمر وليس من الأمر، يقول

(١) الطارق: ٦ .

(٢) الحاقة: ٢١ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/٦٣٠ .

(٤) الطارق: ٦ .

(٥) فتح القدير: ج ٥/٤٩٧ .

(٦) الكشاف: ج ٤/٥٧٥ .

(٧) محمد: ٢١ .

(٨) فتح القدير: ج ٥/٤٦ .

في لسان العرب نقلاً عن الأزهري: "هو فاعل معناه المفعول، وإنما يُعزم الأمر ولا يُعزم، والعزم للإنسان لا للأمر"^(١).

علاقته الفاعلية:

وهي أن يسند الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل، أي: يسند الفعل إلى صيغة اسم المفعول، والمراد اسم الفاعل:

كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾^(٢). يقول الشوكاني في معنى حجاباً مستوراً: "ومعنى مستوراً: ساتراً، قال الأخفش: أراد ساتراً، والفاعل قد يكون في لفظ المفعول كما تقول: إنك لمشئوم وميمون، وإنما هو شائم ويامن، وقيل: معنى مستوراً: ذا ستر، كقولهم: سيل مفعم: أي ذو إفعام"^(٣). وهذا إسناد مجازي علاقته الفاعلية فقد أسند الفعل على صيغة اسم المفعول (مستوراً) وأراد صيغة اسم الفاعل (ساتراً) فالحجاب يكون ساتراً ولا يكون مستوراً، فكأن بين النبي ﷺ وبين المشركين حجاباً ساتراً فلا يرونه، لإعراضهم عن القرآن الكريم.

المجاز المرسل :

عرفه القزويني بقوله: "والمرسل هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه سموه كذلك لإرساله عن التقييد بعلاقة المشابهة"^(٤). أي "تابعة من كونه غير مرتبط بقيود، فالإرسال في اللغة: الإطلاق وأرسله أطلقه، ولما كانت الاستعارة مقيدة ادعاء أن المشبه من جنس المشبه به كان المجاز المرسل مطلقاً من هذا القيد"^(٥).

ويعرفه الهاشمي بقوله: "المجاز المفرد المرسل: هو الكلمة المستعملة قصداً في غير معناها الأصلي لملاحظة علاقة غير المشابهة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى

(١) اللسان: (عزم) .

(٢) الإسراء: ٤٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٣ / ٢٩١ .

(٤) التلخيص في علوم البلاغة : ٢٩٥ .

(٥) أصول البيان العربي، د. محمد حسين الصغير، ص ٥، الشؤون الثقافية العامة بالعراق.

الأصلي" (١) .

والمجاز المرسل له علاقات كثيرة بسبب إطلاقه، والمقصود بهذه العلاقة "أن يكون هناك تلازم وترباط يجمع بين المعنيين، ويصوغ استعمال أحدهما في موضع الآخر" (٢) .

أي يكون الارتباط بين "المعنى الحقيقي والمعنى المجازي فيصح الانتقال من الأول إلى الثاني" (٣) . وقد وضح الشوكاني هذا النوع من المجاز وبين بعضاً من علاقاته، ومن أهم العلاقات التي ذكرها الشوكاني:

١ - السببية:

هو أن يطلق السبب ويريد المسبب.

ذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٤) . فقال: "أي يجزون جزاءً بسبب جدهم آيات الله، قال مقاتل: يعني القرآن يجحدون أنه من عند الله، وعلى هذا يكون التعبير عن اللغو بالجحد لكونه سبباً له، إقامة للسبب مقام المسبب" (٥) .

فالتعبير عن اللغو بالجحد مجاز مرسل علاقته السببية كما بينها الشوكاني في الآية.

٢ - المسببية:

وهو أن يطلق المسبب ويريد السبب ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (٦) . يقول الشوكاني: "أي ما يكون سبباً للنار تعبيراً بالمسبب عن السبب" (٧) . فالسبب هو أكل مال اليتيم "فعبر بالنار عن مال اليتيم إذ النار مسببة عنه، وفي ذلك تنفير من أكل مال

(١) جواهر البلاغة: ٢٩٢ .

(٢) علم البيان، د. بسيوني عبد الفتاح، ص ١٤٤، مطبعة السعادة، مصر .

(٣) علم البيان، عبد العزيز عتيق، ١٥٦ .

(٤) فصلت: ٢٨ .

(٥) فتح القدير: ج ٤ / ٦١١ .

(٦) النساء: ١٠ .

(٧) فتح القدير: ج ١ / ٥٧٤ .

اليتم... فأضمر سبباً وأظهر مسبباً في موضع السبب ليستحضرا دفعة واحدة، ويقرن بين العمل والجزاء على جهة لا ينفك أحدهما عن الأخرى، وهكذا يرشد المسبب عن سببه^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾^(٢). قال الشوكاني: "فسمى ما أكلوه ناراً لأنه يؤول بهم إليها" فهنا أطلق لفظ المسبب (النار) وأريد به السبب وهو أكل المال رشوة ليكتم آيات الله.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾^(٣).

وضح الشوكاني المجاز المرسل في قوله تعالى: "ابتغاء رحمة من ربك" فقال: "أي لفقد رزق من ربك، ولكنه أقام المسبب الذي هو ابتغاء رحمة الله مقام السبب الذي هو فقد الرزق لأن فاقد الرزق مبتغ له"^(٤). والشوكاني يوافق الزمخشري في توضيح المجاز، ففي الكشاف: "فوضع الابتغاء موضع الفقد، لأن فاقد الرزق مبتغ له، فكان الفقد سبب الابتغاء، والابتغاء مسبباً عنه، فوضع المسبب موضع السبب"^(٥) وأيضاً ذكر ذلك أبو السعود في تفسيره للآية^(٦).

ومثاله في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾^(٧). أي "إذا أردتم القيام، تعبيراً بالمسبب عن السبب"^(٨) فالقيام هو مسبب عن الإرادة.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾^(٩). يقول الشوكاني: "يعني المطر فإنه سبب الأرزاق"^(١٠). فالمطر هو المسبب للرزق.

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن: ١٤٣.

(٢) البقرة: ١٧٤.

(٣) الإسراء: ٢٨.

(٤) فتح القدير: ج ٣/٢٧٩.

(٥) الكشاف: ج ٣/١٤.

(٦) تفسير أبي السعود: ج ٤/١٢٥.

(٧) المائدة: ٦.

(٨) فتح القدير، ج ٢/٢٤.

(٩) غافر: ١٣.

(١٠) فتح القدير: ج ٤/٥٧٦.

٣ - اعتبار ما يؤول إليه ، أو اعتبار ما يكون:

وهو تسمية الشيء بما سيكون عليه ، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ ﴾ (١) . والاستشهاد طلب الشهادة، وسماهما شهيدين قبل الشهادة من مجاز الأول أي باعتبار ما يؤول إليه أمرهما من الشهادة" (٢) . فقد أطلق لفظ الشهيد على الرجلين المراد اختيارهما للشهادة مجاز، وذلك على اعتبار ما سيكونان عليه بعد الشهادة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ (٣) . يقول الشوكاني: "أي رأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة، والمعنى إني أراي أعصر عنبا، فسماه باسم ما يؤول إليه لكونه المقصود من العصر" (٤) . ومعروف أن الخمر لا يعصر وإنما هو عصير العنب فأراد العنب وأتى بلفظ (الخمر) وهو ما يؤول إليه عصر العنب.

ومنه قوله تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ (٥) . ومعنى حلِيم: أن يكون حلِيماً عند كبره، فكأنه بُشِّرَ ببقاء ذلك الغلام حتى يكبر ويصير حلِيماً، لأن الصغير لا يوصف بالحلم" (٦) . فأطلق لفظ الغلام الحلِيم على ما سيصير إليه مستقبلاً.

٤ - اعتبار ما كان:

وفيه يسمى الشيء باعتبار ما كان عليه ، كقوله تعالى: ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ (٧) . وأطلق اسم اليتيم عليهم عند إعطائهم أموالهم، مع أنهم لا يعطونها إلا بعد ارتفاع اسم اليتيم بالبلوغ مجازاً باعتبار ما كانوا عليه" (٨) . فأطلق لفظ اليتيم على اعتبار ما كان عليه قبل أن يصبح راشداً، فإذا أصبح راشداً لا يطلق عليه يتيماً حيث تزول صفة اليتيم عنه، وهذا فيه تليين لقلوب الأولياء، وتذكير لهم بأن يصونوا أموالهم ويعطوهم حقهم كاملاً. يقول الدكتور

(١) البقرة: ٢٨٢ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٤٠٩ .

(٣) يوسف: ٣٦ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/٣٣ .

(٥) الصافات: ١٠٠، ١٠١ .

(٦) فتح القدير: ج ٤/٤٨٠ .

(٧) النساء: ٢ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٥٦٠ .

الدرويش: "إن الله سبحانه لا يأمر بإعطاء اليتامى الصغار أموالهم، فهذا غير معقول، بل الواقع أن الله يأمر بإعطاء اليتامى الصغار أموالهم، فهذا غير معقول، بل الواقع أن الله يأمر بإعطاء الأموال من بلغوا سن الرشد، بعد أن كانوا يتامى: فكلمة اليتامى هنا مجاز مرسل، لأنها استعملت في الراشدين و العلاقة اعتبار ما كانوا عليه"^(١) .

وكشف الشوكاني في موطن آخر علاقة المجاز المرسل طبقاً للمقصود من كلمة (أزواجهن) في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَرْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٢) . إذ يقول: "وقوله (أزواجهن) إن أريد به المطلقون لهن فهو مجاز باعتبار ما كان وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه فهو مجاز باعتبار ما سيكون"^(٣) وقد ذكر هذا المعنى أبو السعود في تفسيره للآية فقال: "فأزواجهن إن أريد بهم المطلقون فالزوجية إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فاعتبار الأخير"^(٤) .

٥ - الكلية:

وهي إطلاق اسم الكل على الجزء ، كقوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾^(٥) . قال الشوكاني في توضيح علاقة المجاز المرسل في الآية: "وإطلاق الأصبع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية، لأن الذي يجعل في الأذن إنما هو رأس الأصبع لا كلها"^(٦) .

فأطلق الكل وهو الأصبع و أراد الجزء وهو رأس الأصبع، فأراد أنه أطلق الكل وأراد الجزء " لأن الأصبع ليست هي التي تجعل في الأذن فذكر الأصابع وأراد الأنامل، وعلاقته الكلية والمجاز هنا أبلغ من الحقيقة، ولذلك عدل عنها إليه، وجمع الأصابع لأنه لم يرد أصبعاً معينة"^(٧) . وبلاغة المجاز هنا في الدلالة على "شدة فزع المنافقين وخوفهم، لدرجة أنهم يدسون الإصبع كلها انتقاء لذلك حتى يتعطل السمع، ويوقف عمل الحاسة، كما أن نسبة الجعل

(١) إعراب القرآن: محيي الدين الدرويش/ مج ٢/ ١٥٠، دار ابن كثير، بيروت ، ط ٥، ١٩٩٦م .

(٢) البقرة: ٢٣٢ .

(٣) فتح القدير: ج ١/ ٣٣٤ .

(٤) تفسير أبي السعود: ج ١/ ٢٧٥ .

(٥) البقرة: ١٩ .

(٦) فتح القدير: ج ١/ ٨١ .

(٧) إعراب القرآن : الدرويش: ج ١/ ٥١، ٥٢ .

للأصابع- دون السبابة- يدل على أنهم من فرط دهشتهم يدخلون أي إصبع كانت ولا يسلكون المسلك المعهود^(١) .

٦ - الجزئية:

وهي أن يكون اللفظ المذكور جزءاً من المعنى المقصود. (أي إطلاق اسم الجزء على الكل) ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾^(٢) . أي "بأنفسكم، تعبيراً بالبعض عن الكل، كقوله: (بما كسبت أيديكم) وقيل: هذا مثل مضروب، يقال: فلان ألقى بيده في أمر كذا إذا استسلم، لأن المستسلم في القتال يلقى سلاحه بيديه، فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان"^(٣) . فعبر بالأيدي وهي الجزء وأراد الأنفس وهي الكل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾^(٤) . يقول الشوكاني: "وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة لما فيه من الخضوع والتذلل"^(٥) . أي مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وهو السجود وأراد الكل وهي الصلاة، وبين الغرض البلاغي من هذه العلاقة المجازية وهي إظهار الخضوع والتذلل. ووضح من الآية أن المقصود بالسجود الصلاة، لأن السجود ليس به تلاوة والتلاوة تكون في القيام في الصلاة.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾^(٦) .

قال الشوكاني: "قيل: إنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة"^(٧) . أي أطلق الجزء وهو الركوع وأراد الكل وهي جميع أركان الصلاة، ثم وضح الغرض من قوله: "مع الراكعين" أن "فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة والخروج إلى المساجد"^(٨) .

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن: ١٤٤ .

(٢) البقرة: ١٩٥ .

(٣) فتح القدير: ج ١ / ٢٦٩ .

(٤) آل عمران: ١١٣ .

(٥) فتح القدير: ج ١ / ٥٠٤ .

(٦) البقرة: ٤٣ .

(٧) فتح القدير: ج ١ / ١١٩ .

(٨) المصدر السابق: نفس الجزء والصفحة .

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾^(١) " واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء"^(٢) . فأطلق الجزء وأراد الكل.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾^(٣) . والمعنى قادرين على " أن جمع بعضها إلى بعض فنردها كما كانت مع لطافتها وصغرها، فكيف بكبار الأعضاء، فنبه سبحانه بالبنان وهي الأصابع على بقية الأعضاء، وأن الاقتدار على بعثها وإرجاعها كما كانت أولى في القدرة من إرجاع الأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق"^(٤) . فقد أطلق لفظ البنان وهو جزء وأراد به بقية الأعضاء وهي الكل فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية، ووضح الشوكاني الفائدة من المجاز كما هو مبين.

٧- الحالية:

وهي إطلاق اسم الحال على المحل ، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٥) .

يقول الشوكاني في توضيح المقصود من (رحمة الله): "أي في جنته ودار كرامته، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لا يستقل بدخول صاحبه الجنة بل لا بد من الرحمة"^(٦) . يفهم من كلام الشوكاني : إطلاق اسم الحال وهو الرحمة وأراد به المحل وهو الجنة.

التي تحل به رحمة الله، "وفي هذا التعبير استحضارهما معاً، توسعاً في المعاني، وثناء في المعطيات"^(٧) . وقال عنها الزمخشري "ففي نعمته وهي الثواب المخلد، فإن قلت: كيف موقع قوله:(هم فيها خالدون) بعد قوله: ففي رحمة الله؟ قلت: موقع الاستئناف، كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقيل: هم فيها خالدون: لا يظعنون

(١) الأنفال: ١٢ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٣٧٠ .

(٣) القيامة: ٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٥/٣٩٨ .

(٥) آل عمران: ١٠٧ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٤٩٩ .

(٧) البيان في ضوء أساليب القرآن: ١٤٨ .

عنها ولا يموتون" (١) . فالمقصود من كلام الزمخشري أنها الجنة فنعمة الله وثوابه المخذ هو الجنة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢) . والزينة ما يتزين به الناس من الملابس، أمروا بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف (٣) . والزينة تكون حالة في الملابس، فأطلق اسم الحال وهي الزينة وأراد المحل وهي الملابس، والزينة لا تؤخذ.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٤) .

والمراد بما نزل من الحق القرآن، فيحمل الذكر المعطوف عليه على ما عداه مما فيه ذكر الله سبحانه باللسان أو خطور بالقلب (٥) . فالمقصود بالحق القرآن، ودليل ذلك عطفه على (ذكر الله)، والحق هو حال من القرآن، فأطلق اسم الحال وأراد المحل.

٨ - المحلية:

وهي تسمية الشيء باسم محله، أي: ذكر المحل ويراد ما يحل به ، كقوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ (٦) . يقول الشوكاني: "أي أهل نادية، والنادي: المجلس الذي يجلس فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة، والمعنى: ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه، ومنه قول الشاعر: واستب بعدك يا كليب المجلس ، أي: أهله" (٧) . فأراد من يحل بالمجلس وهم أهله، فأطلق اسم الشيء أو المحل وأراد ما يحل فيه.

(١) الكشاف: ج ١/ ٣٥١ .

(٢) الأعراف: ٣١ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/ ٢٥٥ .

(٤) الحديد: ١٦ .

(٥) فتح القدير: ج ٥/ ٢٠٦ .

(٦) العلق: ١٧ .

(٧) فتح القدير: ج ٥/ ٥٦٠ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ ^(١) " هذا من تمام قول كبيرهم لهم: أي: قولوا لأبيكم اسأل القرية التي كنا فيها أي مصر، والمراد أهلها أي: اسأل أهل القرية وقيل: هي قرية من قرى مصر نزلوا فيها" ^(٢) . وهو مجاز مرسل علاقته المحلية حيث أطلق اسم المحل وهي القرية وأراد من يحل فيه وهم أهله، "لأن السؤال لا يكون للجما، وإنما هي مكان لمن يسأل" ^(٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(٤) . واليد مجاز عن القدرة والاستيلاء ^(٥) . فاليد هي محل القوة والقدرة، وهو مجاز مرسل علاقته المحلية، حيث ذكر المحل وهي اليد وأراد ما يحل فيه وهي القدرة والاستيلاء .

يقول الدكتور عبد القادر حسين: "صيغة تبارك تدل على غاية الكمال، وتتبئ عن نهاية التعظيم، ولذلك لا يجوز استعمالها في حق غيره سبحانه، فاليد مجاز عن القدرة التامة، والاستيلاء الكامل، لأن أكثر ما تظهر هذه الأشياء يكون في اليد... فالقدرة تحل في اليد، واليد محل لهذه القدرة، فالعلاقة المحلية" ^(٦) .

وفي قوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ ^(٧) . وضح الشوكاني المجاز المرسل وعلاقته في الآية بقوله: "أوزار الحرب التي لا تقوم إلا بها من السلاح والكراع، أسند الوضع إليها، وهو لأهلها على طريق المجاز" ^(٨) . فقوله: (أسند الوضع إليها) أي إلى الحرب وهي المحل، وقوله: (وهو لأهلها على طريق المجاز) هم من يكونون في الحرب، وذلك على طريق المجاز المرسل، والحرب لا تهدأ بنفسها إنما أهلها هم من يوقفونها. أي حتى يضع أهل الحرب السلاح.

(١) يوسف: ٨٢ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/ ٥٨ .

(٣) القرآن والصورة البيانية: ١٨٧ .

(٤) الملك: ١ .

(٥) فتح القدير: ج ٥/ ٣٠٨ .

(٦) القرآن والصورة البيانية: ١٨٨ .

(٧) محمد: ٤ .

(٨) فتح القدير: ج ٥/ ٣٧ .

وهو إطلاق اسم الآلة ويراد الأثر الناتج عنه ، كقوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾^(١) . أي اجعل لي ثناء حسناً في الآخرين الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة^(٢) . أي يبقى أثره وجميع الأمم محبة له وتمسكة به، فأطلق اللسان وهو آلة الكلام وأراد الذكر الحسن والصيت الطيب.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾^(٣) . أي متلبساً بلسانهم متكلماً بلغتهم، لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم^(٤) . حيث أطلق اللسان وهو الآلة وأراد اللغة التي يتكلم بها كل رسول مع قومه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾^(٥) . قال الشوكاني: "وأمرؤا بعضهم أن يأتي به ظاهراً بمرأى من الناس"^(٦) . أي عبر بالعين وهي الآلة المستخدمة في الرؤية، وهي آلة الإبصار. ويقول فيه الزمخشري: "على أعين الناس" في محل الحال بمعنى معايناً مشاهداً: أي بمرأى منهم ومنظر، فإن قلت: فما معنى الاستعلاء في على؟ قلت: هو وارد على طريق المثل: أي يثبتُ إتيانه في الأعين، ويتمكن فيها الراكب على المركوب وتمكنه منه"^(٧) .

ثالثاً : الاستعارة

الاستعارة: "مأخوذة من العارية أي: نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه... واستعاره الشيء، واستعاره منه: طلب منه أن يعيره إياه"^(٨) .

(١) الشعراء: ٨٤ .

(٢) فتح القدير: ج٤ / ١٢٨ .

(٣) إبراهيم: ٤ .

(٤) فتح القدير: ج٣ / ١١٨ .

(٥) الأنبياء: ٦١ .

(٦) فتح القدير: ج٣ / ٥١٧ .

(٧) الكشاف: ج٣ / ١٩٥ .

(٨) اللسان: (عور) .

وقد ذكرها العلماء الأوائل من نحويين ولغويين وغيرهم .

يقول الباقلائي في تعليقه على قول الشاعر: قَيَّدَ الحسنُ عليه الحدقا.

"وذكر الأصمعي وأبو عبيدة وحماد، وقبلهم أبو عمرو: أنه أحسن في هذه اللفظة، وأنه أتبع فلم يُلحق، وذكروه في باب الاستعارة البليغة"^(١) .

وذكر الجاحظ تعريف لها في تعليقه على بعض الأبيات الشعرية فقال: "وجعل المطر بكاء على سبيل الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"^(٢) .

إلا أن هؤلاء لم يذكروا التعريف الصحيح للاستعارة أو أقسامها ولم يضعوها تحت علم البيان أو أي من علوم البلاغة. وهكذا بقي تعريفها غير محدد حتى عرفها عبد القاهر الجرجاني فقال: "الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه"^(٣) .

وقد جعل السكاكي الاستعارة أحد موضوعات "علم البيان" وعرفها فقال: "هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر، مدعيًا دخول المشبه في جنس المشبه به، دالًّا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"^(٤) ، ونقل هذا التعريف الطيبي^(٥) . وهذا التعريف قريب من تعريف الجرجاني.

أما القزويني فقال: "الاستعارة هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له، وقد تقيّد بالتحقيقية، لتحقق معناها حساً أو عقلاً، أي: التي تتناول أمراً معلوماً يمكن أن يُنصَّ عليه ويشار إليه إشارة حسية أو عقلية، فيقال: إن اللفظ نقل من مسماه الأصلي، فجعل اسماً على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه"^(٦) .

-
- (١) إعجاز القرآن، الباقلائي: ص ٧١، ٧٠، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط ٥، ١٩٨١ م .
(٢) البيان والتبيين، الجاحظ، ج ١/١١٠، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م .
(٣) دلائل الإعجاز، الجرجاني، ص ٦٠، شرح محمد أمتنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥ م .
(٤) مفتاح العلوم: ٣٦٩ .
(٥) التبيين في البيان، ص ٣٧٧ .
(٦) الإيضاح: ٢٧٨ .

أما التعريف الذي استقر عليه علماء البلاغة للاستعارة أنها: "اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى الأصلي للكلمة والمعنى الذي نقلت إليه الكلمة مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي" (١) .

يقول الدكتور فضل عباس في قيمة الاستعارة: "ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الاستعارة هي من أدق أساليب البيان تعبيراً، وأرقها تأثيراً، وأجملها تصويراً، وأكملها تأدية للمعنى، ولا غرو فهي منبثقة عن التشبيه... وهل هي في الأصل إلا تشبيه ولكنه تشبيه مضمحل في النفس... فالاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه، فبيئة الاستعارة الأولى التي ولدت فيها ومقوماتها الأساسية هي النفس" (٢) . والاستعارة تفوق التشبيه في مزاياها... فإن حذف أركان التشبيه كلها وبقاء المشبه فقط أو المشبه به فحسب يقوي اتحاد الطرفين ويمزج أحدهما في الآخر كأنهما شيء واحد، بل هما شيء واحد في الظاهر، فضلاً عن الإيجاز المشتمل في الحذف" (٣) .

وقد كانت للشوكاني جهود واضحة في تحديد معالم الاستعارة وتوضيحها، وذكر بعض أنواعها أثناء تفسيره لآيات القرآن الكريم، فذكر من أنواعها المكنية والتبعية والمجردة وكثيراً كان يقول إن في الآية استعارة دون ذكر لنوعها، وأحياناً يذكرها ويشير إلى أن فيها تمثيلاً، وسنوضح ذلك في أثناء حديثنا عن جهوده في هذا المعلم من معالم علم البيان.

الاستعارة المكنية أو (الاستعارة بالكناية) :

وهي ما حذف منها المشبه به وذكر شيء من لوازمه أو صفة من صفاته مع ذكر المشبه كما هو واضح في قول القزويني: "قد يضم التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجرى عليه اسم ذلك الأمر، فيسمى استعارة بالكناية، أو مكنياً عنها" (٤) .

(١) جواهر البلاغة: ٣٠٣، والقرآن والصورة البيانية: ١٩٣، ومن بلاغة القرآن: علوان: ٢١٤ .

(٢) البلاغة فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع: ص ١٥٨، د. فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، ط ٧، ٢٠٠٠ م .

(٣) القرآن والصورة البيانية: ١٩٥ .

(٤) الإيضاح: ٣٠٩ .

كما في قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾^(١) . يقول الشوكاني في توضيح نوع الاستعارة في الآية: "والاشتعال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بأن حذف المشبه به وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبداع الاستعارات وأحسنها، قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثرت جداً: قد اشتعل رأس فلان وأنشد للبيد:

فإن ترى رأسي أمسي واضحاً سلط الشيب عليه فاشتعل.^(٢) .

نجد الشوكاني هنا ذكر نوع الاستعارة، وبين متى يطلق عليها استعارة مكنية بقوله: حذف المشبه به وأداة التشبيه، ثم بين منزلة الاستعارة المكنية بين باقي الاستعارات في أنها من أبداع الاستعارات وأحسنها.

ويقول الزمخشري في تخريج هذه الاستعارة: "شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته، وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس، وأخرج الشيب مميّزاً ولم يصف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا، فمن ثم فصحت هذه الجملة، وشهد لها بالبلاغة"^(٣) . يلاحظ ما بين الشوكاني والزمخشري من توافق في توضيح الاستعارة إلا أن الشوكاني بين نوعها وقيمتها بين الاستعارات.

ويبين دكتور أحمد بدوي الأسرار التي دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقية، ومنها الآية السابقة إذ يقول: "وهنا لا تقف كلمة اشتعل عند معنى انتشر فحسب، ولكنها تحمل معنى ديبب الشيب في الرأس في بطء وثبات، كما تدب النار في الفحم مبطئة، ولكن في دأب واستمرار، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت في قوة لا تبقى ولا تذر، كما يحرق الشيء ما يجاوره من شعر الشباب، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمه، وأتى عليه، وفي إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحي بهذا الشمول الذي التهم كل شيء في الرأس."^(٤)

(١) مريم: ٤ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/٤٠٤ .

(٣) الكشاف: ج ٣/٩٣ .

(٤) من بلاغة القرآن، لأحمد بدوي: ٢١٨ .

ومنها قوله تعالى: ﴿ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ (١) " أي كلما جمعوا للحرب جمعاً وأعدوا له عدة شنت الله جمعهم وذهب بريحهم، فلم يظفروا بطائل ولا عادوا بفائدة بل لا يحصلون من ذلك إلا على الغلب لهم، وهكذا لا يزالون يهيجون الحروب ويجمعون عليها ثم يبطل الله ذلك، والآية مشتملة على استعارة بليغة وأسلوب بديع" (٢).

ويقصد بالاستعارة البليغة الاستعارة المكنية التي شبه فيها الحرب بالنار بجامع الحرق أو القتل في كل، وحذف النار وهي المشبه به وأتى بصفة من صفاتها وهي الإيقاد والإطفاء ثم اشتق منهما أوقدوا وأطفأها. على سبيل الاستعارة المكنية .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ (٣) . والنكث: النقض، وأصله نقض الخيط بعد إبرامه، ثم استعمل في كل نقض، ومنه نقض الأيمان والعهود على طريق الاستعارة" (٤) . الاستعارة المكنية فقد شبه أيمانهم بالخيط الذي ينقض وحذف المشبه به وهو الخيط وجاء بصفة من صفاته وهي النكث أو النقض، وهذا مفهوم تفسير الشوكاني للنكث واستخدامه على طريق الاستعارة.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ (٥) . إذ يقول: "واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الاستعارة والقطع معروف" (٦) . ويبين صاحب الكشاف والاستعارة في الآية السابقة بقوله: "فإن قلت: من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد؟ قلت: من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين... وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها، أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روافده، فينبهوا بتلك الرمزة إلى مكانه" (٧) .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ (٨) .

(١) المائدة: ٦٤ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/ ٧٧ .

(٣) التوبة: ١٢ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/ ٤٣٢ .

(٥) البقرة: ٢٧ .

(٦) فتح القدير: ج ١/ ٩٤ .

(٧) الكشاف: ج ١/ ١١٣ .

(٨) التوبة: ٥ .

يقول الشوكاني: "انسلاخ الشهر تكامله جزءاً فجزءاً إلى أن ينقضي كانسلاخ الجلد عما يحويه، شبه خروج المترمن من زمانه بانفصال المتمكن عن مكانه، وأصله الانسلاخ الواقع بين الحيوان وجلده، فاستعير لانقضاء الأشهر، يقال: سلخت الشهر تسلخه سلخاً وسلوخاً بمعنى خرجت منه، ومنه قول الشاعر:

إذا ما سلخت الشهر أهلت مثله كفى قاتلاً سلخي الشهور وإهلالي

ويقال: سلخت المرأة درعها: نزعته وفي التنزيل: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ (١) «(٢) .

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..﴾ (٣) . يقول الشوكاني: "قالخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وكما قال الشاعر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع (٤) .

وقد نقل الشوكاني هذا الكلام عن ابن جرير، والخشية تصدر عن الإنسان فشبهه الحجارة بالإنسان في الخشية، وحذف المشبه به وهو الإنسان وذكر صفة من صفاته وهي الخشية، على سبيل الاستعارة المكنية.

وقد جعل الزمخشري "الخشية مجازاً عن انقيادها لأمر الله تعالى وأنها لا تمتنع على ما يريد فيها، وقلوب هؤلاء لا تتقاد ولا تفعل ما أمرت به" (٥) .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ (٦) "يقال: بلع الماء يبلعه... والبلع الشرب... واستعير البلع الذي هو من فعل الحيوان للانشف دلالة على أن ذلك ليس كالانشف المعتاد الكائن على سبيل التدرج" (٧) .

(١) يس : ٣٧ .

(٢) فتح القدير ، ج ٢/٤٢٧ .

(٣) البقرة: ٧٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١/١٥٠ .

(٥) الكشاف: ج ١/١٤٥ .

(٦) هود: ٤٤ .

(٧) فتح القدير: ج ٢/٦٣٠ .

وفيه من قول الشوكاني إنه يقصد الاستعارة المكنية، حيث حذف المشبه به وهو الحيوان وذكر صفة من صفاته وهي البلع على سبيل الاستعارة المكنية.

وجاءت أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (١) .

قال الشوكاني: "المفتاح جمع مفتاح بالفتح: وهو المخزن أي: عنده مخازن الغيب، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة، أو جعل مفتاح بكسر الميم، وهو المفتاح، جعل للأمور الغيبية مفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً" (٢) .

فعلى المعنى الأولى شبه الغيب بشيء مادي وحذف المشبه به (الشيء المادي) وجاء بلازمة من لوازمه وهي المخازن على سبيل الاستعارة المكنية، أما المعنى الثاني مثل الأول إلا أن أحد لوازمه هي المفتاح الذي يتوصل به إلى المخازن.

وقد ذكر الزمخشري الاستعارة على المعنى الثاني: "جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة، لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالإغلاق والأقفال" (٣) .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (٤) .

يقول الشوكاني: "وفي إضافة الجناح إلى الذل وجهان: الأول: أنها كإضافة حاتم إلى الجود في قولك: حاتم الجود، فالأصل فيه الجناح الذليل، والثاني سلوك سبيل الاستعارة كأنه تخيل للذل جناحاً ثم أثبت لذلك الجناح خفضاً" (٥) . فعلى الوجه الثاني شبه الذل بالطائر له جناح، وحذف المشبه به، وأبقى لازمة من لوازمه وهي الجناح، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية.

(١) الأنعام: ٥٩ .

(٢) فتح القدير: ج ١٥٨/٢ .

(٣) الكشف: ج ٩٩/٢ .

(٤) الإسراء: ٢٤ .

(٥) فتح القدير: ج ٢٧٥/٣ .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾ (١) . المعنى: أن ذلك علامة دالة على توحيد الله وقدرته ووجوب إلهيته، والسليخ: الكشط والنزع، يقال: سلخه الله من بدنه، ثم يستعمل بمعنى الإخراج، فجعل سبحانه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة كالسليخ من الشيء، وهو استعارة بليغة" (٢) .

أي استعارة مكنية فقد شبه ذهاب الضوء ومجيء الظلمة بسليخ الشاة فحذف المشبه به وجاء بشيء من لوازمه وهو السليخ، "فكلمة نسليخ تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلاً قليلاً، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطن، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل" (٣) .

الاستعارة التبعية:

"وهي ما تقع في غير أسماء الأجناس: كالأفعال، والصفات والمشتقة منها، وكالحروف، بناء على دعوى أن الاستعارة تعتمد التشبيه، والتشبيه يعتمد كون المشبه موصوفاً والأفعال، والصفات المشتقة منها، والحروف عن أن توصف بمعزل، فهذه كلها عن احتمال الاستعارة في أنفسها بمعزل، وإنما المحتمل لها، في الأفعال والصفات المشتقة منها، مصادرها، وفي الحروف، متعلقات معانيها، فتقع الاستعارة هناك ثم تسري فيها" (٤) . أي: "ما كان اللفظ المستعار، أو اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسماً مشتقاً أو فعلاً" (٥) .

وهي كقوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ... ﴾ (٦) . وقد ذكر الشوكاني الاستعارة التبعية بتسميتها في شرحه للآية السابقة، فقال: "والمعنى في الآية: أن الله جعل لكل من الفريقين نصيباً على حسب ما تقتضيه إرادته وحكمته وعبر عن ذلك المجعول لكل فريق من فريقي النساء والرجال بالنصيب مما اكتسبوا على طريق الاستعارة التبعية شبه اقتضاء حال كل فريق لنصيبه باكتسابه إياه" (٧) .

(١) يس: ٣٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/٤٤٠ .

(٣) من بلاغة القرآن، أحمد بدوي: ص ٢١٨ .

(٤) مفتاح العلوم: ٣٨٠ .

(٥) من بلاغة القرآن، محمد ونعمان علوان، ٢٢٢ .

(٦) النساء: ٣٢ .

(٧) فتح القدير: ج ١: ٦١٤، ٦١٥ .

فقد وقعت الاستعارة في الفعل (اكتسب) باعتبار اللفظ المستعار، وهذا ما ذكره من قبل أبو السعود في تفسيره للآية السابقة.^(١)

وفي قوله تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾^(٢) "أي يلبسه مكانه فيصير أسود مظلماً بعدما كان أبيض منيراً، شبه إزالة نور الهدى بالظلمة بتغطية الأشياء الحسية بالأغطية التي تسترهما"^(٣). توضيح الشوكاني في إجراء التشبيه يبين أن المقصود من التشبيه هنا الاستعارة، واستخدام لها الفعل (بغشى) والمقصود به التغطية والإلباس على طريق الاستعارة التبعية، ويؤيد ذلك توضيح أبي السعود للاستعارة في الآية إذ يقول: "استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه إزالة نور الجو بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية، أي يستر النهار والليل، والتركيب وإن احتمل العكس أيضاً بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأول فإن ضوء النهار أيضاً سائر لظلمة الليل إلا أن الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي"^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(٥). قال الشوكاني: "أي جعلوا لله شركاء في الربوبية أو في التسمية، وهي الأصنام، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: (ليضلوا) بفتح الياء، أي: ليضلوا أنفسهم عن سبيل الله، وتكون اللام للعاقبة، أي: ليتعقب جهلهم لله أنداداً ضلالهم، لأن العاقل لا يريد ضلال نفسه، وحسن استعمال لام العاقبة هنا لأنها تشبه الغرض والغاية من جهة حصولها في آخر المراتب، والمشابهة أحد الأمور المصححة للمجاز"^(٦). والمقصود بالجملة الأخيرة الاستعارة، لأن المجاز إذا كانت معه المشابهة فهو الاستعارة، فقد "زوّج المجاز بالتشبيه، فتولد بينهما الاستعارة، فهي مجاز علاقته المشابهة"^(٧). فإذا كانت العلاقة (المشابهة) فالمجاز (استعارة)"^(٨).

وقد ذكر أبو السعود أن الاستعارة في الآية جاءت بطريق الاستعارة التبعية^(٩).

-
- (١) تفسير أبي السعود: ج ١٣١/٢.
 - (٢) الرعد: ٣.
 - (٣) فتح القدير: ج ٨١/٣.
 - (٤) تفسير أبي السعود: ج ٤٣٨/٣.
 - (٥) إبراهيم: ٣٠.
 - (٦) فتح القدير: ج ١٣٧/٣.
 - (٧) الإتيان في علوم القرآن: ج ١١٤/٣.
 - (٨) جواهر البلاغة: ٢٩١.
 - (٩) تفسير أبي السعود: ج ٤٨٦/٣.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (١) .

والمقصود باليوم العقيم"هو يوم القيامة لأنه لا يوم بعده، فكان لهذا الاعتبار عقيماً،
والعقيم في اللغة من لا يكون له ولد، ولما كانت الأيام تتوالى جعل ذلك كهيئة الولادة، ولما لم
يكن بعد ذلك اليوم يوم وصف بالعقم...إن اليوم وصف بالعقم، لأنه لا رأفة فيه ولا رحمة، فكأنه
عقيم من الخير" (٢) .

فالتشبيه في الآية على سبيل الاستعارة، وهي استعارة تبعية إذ وقعت في الصفة المشبهة
(العقيم) فاستعاره حيث لا خير في العقم وذلك لشدة العذاب الذي لا يبقى بعده خير لأهل النار.

وذكره الزمخشري على سبيل المجاز "لأن المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فإن قتلوا
وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز، وقيل: هو الذي لا خير فيه" (٣) .

وجاءت الاستعارة التبعية في الحرف في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ (٤).

يقول الشوكاني: "أي على جذوعها كقوله: "أم لهم سلم يستمعون فيه" (٥) أي عليه، ومنه
قول سويد بن أبي كاهل:

هم صلبوا العبدى في جذع نخلة فلا عطست شيبان إلا بأجدعا

وإنما أثر كلمة (في) للدلالة على استقرارهم عليها كاستقرار المظروف في الظرف" (٦) .

فقوله: (أثر) بمعنى استعار، فاستعار (في) بدلاً من (على) على المجاز وليس على
الحقيقة.

(١) الحج: ٥٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/٥٧٦ .

(٣) الكشاف: ج ٣/٢٣٣ .

(٤) طه: ٧١ .

(٥) الطور: ٣٨ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/٤٧١، ٤٧٢ .

الاستعارة المجردة:

"وهي التي قرنت بما يلائم المستعار له"^(١). وسميت بذلك، لأنها جردت مما يقوى عامل الادعاء فيها"^(٢).

وهي كقوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣). يقول الشوكاني: "أي أذاق أهلها (لباس الجوع والخوف) سمي ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاعة وأصلها الذوق بالفم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين: إدراك اللمس، والذوق"^(٤). ثم يذهب الشوكاني إلى ما ذهب إليه علماء البيان فقال: "وقد أجاب علماء البيان أن هذا من تجريد الاستعارة، وذلك أنه استعار اللباس لما غشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللباس، ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف، لأن إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى عندهم مجرى الحقيقة فيقولون: ذاق فلان البؤس والضرر واذقه غيره، فكانت الاستعارة مجردة، ولو قال فكساها كانت مرشحة، وقيل وترشيع الاستعارة وإن كان مستحسنًا من جهة المبالغة إلا أن للتجريد ترجيحاً من حيث إنه روعي جانب المستعار له فازداد الكلام وضوحاً"^(٥).

يتضح من كلام الشوكاني أنه قام بتخريج الاستعارة بداية، ثم ذكر رأي العلماء فيها من ناحية التجريد أو الترشيح، ووافق وقال بالتجريد لمراعاة جانب المستعار له، فهو قد حد المجردة بالتي يذكر معها ما يلائم المستعار له وعكسها المرشحة التي يذكر معها ما يلائم المستعار منه، ومن جهة أخرى اعتبر المرشحة أقوى من المجردة، وذلك لتحقيق المبالغة والادعاء فيها بين الطرفين إلا أنه رجح المجردة على المرشحة في تخريج الاستعارة لمراعاة جانب المستعار له حتى تتضح صورة الكلام ويزول بذلك الغموض، وهو بهذا يضرب مثلاً

(١) الإيضاح: ٣٠٠، والمطول: ٦٠١.

(٢) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٧٠٦.

(٣) النحل: ١١٢.

(٤) فتح القدير: ج ٢٥٢/٣.

(٥) المصدر السابق: ج ٢٥٢/٣.

عالياً يحتذى به لتمكنه من هذا العلم كعلماء البيان الذين احتذى حذوهم" (١) .

وقد استشهد معظم علماء البيان بالآية السابقة في توضيح الاستعارة المجردة وضبطها، كما في الإيضاح (٢) . والمطول (٣) . والطرز (٤) . وغيره من الكتب، وقد قال في الطراز عن الآية السابقة "انظر إلى ما اشتملت عليه هذه الآية من المجازات البليغة والاستعارات الرشيقة، فقد تضمنت استعارات أربعاً، الأولى منها القرية للأهل، والثانية استعارة الذوق في اللباس، والثالثة استعارة اللباس في الجوع، والرابعة استعارة اللباس في الخوف، فهذه الاستعارات كلها متلائمة، وفيها من التناسب ما لا يخفاء به" (٥) .

الاستعارة المرشحة:

"وهي ما قرنت بما يلائم المستعار منه" (٦) ، كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٧) . وقد وضح الشوكاني الاستعارة في الآية دون أن يشير إلى أنها مرشحة إلا أنه يفهم ذلك من تحليله للاستعارة إذ يقول: "والشراء هنا مستعار للاستبدال، أي استبدلوا الضلالة بالهدى... فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة؟ فلا، لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فبييعوا إيمانهم... وأصل الربح الفضل، والتجارة صناعة التاجر، وأسند الربح إليها على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك وخسرت صفقتك" (٨) . واستشهد القزويني بالآية على الاستعارة المرشحة فقال: "فإنه استعار الاشتراء للاختيار، وقفاه بالربح والتجارة للذين هما من متعلقات الاشتراء، فنظر إلى المستعار منه" (٩) .

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٧٠٧ .

(٢) الإيضاح: ٣٠١ .

(٣) المطول: ٦٠١ .

(٤) الطراز: ١٠٢، ١١٣ .

(٥) الطراز: ١٠٢ .

(٦) الإيضاح: ٣٠١ .

(٧) البقرة: ١٦ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٧٨ .

(٩) الإيضاح: ٣٠٢، والمطول: ٦٠٢ .

يقول ابن عطية: "قالشراء هنا استعارة وتشبيه لما تركوا الهدى وهو معرض لهم ووقعوا بدله في الضلالة ، شبهوا بمن اشترى فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم" (١) وقد وضح أبو السعود الاستعارة المرشحة في الآية السابقة بصورة جلية فقال: "والتجارة صناعة التجار، وهو التصدي للبيع والشراء لتحصيل الربح وهو الفضل على رأس المال... وإسناد عدمه الذي هو عبارة عن الخسران إليها، وهو لأربابها، بناء على التوسع المبني على ما بينهما من الملازمة وفائدته المبالغة في تخسيرهم لما فيه من الإشعار بكثرة الخسار وعمومه المستتبع لسرايته إلى ما يلامسهم، وإيرادهما إثر الاشتراء المستعار للاستبدال المذكور ترشيح للاستعارة" (٢).

وقد ذكر الشوكاني الاستعارة المرشحة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٣) فقال: "والمراد بالرجس: الإثم والذنب والمدنسان للأعراض، والحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه... (ويطهركم تطهيراً) أي يطهركم من الأرجاس والأدران تطهيراً كاملاً، وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ وزجر لفاعلها شديد" (٤) فقد وضح الشوكاني نوع الاستعارة وبين أن المشبه به هي المعصية وأنها قد اقترن بها ما يلائم المشبه به وهو التطهير فجاءت استعارة مرشحة وهي من أقوى الاستعارات يقول ابن أبي الأصابع: "وأجل الاستعارات الاستعارة المرشحة" (٥) .

يقول الزمخشري: "واستعار للذنوب الرجس وللتقوى الطهر، لأن عرض المقترف للمقبات يتلوث بها ويتدنس، كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولى الألباب عما كرهه الله لعباده ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضى لهم وأمرهم به" (٦) فجعل الزمخشري في الآية استعارتين، أما الشوكاني فجعل التطهير ترشيحاً للاستعارة وهو الأولى.

(١) المحرر الوجيز ، ج ٩٨/١ .

(٢) تفسير أبي السعود: ج ٦٨/١ .

(٣) الأحزاب: ٣٣ .

(٤) فتح القدير ج ٣٣٤/٤ .

(٥) التحرير والتعبير، ص ٩٩ .

(٦) الكشاف: ج ٥٦٣/٣ .

الاستعارة التصريحية:

يقول السكاكي في تعريفها: "أن يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه، هو المشبه به" (١) أي ما حذف فيها المشبه، وصرح بالمشبه به.

كما في قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٢) .

يقول الشوكاني: "لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية، جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة، واللام في لتخرج للغرض والغاية... وقيل: إن الظلمة مستعارة للبدعة، والنور مستعار للسنة، وقيل: من الشك إلى اليقين، ولا مانع من إرادة جميع هذه الأمور" (٣)

فقد حذف المشبه وهو الكفر في الأولى وذكر المشبه به وهو الظلمات على سبيل الاستعارة التصريحية، وفي الثانية حذف المشبه وهو الإيمان، وصرح بالمشبه به وهو النور على سبيل الاستعارة التصريحية أيضاً.

ومنها قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (٤)

فشبه الاستبدال بالشراء على سبيل الاستعارة التصريحية، وقد ذكرناها كمثال للاستعارة التبعية يرجع إليها.

ومنها قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ (٥) . قال الشوكاني: "كانت لهم أوتاد يعذب بها الناس، وذلك أنه كان إذا غضب على أحد وتد يديه ورجليه ورأسه على الأرض، وقيل: المراد بالأوتاد: الجموع والجنود الكثيرة، يعني أنهم كانوا يقوون أمره ويشدون سلطانه كما تقوى الأوتاد ما ضربت عليه، فالكلام خارج مخرج الاستعارة على

(١) مفتاح العلوم: ٣٧٣ .

(٢) إبراهيم: ١ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/١١٦، ١١٧ .

(٤) البقرة: ١٦ .

(٥) ص: ١٢ .

هذا" (١) أي الاستعارة التصريحية فقد حذف المشبه وهو الملك وأبقى المشبه به وهو (ذو الأوتاد). يقول الدكتور الدرويش: "في قوله: (ذو الأوتاد) استعارة تصريحية أي ذو الملك الثابت الموطد وأصله من ثبات المطنب بأوتاده" (٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ (٣) الحَرْثُ فِي اللُّغَةِ: الكَسْب، يُقَالُ: هُوَ يَحْرَثُ لِعِيَالِهِ، وَيَحْتَرِثُ: أَي يَكْتَسِبُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الرَّجُلُ حَارِثًا، وَأَصْلُ مَعْنَى الْحَرْثِ، إِقْيَاءُ الْبُذْرِ فِي الْأَرْضِ، فَأُطْلِقُ عَلَى ثَمَرَاتِ الْأَعْمَالِ وَفَوَائِدِهَا بِطَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ، وَالْمَعْنَى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِأَعْمَالِهِ وَكَسْبِهِ ثَوَابَ الْآخِرَةِ يَضَاعَفُ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ الْحَسَنَةَ بَعِشْرَ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ" (٤) فَقَدْ شَبِهَ ثَمَرَاتِ الْأَعْمَالِ وَفَوَائِدِهَا بِالْحَرْثِ، وَحَذَفَ الْمَشْبَهَ وَصَرَحَ بِالْمَشْبَهِ بِهِ وَهُوَ الْحَرْثُ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ، وَقَدْ وَضَحَ الدُّكْتُورُ الدَّرَوِيْشُ نَوْعَ الْاسْتِعَارَةِ فِي الْآيَةِ فَقَالَ: "اسْتِعَارَةُ تَصْرِيحِيَّةٌ شَبِهَ مَا يَعْمَلُهُ الْعَامِلُ مِمَّا يَبْتَغِي بِهِ الْفَائِدَةَ وَالنَّمَاءَ بِالْحَرْثِ، وَالْحَرْثُ فِي الْأَصْلِ إِقْيَاءُ الْبُذْرِ فِي الْأَرْضِ وَيُطْلَقُ عَلَى الزَّرْعِ الْحَاصِلِ مِنْهُ، ثُمَّ حَذَفَ الْمَشْبَهَ وَهُوَ الْعَمَلُ وَأَبْقَى الْمَشْبَهَ بِهِ وَهُوَ الْحَرْثُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نَتَائِجِ الْأَعْمَالِ وَثَمَرَاتِهَا، وَشَبِهَهُ بِالزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ فَائِدَةٌ تَحْصُلُ بِعَمَلِ الدُّنْيَا وَلِذَلِكَ قِيلَ: الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ" (٥)

وقد جعل الزمخشري الصورة البلاغية في الآية مجازاً، على خلاف ما ذهب إليه الشوكاني فقال: "سمي ما يعمله العامل مما يبغى به الفائدة الزكاء حَرْثًا على المجاز" (٦) ولكن ما ذهب إليه الشوكاني أرجح لأن المجاز هنا فيه المشابهة وإذا اقترنت به المشابهة سمي استعارة.

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (٧) يقول الشوكاني: "سمي ذلك لباساً لأنه يظهر به عليهم من الهزال وشحوبية اللون وسوء الحال ما

(١) فتح القدير: ج٤/٥٠٣ .

(٢) إعراب القرآن، الدرويش: ج٨/٣٣٨ .

(٣) الشورى: ٢٠ .

(٤) فتح القدير: ج٤/٦٣٣ .

(٥) إعراب القرآن ، الدرويش: ج٩/٢٨ .

(٦) الكشاف: ج٤/١٣٠ .

(٧) النحل: ١١٢ .

هو كاللباس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الإذاعة وأصلها الذوق بالفم، ثم استعيرت لمطلق الاتصال مع إنبائها بشدة الإصابة لما فيها من اجتماع الإدراكين: إدراك اللمس، والذوق" (١) .

فشبه أثر الجوع والخوف باللباس، فحذف المشبه وصرح بالمشبه به وهو اللباس، ووجه الشبه إحاطة كل منهما بالشيء من كل جانب. وقد ذكرناه كشاهد على الاستعارة المجردة، فهي استعارة تصريحية مجردة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (٢) يعني آدم، خلقه الله من أديم الأرض، والمعنى: أنشأكم منها إنشاء، فاستعير الإنبات للإنشاء لكونه أدل على الحدوث والتكوين" (٣) فقد شبه خلق الإنسان بالنبات في أن كل منهما فيه الحدوث والتكوين، فهي "استعارة تصريحية لأنه شبههم بالنبات، فقد استعار الإنبات للإنشاء كما يقال زرعك الله للخير، وكانت هذه الاستعارة ذات فائدة لأنها دلت على الحدوث فإنهم إذا كانوا نباتاً محدثين لا محالة حدوث النبات" (٤) .

الاستعارة التمثيلية:

وهي المجاز المركب كما سماها القزويني فقال: "وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبه في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه" (٥)

وبعد أن أورد أمثلة لها قال: "وكل هذا يسمى التمثيل على سبيل الاستعارة وقد يسمى التمثيل مطلقاً" (٦) .

(١) فتح القدير: ج ٢٥٢/٣ .

(٢) نوح: ١٧ .

(٣) فتح القدير: ج ٣٥٥/٥ .

(٤) إعراب القرآن: الدرويش: ج ٢٢٩/١ .

(٥) الإيضاح: ٣٠٤، ٣٠٥ .

(٦) الإيضاح: ٣٠٧ .

ولعل هذا ما قصده الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً
وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾ (١) .

إذ يقول: "الحبل لفظ مشترك، وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى
البيعة، وهو إما تمثيل أو استعارة، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين
الإسلام أو بالقرآن ونهاهم عن التفرق الناشيء عن الاختلاف في الدين، ثم أمرهم
أن يذكروا نعمة الله عليهم وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام، وهو أنهم
كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً فأصبحوا بسبب
هذه النعمة إخواناً" (٢) .

فلعله أراد بقوله: إما تمثيل أو استعارة، الاستعارة التمثيلية التي يكون فيها تشبيه منتزع
من صورتين بآخر مثله "وهي التي تقع في التصريحية لكنها هنا تختلف عن سابقتها لأننا حينما
نعيد الاستعارة إلى أصلها التشبيه يظهر لنا كما ورد في قوله تعالى: "لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ" إنه تشبيه مفرد أي الضلال بالظلمات، والإيمان بالنور، وهناك قسم آخر في
التصريحية يكون التشبيه فيه تشبيه صورة بصورة أي مركباً، وعليه يحتاج الأمر قبل تخريج
الاستعارة أن تظهر التشبيه التمثيلي فيها حتى يتم تحديد صورة الطرفين، وعليه كانت الاستعارة
تمثيلية، وهذا ما قصده الشوكاني " (٣) .

وهذا ما قال عنه الجرجاني: " التمثيل الذي يكون مجازاً لمجئك به على حد
الاستعارة" (٤) .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ (٥) يقول
الشوكاني: "فتزل قدم من اتخذ يمينه دخلاً عن محجة الحق بعد ثبوتها عليها ورسوخها
فيها... وهذا استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه، لأن القدم إذا زلت نقلت
الإنسان من حال خير إلى حال شر، ويقال لمن أخطأ في شيء: زلت به قدمه ومنه قول الشاعر:

(١) آل عمران: ١٠٣ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٤٩٥ .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٧٠٨ .

(٤) دلائل الإعجاز: ٦١ .

(٥) النحل: ٩٤ .

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل (١)

فجاءت الاستعارة على طريق الاستعارة التمثيلية، بتمثيل حال المستقيم في حياته إذا وقع في أمر عظيم، يقدم الإنسان عندما تنزل عن الطريق فتتحول من حال إلى آخر، وهي استعارة تصريحية حيث حذف المشبه وصرح بالمشبه به.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (٢) قال الشوكاني: "القبضة في اللغة ما قبضت عليه بجميع كفك، فأخبر سبحانه عن عظيم قدرته بأن الأرض كلها مع عظمها وكثافتها في مقدوره كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه، كما يقولون: هو في يد فلان وفي قبضته للشيء الذي يهون عليه التصرف فيه وإن لم يقبض عليه" (٣) وهو استعارة تمثيلية فقد شبه الأرض وهي تحت تصرف المولى سبحانه ورهن إرادته، بالشيء يكون في قبضة الممسك به، فهو متمكن منه بصرفه كيف شاء، ثم حذف المشبه واستعير المشبه به للمشبه" (٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ استعارة تمثيلية أيضاً.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (٥).

يقول الشوكاني: "ذكر الشراء تمثيل كما في قوله: ﴿أَوْلَيْتُكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ (٦) مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء، وأصل الشراء بين العباد: هو إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه أو أنفع منه، فهو لاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين" (٧) فالمقصود بالتمثيل هنا الاستعارة التمثيلية، حيث أن التشبيه في الآية من تشبيه المركب بالمركب.

(١) فتح القدير: ج ٣ / ٢٤١ .

(٢) الزمر: ٦٧ .

(٣) فتح القدير: ج ٤ / ٥٦٤، ٥٦٥ .

(٤) البيان في ضوء أساليب القرآن: ١٨٦ .

(٥) التوبة: ١١١ .

(٦) البقرة: ١٦ .

(٧) فتح القدير: ج ٣ / ٥١٥ .

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾^(١) ومعنى الآية التشبيه، شبه تعالى السريع الفهم بالبلد الطيب والبلد الخبيث ذكره النحاس، وقيل: هذا مثل للقلوب فشبه القلب القابل للوعظ بالبلد الطيب والنائي عنه بالبلد الخبيث^(٢) فهو تشبيه مركب بمركب كما هو واضح على سبيل الاستعارة التمثيلية.

الاستعارة التخيلية:

يعرفها العلوي بقوله: "أما الاستعارة الخيالية الوهمية، فهي أن تستعيد لفظاً دالاً على حقيقة خيالية تقدرها في الوهم، ثم تردفها بذكر المستعار له، إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها"^(٣).

وقد جعلها القزويني قرينة للاستعارة المكنية فقال: "وقد يضمن التشبيه في النفس، فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجرى عليه اسم ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنياً عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية"^(٤) والمقصود بالأمر هنا قرينة الاستعارة المكنية فهي تخيلية عند القزويني.

وقد وضح الشوكاني هذه الاستعارة في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٥) فإن الله سبحانه قد: "ذكر تعظيم كتابه الكريم وأخبر عن جلالته وأنه حقيق بأن تخشع له القلوب وترق له الأفتدة فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيت مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعاً متصدعاً، أي: متشققاً من خشية الله سبحانه، حذراً من عقابه وخوفاً من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخيل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب"^(٦) فقد شبه الجبل في خشوعه وتصدعه وخوفه من الله سبحانه بالإنسان الخاشع الخائف، على سبيل

(١) الأعراف: ٥٨ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٢٧٣ .

(٣) الطراز: ١١١ .

(٤) الإيضاح: ٣٠٩ .

(٥) الحشر: ٢١ .

(٦) فتح القدير: ج ٥/٢٤٧ .

الاستعارة التخيلية حيث أن الجبل ليس له مشاعر وأحاسيس ليكون لديه الخشية والخوف، كما هو معروف عند الناس.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾^(١).

يقول الشوكاني: " جملة (يد الله فوق أيديهم) مستأنفة لتقرير ما قبلها على طريق التخييل والمعنى: أن عقد الميثاق مع رسول الله ﷺ كعقده مع الله سبحانه وتعالى عن غير تفاوت" ^(٢) فقد شبه من يبايعون الرسول من الصحابة في بيعة الرضوان، كأنهم يبايعون الله سبحانه، على سبيل الاستعارة، وذكر قرينة الاستعارة على سبيل التخييل، بذكر (يد الله فوق أيديهم)، والله سبحانه ليس كمثل شيء.

رابعاً : الكناية

الكناية في اللغة: "أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنى عن الأمر بغيره، يكنى كناية، وتكنى: تستر، من كنى عنه إذا ورى، أو من الكنية"^(٣)

وقد ذكر الشوكاني المعنى اللغوي لها في تفسيره لقوله تعالى: "أو أكننتم في أنفسكم"^(٤).

قال: "قوله (أكننتم) معناه سترتم وأضمرتم من التزوج بعد انقضاء العدة، والإكنان التستر والإخفاء، يقال: أكننته وكننته بمعنى واحد، ومنه: بيض مكنون، ودر مكنون، ومنه أيضاً أكنن البيت صاحبه أي ستره"^(٥).

الكناية عند البلاغيين:

عرفها السكاكي بقوله: "هي ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، لينتقل من المذكور إلى المتروك، كما تقول: فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه،

(١) الفتح: ١٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٥٨/٥ .

(٣) اللسان: (كنى) .

(٤) البقرة: ٢٣٥ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٣٤٣ .

وهو طول القامة" (١) .

ثم يقول: "وسمي هذا النوع كناية، لما فيه من إخفاء وجه التصريح، ودلالة: كنى على ذلك، لأن: ك، ن، ي، كيفما تركيبت، دارت مع تأدية معنى الخفاء" (٢).

وقد عرفها الجرجاني من قبله فقال: "المراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه" (٣).

أما القزويني فكان تعريفه للكناية أكثر شمولاً من التعريفات السابقة، فقد عرفها بقوله: "لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ" (٤) أي جواز إرادة معناه الأصلي.

وعرفها السبكي فقال: الكناية لفظ استعمل في لازم معناه مراداً باستعماله فيه إفادة ملزومة. والكناية في الغالب أريد بها إفادة ملزوم معناها لا لازمة، وقد يكون الأمر بالعكس" (٥).

وقد كان للشوكاني باعاً طويلاً في تخريج الكناية بعد عرضه للمعنى اللغوي في الآيات وتوضيحها بما يطابق تعريفها الاصطلاحي، وأحياناً يذكر أن في الآية كناية دون توضيحها بصورة جلية، إضافة إلى أنه لم يذكر أقسام الكناية الثلاثة عند تخريجه لها.

ونلاحظ أنه ذكرها في آيات كثيرة من القرآن الكريم سنذكر منها ما يبين تمكنه من هذه الصورة من صور البيان.

فمن هذه الكنايات قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ (٦) .

(١) مفتاح العلوم: ٤٠٢ .

(٢) المصدر السابق: ٤٠٢ .

(٣) دلائل الإعجاز: ٦٠، ٥٩ .

(٤) الإيضاح: ٣١٨ .

(٥) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، السبكي ج ٢/٢٠٦، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، ط ١، ٢٠٠٣م.

(٦) آل عمران: ٣٢ .

يقول الشوكاني: "الخوان كثير الخيانة، والأثيم كثير الإثم، وعدم المحبة كناية عن البغض" (١) فالله سبحانه يبغض كل خوان كثير الخيانة للأمانات ومنها أوامر الله سبحانه ونواهيه.

ومثالها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣) "نفي المحبة كناية عن البغض والسخط" (٤) ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ الْغَائِطِ... ﴾ (٥) يقول الشوكاني في المقصود بالغائط: "هو المكان المنخفض، والمجيء منه كناية عن الحدث، والجمع الغيطان والأغواط، وكانت العرب تقصد هذا الصنف من المواضع لقضاء الحاجة تستراً عن أعين الناس، ثم سمي الحدث الخارجي من الإنسان غائطاً توسعاً، ويدخل في الغائط جميع الأحداث الناقضة للوضوء" (٦).

نلاحظ هنا كيف خرج الشوكاني الكناية حيث وضح المعنى اللغوي ثم بيّن كيف وصلت هذه التسمية وأصبح يكنى بها عن الحدث.

وقد ذكر القرآن الكريم الكناية عن (الجماع) باللمس، والمضاجع، والغشيان وغيرها من الكنايات.

وقد وضحها الشوكاني في تخريجه للكناية في الآيات التي وردت فيها، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا ﴾ (٧) فقال: "والتغشي: كناية عن الوقاع أي: فلما جامعها، (حملت حملاً خفياً) علقت به بعد الجماع ووصفه بالخفة لأنه عند إلقاء النطفة أخف منه عند كونه علقه، وعند كونه علقه أخف منه عند كونه مضغة، وعند كونه مضغة أخف مما بعده" (٨).

(١) فتح القدير: ج ١/٦٨٢ .

(٢) الحج: ٣٨ .

(٣) آل عمران: ٣٢ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٤٥٢ .

(٥) النساء: ٤٣ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٦٢٧ .

(٧) الأعراف: ١٨٩ .

(٨) فتح القدير: ج ٢/٣٤٨ .

أما الكناية عن (الجماع) باللمس ففي قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ (١) قال الشوكاني أن معناها " من قبل أن تجامعهن، فكنى عن ذلك بلفظ المس " (٢).

أما الكناية عنه بالمضاجع ففي قوله تعالى: ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ (٣). يقال: "هجره أي تباعد عنه، والمضاجع: جمع مضجع وهو محل الاضطجاع، أي: تباعدوا عن مضاجعتهن ولا تدخلوهن تحت ما تجعلونه عليكم حال الاضطجاع من الثياب، وقيل: هو أنه يوليها ظهره عند الاضطجاع، وقيل: هو كناية عن ترك جماعها" (٤) فعلى الرأي الأخير يكون قد كنى عن الجماع بالمضاجع.

وجاء أيضاً كناية عنه بالرفث في قوله تعالى: ﴿ أَحَلِّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾ (٥) قال الشوكاني: "والرفث كناية عن الجماع، قال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته" (٦) ويقول الزجاج: "والمعنى ههنا كناية عن الجماع، أي أحل لكم ليلة الصيام الجماع" (٧).

وكنى أيضاً عن الجماع بالمباشرة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ (٨). المراد بالمباشرة هنا الجماع" (٩).

وكنى عنه أيضاً بالإتيان كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ (١٠) قال الشوكاني: "أي: فجامعوهن، وكنى عنه بالإتيان، والمراد أنهم يجامعونهن في المآتى الذي أباحه الله" (١١).

(١) الأحزاب: ٤٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٤ / ٣٤٨ .

(٣) النساء: ٣٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١ / ٦١٦ .

(٥) البقرة: ١٨٧ .

(٦) فتح القدير: ج ١ / ٢٥٩ .

(٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ١ / ٢٢١ .

(٨) البقرة: ١٨٧ .

(٩) فتح القدير: ج ١ / ٢٦٠ .

(١٠) البقرة: ٢٢٢ .

(١١) فتح القدير: ج ١ / ٣١١ .

وهذه الكناية تدل على استخدام القرآن الكريم ألفاظاً مهذبة بعيدة عن الفحش، فالكناية "تضم في دائرتها التعبير الذي يترك ظلالاً خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، فيتشعب المعنى ويتسع، ويزيد بالإيحاء من دلالة الكلام، وإن كان المعنى شريفاً، واللفظ مقبولاً" (١).

ومن الكنايات الجميلة ما نقله الشوكاني عن القفال في قوله تعالى: ﴿وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ...﴾ (٢) ففي معنى خفض الجناح وجهين، الأول: أن الطائر إذا ضم فراخه إليه للتربية خفض لها جناحه، فلماذا صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير، فكأنه قال للولد: اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعل ذلك بك في حال صغرك، والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد النزول خفض جناحه فصار خفض الجناح كناية عن التواضع وترك الارتفاع (٣).

ونلاحظ تمكن الشوكاني من تخريج الكناية في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ (٤).

أي نقويك به، فشد العضد كناية عن التقوية، ويقال في دعاء الخير: شد الله عضدك، وفي ضده فت الله في عضدك (٥) فهو يأتي بالمعنى ومضاده في توضيح الكناية، ويدل عليه من أقوال العرب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ (٦) يقول الشوكاني: "أي عجز عن تدبيرهم وحزن وضاق صدره، وضيق الذراع كناية عن العجز، كما يقال في الكناية عن الفقر ضاقت يده" (٧).

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨). أي

(١) القرآن والصورة البيانية: ٢٦٢، ٢٦٣.

(٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) فتح القدير: ج ٣/ ٢٧٥.

(٤) القصص: ٣٥.

(٥) فتح القدير: ج ٤/ ٢٠٨.

(٦) العنكبوت: ٣٣.

(٧) فتح القدير: ج ٤/ ٢٤٢.

(٨) النحل: ٥٨.

بما يحصل من الغم، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد أسود وجهه غماً وحرناً قال الزجاج، وقال الماوردي: بل المراد سواد اللون حقيقة قال: وهو قول الجمهور، والأولى أولى فإن المعلوم بالوجدان أن من غضب وحزن واغتم لا يحصل في لونه إلى مجرد التغيير وظهور الكناية والانكسار لا السواد الحقيقي" (١).

ونجد الشوكاني يذكر تخريج أكثر من وجه للكناية الواحدة، ثم يرجح أحداها على الأخرى ويبين السبب في ذلك، كتخريجه للكناية في قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ (٢) إذ يقول: "يقال ثنى صدره عن الشيء إذا زور عنه وانحرف منه فيكون في الكلام كناية عن الإعراض، لأن من أعرض عن الشيء ثنى منه صدره، وطوى عنه كشحه، وقيل: معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقدونه من الكفر كما كان دأب المنافقين، والوجه الثاني أولى ويؤيده قوله: (ليستخفوا منه) أي ليستخفوا من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين أو ليستخفوا من رسول الله ﷺ" (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ (٤)، يبين الشوكاني المعنى اللغوي ثم يخرج الكناية كما ذكرها السابقون ويرجح أحداها على الأخرى فيقول: "أي زرق العيون، والزرقاة الخضرة في العين كعين السنور والعرب تتشأم بزرقاة العين، وقال الفراء: زرقاً أي: عمياء، وقال الأزهري: عطاشاً، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقاة، وقيل: إنه كنى بقوله: زرقاً، عن الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة، وقيل: هو كناية عن شحوص البصر من شدة الحرص... والقول الأول أولى" (٥).

ومن الكناية قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ (٦) فالشوكاني يرى أن العض هنا على الحقيقة ولكن يورد القول بأنها

(١) فتح القدير: ج ٣/٢١٥ .

(٢) هود: ٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/٦٠٧ .

(٤) طه: ١٠٢ .

(٥) فتح القدير: ج ٣/٤٨٣ .

(٦) الفرقان: ٢٧ .

كناية فيقول: "الظاهر أن العض هنا حقيقة ولا مانع من ذلك ولا موجب لتأويله، وقيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل" (١)، نعم قد يكون العض حقيقة ولكن هذا الفعل لم يكن ليحدث لولا أن هناك ندم وغيظ وحسرة على اتخاذ الشيطان خليلاً، وترك النبي وعدم إتباعه.

ولعل الشوكاني يشير إلى قول الزمخشري في تخريج الكناية بقوله (قيل) فقد قال الزمخشري: "عض الديدن والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرْم (٢) وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادفها فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكنى عنه" (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (٤) يقول الشوكاني في قوله: (ويقبضون أيديهم): "أي يشحون فيما ينبغي إخراجها من المال في الصدقة والصلة والجهاد، فالقبض كناية عن الشح، كما أن البسط كناية عن الكرم" (٥) و نلاحظ هنا أن "هذا تخريج واضح للكناية إذ أنه لم يكتف بها بل أكدها بأن وضحا أكثر حينما أتى بما يضادها حتى يثبت المعنى" (٦).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ (٧).

قال الشوكاني موضحاً الكناية في الآية: "قوله: (لا يظلمون) أي هؤلاء المزكون لأنفسهم (فتيلاً) وهو الخيط الذي في نواة التمر، وقيل: القشرة التي حول النواة، وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفيك من الوسخ إذا فتلتهمما، فهو فتيل بمعنى مفتول، والمراد هنا الكناية عن

(١) فتح القدير: ج ٨٨/٤ .

(٢) الأرْم: كركع الأضراس .

(٣) الكشف: ج ٣٢٦/٣ .

(٤) التوبة: ٦٧ .

(٥) فتح القدير: ج ٤٧٩/٢، ٤٨٠ .

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٧١١ .

(٧) النساء: ٤٩ .

الشيء الحقيق" (١).

وقوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ (٢) يقول الشوكاني: "وذكر الغداة والعشي كناية عن الاستمرار على الدعاء في جميع الأوقات" (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ (٤)، معنى تقعد: تصير، من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها خربة، وليس المراد حقيقة القعود المقابل للقيام، وقيل: هو كناية عن عدم القدرة على تحصيل الخيرات، فإن السعي فيه إنما يأتى بالقيام والعجز عنه يلزمه أن يكون قاعداً عن الطلب" (٥).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ﴾ (٦) قوله: (ولما يعلم) كناية عن نفي المعلوم، وهو الجهاد، والمعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر: أي الجمع بينهما" (٧) فالله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء، فكنى بقوله (ولما يعلم) عن الجهاد، فهو يعلم من يجاهد من لا يجاهد، فهي "بمعنى: ولما تجاهدوا، لأن العلم متعلق بالمعلوم، فنزل نفي العلم منزلة نفي متعلقة، لأنه مننف باننفائه: يقول الرجل: ما علم الله في فلان خيراً: يريد ما فيه خير حتى يعلمه" (٨).

وأشار الشوكاني إلى الكناية في قوله تعالى: ﴿ تَخْرُجُ بَيضًا مِنْ غَيْرِ سُوءِ آيَةٍ أُخْرَى ﴾ (٩) فقال: "والسوء: العيب، كنى به عن البرص أي تخرج بيضاء ساطعاً نورها تضيء بالليل والنهار كضوء الشمس من غير برص" (١٠) فأراد بالكناية هنا نفي إصابة يد موسى عليه السلام بالبرص وإثبات المعجزة له، وتخريج الشوكاني للكناية ذكره الزمخشري فقال: "السوء

(١) فتح القدير: ج ١/٦٣٨ .

(٢) الكهف: ٢٨ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/٣٥٥ .

(٤) الإسراء: ٢٢ .

(٥) فتح القدير: ج ٣/٢٧٤ .

(٦) آل عمران: ١٤٢ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٥١٨ .

(٨) الكشاف: ج ١/٣٦٩ .

(٩) طه: ٢٢ .

(١٠) فتح القدير: ج ٣/٤٥٥ .

الرداءة والقيح في كل شيء، فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة... والبرص أبغض شيء إلى العرب وبهم عنه نفرة عظيمة وأسماعهم لاسمه مجاجة، فكان جديراً بأن يكنى عنه، ولا نرى أحسن ولا أطف ولا أحر للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه" (١).

ومن الكنايات التي بينها الشوكاني الكناية في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ (٢) يقول: "أي اذكر قصته إذ قال لأهله والمراد بأهله امرأته، في مسيره من مدين إلى مصر، ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب، فكنى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة" (٣) ويؤيد ذلك قوله بعدها: (امكثوا) فهي للكثرة أو الجماعة.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ (٤) أي ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، أي: في اللوح المحفوظ، قال الفراء: يريد آخر غير الأول فكنى عنه بالضمير كأنه الأول، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول، كأنه قال: ولا ينقص من عمر معمر، فالكناية في عمره ترجع إلى آخر غير الأول" (٥).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ﴾ (٦) أي: قل هو شيء يتأذى به، أي برائحته، والأذى كناية عن القذر، ويطلق على القول المكروه" (٧) فقد استخدم القرآن الكريم كلمة أطف من كلمة القذر، وهي (أذى) ليدلل على جمال أسلوب القرآن الكريم واستخدام الألفاظ في موضعها من الكلام لتتناسب مع المقام.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٨) الضمير راجع على الصلاة وإن كان الصبر مراداً معها لكن لما كانت أكد وأعم تكليفاً وأكثر

(١) الكشف: ج ٣/١٤١ .

(٢) النمل: ٧ .

(٣) فتح القدير: ج ٤/١٥٣ .

(٤) فاطر: ١١ .

(٥) فتح القدير: ج ٤/٤٠٧، وانظر معاني القرآن للفراء، ج ٢/٣٦٨ .

(٦) البقرة: ٢٢٢ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٣١٠ .

(٨) البقرة: ٤٥ .

ثواباً كانت الكناية بالضمير عنها" (١) فالضمير في (إنها) يرجع إلى الصلاة فكنى عنها لأن إقامتها والدوام عليها يعود المسلم الصبر، وهي ركن من أركان الإسلام وتركها يوقع الإنسان في الكفر أو المعصية، فكانت الكناية عنها بالضمير لقيمتها ومكانتها.

كذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ ﴾ (٢) أي ومع ذلك أخاف أن يأكله الذنب، قال يعقوب هذا تخوفاً عليه منهم، فكنى عن ذلك بالذنب" (٣) فلم يريد أن يظهر لأولاده خوفه على يوسف منهم، فذكر الخوف من الذنب كناية عن خوفه عليه من أولاده بأن يفعلوا بيوسف سوءاً.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴾ (٤) فالآية هنا دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذي أضل في الدنيا، و(فلان) كناية عن الأعلام... وقيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم، وقيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عن من يعقل من الإناث وأما فلان و(فلانة) كناية عن غير العقلاء" (٥)

ولعل ما ذهب إليه الشوكاني أولى لأن الأمر لا يحتاج إلى كل هذه التأويلات، فظاهر الآية واضح.

وهذا ما قال به الزمخشري: "فلان" كناية عن الأعلام، كما أن (الهن) كناية عن الأجناس، فإن أريد بالظالم عقبة {عقبة بن أبي معيط} فالمعنى: يا ليتني لم أتخذ (أبياً) {أبي بن خلف} خليلاً فكنى عن اسمه، وإن أريد به الجنس فكل من اتخذ من المضلين خليلاً كان لخليله اسم (علم) لا محالة فجعله كناية عنه" (٦)

وأشار الشوكاني إلى الكناية في قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا نَغْوًا ﴾ (٧) فقال: "هو الهذر من الكلام الذي يلغى ولا طائل تحته، وهو كناية عن عدم صدور اللغو منهم" (٨).

(١) فتح القدير: ج ١/١٢١ .

(٢) يوسف: ١٣ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/١٣ .

(٤) الفرقان: ٢٨ .

(٥) فتح القدير: ج ٤/٨٩ .

(٦) الكشاف: ج ٣/٣٢٧ .

(٧) مريم: ٦٢ .

(٨) فتح القدير: ج ٣/٤٢٧ .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(١) فيه كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾^(٣) يقول الشوكاني: "أي ما كان لهم دخولها إلا حال خوفهم، وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد وبين كافر وكافر، كما يفيد عموم اللفظ ولا ينافيه خصوص السبب... وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا عن دخول مساجدنا"^(٤) فكنى هنا في قوله: (ما كان لهم أن يدخلوها) عن وجوب منع المسلمين للكفار ومن يمنع ذكر الله في المساجد من أن يدخل مساجد المسلمين.

خامساً : التعريض

التعريض في اللغة: عرّض لفلان وبه: إذا قال فيه قولاً وهو يعيبه، يقال: عرّض تعريضاً، إذا لم يبين، والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض: التورية بالشيء عن الشيء^(٥).

أما التعريض عند البلاغيين: فقد عرفه ابن الأثير فقال: "هو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم، لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب: والله إني لمحتاج وليس في يدي شيء وأنا عريان والبرد قد آذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دل عليه من طريق المفهوم، وإنما سمي التعريض تعريضاً لأن المعنى فيه يفهم من عرضه: أي من جانبه، وعرّض كل شيء: جانبه"^(٦)، ونقل جزءاً من هذا التعريف التفتازاني في المطول^(٧).

(١) البقرة: ١٧٤ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٢٤٠ .

(٣) البقرة: ١١٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١/١٨٩ .

(٥) اللسان: (عرض) .

(٦) المثل السائر، ابن الأثير: ج ٢/١٨٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت،

١٩٩٠م .

(٧) المطول: ٦٣٧ .

وعرفه العلوي بقوله: "هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به" (١).

وقد عرفه الشوكاني كما عرفه علماء البيان من قبل وذلك في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ (٢) قال: "التعريض ضد التصريح، وهو من عرض الشيء أي جانبه كأنه يحوم به حول الشيء ولا يظهره، وقيل هو من قولك: عرضت الرجل أي أهديت له، ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياباً بيضاً، أي أهدوا لهما" (٣)

ثم يفرق الشوكاني بين الكناية والتعريض كما فرق بينهما الزمخشري، فقال: "الفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه جئتكَ لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم منى تقاضياً، وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريد" (٤) وهذا يدل على قدرة الشوكاني على التمييز بين الكناية والتعريض ومعرفة لتخريج كل منهما على حدة، وهذا ما يتضح من ذكره للكناية والتعريض في تفسيره للآيات القرآنية كما لاحظنا في الكناية من قبل، وما سنلاحظه في حديثه عن التعريض في الآيات الأتية:

كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَّعِبِينَ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥)، يقول الشوكاني: "عقبه بالنهي للنبي ﷺ عن الافتراء فيما أنزل الله عليه، بل يستمر على ما هو عليه من اليقين وانتفاء الشك، ويمكن أن يكون هذا النهي له تعريضاً لغيره كما في مواطن من الكتاب العزيز، وهكذا القول في نهيه ﷺ عن التكذيب بآيات الله، فإن الظاهر فيه التعريض ولاسيما بعد تعقيبه لقوله: (فتكون من الخاسرين) وفي هذا التعريض من الزجر للممتريين والمكذبيين ما هو أبلغ وأوقع من النهي لهم أنفسهم، لأنه إذا كان بحيث ينهي عنه من لا يتصور صدوره عنه فكيف بمن يمكن منه ذلك" (٦).

(١) الطراز: ١٨٠.

(٢) البقرة: ٢٣٥.

(٣) فتح القدير: ج ١/٣٤٢.

(٤) فتح القدير: ج ١/٣٤٢، والكشاف: ج ١/٢٥٦.

(٥) يونس: ٩٤، ٩٥.

(٦) فتح القدير: ج ٢/٥٩٨.

نلاحظ هنا كيف أن الشوكاني قد دلل على إمكانية وجود تعريض في الآية، ثم يوضح الغرض البلاغي الذي يراد من هذا التعريض وهو الزجر للممتزين والمكذبين وتخويفهم.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾^(١) بين الشوكاني التعريض في الآية فقال: "أي قال إبراهيم مقيماً للحجة عليهم ميكتاً لهم: (بل فعله كبيرهم هذا) مشيراً إلى الصنم الذي تركه ولم يكسره (فاسألوهم إن كانوا ينطقون) أي إن كانوا ممن يمكنه النطق، ويقدر على الكلام، ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله، فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة، لأنهم إذا قالوا إنهم لا ينطقون قال لهم فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه ، فهذا الكلام من باب فرض الباطل مع الخصم حتى تلزمه الحجة ويعترف بالحق"^(٢) وضح الشوكاني المعنى البلاغي للآية وهو التبكيت وإقامة الحجة، ثم بين أنه أراد التعريض بهم وبعقولهم التي تعبد الحجاره التي لا تنطق، لعلمهم يرجعون لأنفسهم فيتركوا ما هم عليه،" وإنما أورد إبراهيم - صلوات الله عليه - هذا الكلام على جهة التهكم والاستهزاء والسخرية بعبولهم، وذلك يكون على وجهين: أحدهما: أنه لم يرد نسبة الفعل إلى كبير الأصنام، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على رمز خفيٍّ ومسلك تعريض، يبلغ به إلزام الحجة لهم والتسفيه لحلومهم... وثانيها: أن يقال: إن كبير الأصنام غضب لما عبّد معه غيره من هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرض إبراهيم بذلك أن يعرض بهم في كونهم قد أشركوا في العبادة من هو دون الله، وإن من دونه مخلوق حقير من مخلوقاته، فوضح هذا الكلام لفاحش ما أتوا به، وعظيم ما تلبسوا به من عبادة غير الله، وهذا التعريض لم يدل عليه اللفظ، بل دل عليه السياق وقرائن الأحوال"^(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٤).

(١) الأنبياء: ٦٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/٥١٧ .

(٣) البيان في ضوء أساليب القرآن: ٢٧٣، ٢٧٤، والطراز: ١٨٢ .

(٤) الأنعام: ٥٢ .

فقوله: (فتكون من الظالمين) جواب للنهي، أعنى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) أي : فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين، وحاشاه عن وقوع ذلك، وإنما هو من باب التعريض، لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام" (١) .

بين الشوكاني سبب التعريض هنا وهو عدم وقوع الظلم من النبي ﷺ لأنه معصوم، فلا بد من أن يكون تعريضاً.

ومنه قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ (٢) فالتوبة على النبي "فيما وقع منه ﷺ من الإذن في التخلف، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين...وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى والأليق...ويجوز أن يكون ذكر النبي ﷺ لأجل التعريض للمذنبين، بأن يتجنبوا الذنوب ويتوبوا مما قد لابسوه منها" (٣) ويؤيد الرأي الأخير ما قاله الزمخشري في تفسيره للآية بأنه "بعث للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا هو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله" (٤).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴾ (٥) فهي "خطاب للنبي ﷺ، والامتراء الشك، نهاه الله سبحانه عن الشك في كونه الحق من ربه، أو في كون كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو تعريض للأمة، أي لا يكن أحد من أمته من الممترين، لأنه ﷺ لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه" (٦) فالمراد بالنهي هنا المسلمين لما للنبي ﷺ من العصمة، وعدم وقوع الشك أو الامتراء منه ﷺ فكان ذلك من باب التعريض لأمة النبي ﷺ .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٧) فقوله: (وما كان من المشركين) فيه تعريض باليهود، لقولهم: عزيز ابن الله، وبالنصارى لقولهم: المسيح ابن الله، أي إن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التي

(١) فتح القدير: ج٢/١٥٤ .

(٢) التوبة: ١١٧ .

(٣) فتح القدير: ج٢/٥٢٢، ٥٢٣ .

(٤) الكشاف: ج٢/٣٢٧ .

(٥) البقرة: ١٤٧ .

(٦) فتح القدير: ج١/٢١٩ .

(٧) البقرة: ١٣٥ .

أنتم عليها من الشرك بالله، فكيف تدعون عليه أنه كان على اليهودية أو النصرانية" (١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) أي لا يفلح من اتصف بصفة الظلم، وهو تعريض لهم بعدم فلاحهم لكونهم المتصفين بالظلم" (٣) فأراد أنهم من الظالمين وإعلامهم بمصير الظالمين في عدم فلاحهم في الدنيا والآخرة.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤).

يقول الشوكاني: "المعنى: إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت (مع القوم الظالمين) أي : الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها، قيل: وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبي ﷺ فالمراد: التعريض لأمته لنتزعه عن أن ينسيه الشيطان" (٥).

(١) فتح القدير: ج ١/٢٠٩ .

(٢) الأنعام: ١٣٥ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/٢١١ .

(٤) الأنعام: ٦٨ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/١٦٦ .

الفصل الثالث

المحسنات البديعية

يقصد بالمحسنات البديعية (علم البديع) لأنه على ضربين المحسنات البديعية المعنوية والمحسنات البديعية اللفظية، والمحسنات "يقصد بها تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، ورعاية وضوح الدلالة بخلوها من التعقيد المعنوي" ^(١) وهذا هو تعريف علم البديع عند القزويني: "وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة" ^(٢).

وقد ذكره السكاكي في مفتاح العلوم وقسمه إلى قسمين فقال: "وإذ قد تقرر، أن البلاغة بمرجعيتها وأن الفصاحة بنوعيتها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسن، فهنا وجوه مخصصة، كثيراً ما يصار إليها، لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ" ^(٣) أي البديع المعنوي والبديع اللفظي وهذا التقسيم ذكره القزويني فقسم وجوه تحسين الكلام إلى ضربين: "ضرب يرجع إلى المعنى، وضرب يرجع إلى اللفظ" ^(٤).

وقد كان لأبي هلال العسكري دور في هذا العلم بعد ابن المعتز وقدامة بن جعفر إذ أضاف إليه أبواباً جديدة، يقول: "أن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، ويرى من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجود" ^(٥).

يقول العلوي في مكانة علم البديع: "اعلم أن هذا الفن من التصرف في الكلام مختص بأنواع التراكيب ولا يكون واقعاً في المفردات، وهو خلاصة علمي المعاني والبيان وقصاص سكرهما وقد قررنا فيما سبق ماهية الفصاحة والبلاغة، فأغنى عن ذكرهما . وعلم البديع هو

(١) علم البديع ، عبد العزيز عتيق، ص٦٥، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣.

(٢) الإيضاح: ٣٣٤، والتلخيص في علوم البلاغة: ٣٤٧ .

(٣) مفتاح العلوم: ٤٢٣ .

(٤) الإيضاح: ٣٣٤ .

(٥) الصناعتين: أبو هلال العسكري، ٢٧٣، تحقيق علي الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسى البابي ، ط ٢ .

تابع للفصاحة والبلاغة، فإن هو صفو الصفو وخلاصة الخلاص " (١).

وقد تحدث الشوكاني في تفسيره عن أنواع مختلفة من المحسنات البديعية إلا أنه لم يكثر من ذكرها كموضوعات البيان وعلم المعاني، ولعله اتبع في ذلك الزمخشري في تفسيره إذ لم يذكرها إلا قليلاً، وكذلك الجرجاني الذي لم يجعل لها باباً خاصاً باسم علم البديع أو المحسنات البديعية، بل ذكر منها مسائل أثناء حديثه عن علم البيان وعلم المعاني، وسنبين أهم المحسنات البديعية التي ذكرها الشوكاني في تفسيره.

التجريد:

التجريد: مصدر من جردته من ثيابه إذا نزعها عنه" (٢).

وفي الاصطلاح: "هو أن ينتزع من أمر ذي صفة أمر آخر مثله في تلك الصفة، مبالغة في كمالها فيه" (٣).

وقد ذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤).

فقال: "قال أبو علي الفارسي: معناه أعلم أن هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته، وقرأ حمزة والكسائي: (قال اعلم) على لفظ الأمر خطاباً لنفسه على طريق التجريد" (٥)، فجاء التجريد في الآية على القراءة بلفظ الأمر في (اعلم)، وهو "بهذا يذكر إحدى طرق التجريد وهي مخاطبة الإنسان نفسه" (٦) وهي من صور التجريد التي ذكرها القزويني واستشهد عليها بقول الأعرابي (٧):

ودع هريرة أن الراكب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل!؟

(١) الطراز ٥٥٩، ٥٦٠.

(٢) اللسان: (جرد).

(٣) الإيضاح: ٣٦٣.

(٤) اليقظة: ٢٥٩.

(٥) فتح القدير: ج ١/٣٨٢.

(٦) البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني: ٧١٣.

(٧) الإيضاح: ٣٦٤.

وقول أبي الطيب:

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليُسعدِ النطق إن لم تسعدِ الحال

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾^(١) يقول الشوكاني: "أي أصلح لنا، من قولك: هيأت الأمر فتهيأ، والمراد بأمرهم الأمر الذي هو عليه وهو مفارقتهم للكفار، والرشد نقيض الضلال، ومن للابتداء ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك: رأيت منك رشداً"^(٢)، فالشوكاني بقوله: (ويجوز أن تكون للتجريد) يريد إحدى صور التجريد وهو دخول (من) التجريدية على المنتزع منه، فيكون المنتزع منه (الأمر)، وهي مثل: لي من فلان صديق حميم، ويقول أبو السعود في تخريج الآية: "أو اجعل أمرنا راشداً كله على أن (من) تجريدية مثلها في وقولك: رأيت منك أسداً"^(٣).

ولعل الشوكاني نقل تخريجه للتجريد عن أبي السعود، وقد ذكر الزمخشري ما ذكر أبو السعود دون أن يذكر أن (من) تجريدية^(٤).

اللف والنشر:

ويطلق على اللف الطي، كما سماه الحموي فقال: الطي والنشر^(٥).

وفي اللسان: الطي: نقيض النشر، طويته طيًّا وطِيَّةً وطِيَّةً بالتخفيف.^(٦)

وفي الاصطلاح: قال القزويني: "هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين: ثقة بأن السامع يرده إليه"^(٧)

(١) الكهف: ١٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٣ / ٣٤٣ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ٤ / ١٧١ .

(٤) الكشاف: ج ٣ / ٥١ ز

(٥) خزانة الأدب، الحموي: ج ١ / ١٤٩، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٩٩١ م .

(٦) اللسان: (طوي) .

(٧) الإيضاح: ٣٥٥ .

وعرّفه السيوطي فقال: "هو أن يذكر شيئان أو أشياء، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم، ويفوّض إلى عقل السامع رد كل إلى ما يليق به" (١).

وقد ذكر الشوكاني اللف والنشر في قوله تعالى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (٢)، يبين الشوكاني اللف والنشر في الآية فيقول: "في قوله: (من لدن حكيم خبير) لف ونشر لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها خبير عالم بمواقع الأمور" (٣) وهذا من النوع الثاني التفصيلي أو التفريق، فأحكام الآيات يناسبها الحكيم، وتفصيلها يناسبها الخبير، وهذا يتناسب مع التعريف فيقوم السامع برد كل إلى ما يناسبه من الكلام، ورتب فيه النشر على ترتيب اللف.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ (٤) يقول الشوكاني: "وأصله: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلى من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً... وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول، وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم، ووجه القول بأن في الكلام حذفاً، وما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى وتتفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة، كما في هذا الموضوع" (٥).

يفهم من كلام الشوكاني وتحليله لمضمون الآية أن في الآية لف ونشر، وهو أحد أقسام اللف والنشر، حيث أن اللف مجمل والنشر مفصل كما هو واضح من كلام الشوكاني، وقد قال القزويني فيها: "لف بين القولين، ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمناً من الإلباس، لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه" (٦)، وقال السيوطي: "وإنما سوغ الإجمال في اللف ثبوت العناد بين اليهود والنصارى" (٧) فيكون الشوكاني قد وافق القزويني والسيوطي في توضيح اللف والنشر في الآية.

(١) الإتيان في علوم القرآن: ج ٣/٢٣٨ .

(٢) هود: ١ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/٦٠٦ .

(٤) البقرة: ١١١ .

(٥) فتح القدير: ج ١/١٨٧ .

(٦) الإيضاح: ٣٥٦ .

(٧) الإتيان في علوم القرآن: ج ٣/٢٣٨ .

وجاء أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) يقول الشوكاني في قوله تعالى: " وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ " أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) أي في النهار بالسعي في المكاسب (ولعلكم تشكرون) أي: لكي تشكروا نعمة الله عليكم، وهذه الآية من باب اللف والنشر كما في قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لَدَى وَكْرَهَا الْعَنَابِ وَالْحَشْفِ الْبَالِي

واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً وطلب الرزق في الليل ممكناً، وذلك عند طلوع القمر على الأرض، أو عند الاستضاءة بشيء بما له نور كالسراج، لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به" (٢) نلاحظ أن الشوكاني يحل مضمون الآية حسب باب اللف والنشر ثم يشير إلى أنها من باب اللف والنشر ويستشهد عليه من أشعار العرب ليثبت ما ذهب إليه.

والآية من الضرب الأول من ذكر المتعدد على التفصيل وهو أن يكون النشر على ترتيب اللف فيكون الأول من المتعدد في النشر للأول من المتعدد في اللف والثاني للثاني كما وضحه الشوكاني، فالسكون يكون في الليل والابتغاء يكون في النهار.

ومثلها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (٣) قسم الشوكاني الأول من اللف وهو البخل مع الأول من النشر وهو اللوم، والثاني وهو الإسراف مع الثاني وهو محسوراً، ولم يذكر أنها من اللف والنشر فقال: "المراد النهي للإنسان بأن يمسك إمساكاً يصير به مضيقاً على نفسه وعلى أهله ولا يوسع في الإنفاق توسيعاً لا حاجة إليه بحيث يكون به مسرفاً، فهو نهى عن جانبي الإفراط والتفريط... وقد مثل الله سبحانه في هذه الآية حال الشحيح بحال من كانت يده مغلولة إلى عنقه بحيث لا يستطيع التصرف بها، ومثل حال من يجاوز الحد في التصرف بحال من يبسط يده بسطاً لا يتعلق بسببه فيها شيء مما تقبض الأيدي عليه، وفي هذا التصوير مبالغة بليغة، ثم بين سبحانه غائلة الطرفين المنهي عنهما فقال: (فتقعده ملوماً) عند الناس بسبب ما أنت عليه من الشح (محسوراً)

(١) القصص: ٧٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/ ٢٢٢ .

(٣) الإسراء: ٢٩ .

بسبب ما فعلته من الإسراف أي: منقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر" (١).

ومن اللف والنشر ما يكون فيه النشر على عكس ترتيب اللف قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢) يقول الشوكاني بعد شرح الآية .

"وهذا تفصيل بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام تحذير وترهيب" (٣).

يفهم من قول الشوكاني (هذا تفصيل بعد الإجمال) أي نشر بعد لـف، فقد أجمل في قوله: (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) ثم فصل ذلك ولكن بدأ بتفصيل الثاني من المتعدد، ثم عاد إلى تفصيل الأول منه، وقال عنها الزركشي: "أن يأتي بجميع المقدمات ثم بجميع الثواني مرتبة من آخرها، ويسمى رد العجز على الصدر" (٤).

تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو ضربان: أفضلهما أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها فيها" (٥) أي في صفة الذم.

والثاني: أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى" (٦).

وقد ذكر الشوكاني تأكيد المدح بما يشبه الذم في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٧)، فقال: "أي وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء، وهو إغناء الله لهم من فضله، والاستثناء مفرغ من أعم العام، وهو من باب قول النابغة:

(١) فتح القدير: ج ٣/٢٧٩ .

(٢) آل عمران: ١٠٦، ١٠٧ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٤٩٩ .

(٤) البرهان في علوم القرآن: ج ٣/٤٦١ .

(٥) الإيضاح: ٣٧٢ .

(٦) المصدر السابق: ٣٧٣ .

(٧) التوبة: ٧٤ .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتاب

ومن باب قول الشاعر:

وما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما شبيهه الذم" (١) والشوكاني يخرج الشاهد تخريجاً كاملاً. وهو من الضرب الأول حيث استثنى من صفة الذم المنفية، صفة مدح لتأكيد تلك الصفة المنفية.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٢).

يقول الشوكاني: "أي ما أنكروا وما عابوا عليهم (إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) أي إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال... وهذا كقوله تعالى: ﴿ هل تنقموا منا إلا أن آمنَّا بالله ﴾ (٣) وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله:

لا عيب فيهم سوى أن النزير بهم يسلوا عن الأهل والأوطان والحشم

وقول الآخر:

ولا عيب فيها غير شكله عينها كذاك عتاق الطير شكلاً عيونها (٤)

يكشف الشوكاني هنا عن المحسن البلاغي تأكيد المدح بما يشبه الذم، ويوضحه توضيحاً شاملاً ويستشهد لذلك بكلام العرب وأبيات لم يذكرها القزويني في إيضاحه، مما يدل على تمكنه من فهم البلاغة العربية ومعرفة أحوالها.

ومنه قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (٥). يقول الشوكاني: "يجوز أن يكون بدلاً من الذين يقاتلون، أو في محل نصب على المدح أو محل

(١) فتح القدير: ج ٢/٤٨٦ .

(٢) البروج: ٨ .

(٣) المائدة: ٥٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٥/٤٨٩ .

(٥) الحج: ٤٠ .

رفع بإضمار مبتدأ، والمراد بالديار مكة (إلا أن يقولوا ربنا الله) قال سيوييه: هو استثناء منقطع أي: لكن لقولهم: ربنا الله، أي أخرجوا بغير حق يوجب إخراجهم لكن لقولهم: ربنا الله، وقال الفراء والزجاج: هو استثناء متصل، والتقدير: الذين أخرجوا من ديارهم بلا حق إلا بأن يقولوا ربنا الله فيكون مثل قوله سبحانه: ﴿ هَلْ يَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا ﴾ (١) .

وقول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب (٢)

فتخريج الشوكاني للآية على قول الزجاج والفراء يكون من باب تأكيد المدح بما يشبهه الذم، وما يؤكد ذلك استشهاده ببيت النابغة الذي استشهد به من قبل في المثال الأول الذي ذكرناه، واستشهاده بالآية والتي ذكرها من قبل في المثال الثاني الذي ذكرناه على تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وقد استشهد السيوطي بهذه الآية تعليقا على قول ابن أبي الأصبع: بأن تأكيد المدح بما يشبه الذم هو في غاية العزة في القرآن، وأنه لم يجد منه إلا آية واحدة وهي قوله: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ .

فاستشهد السيوطي بتلك الآية وقال موضحاً لها " فإن ظاهر الاستثناء، أن ما بعده حق يقتضي الإخراج، فلما كان صفة مدح يقتضي الإكرام لا الإخراج كان تأكيداً للمدح بما يشبه الذم" (٣) فيكون تخريج الشوكاني موافقاً لما ذهب إليه السيوطي من أنها من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، حيث أن (هل) في الآية بمعنى النفي، فهو استفهام خرج إلى النفي.

المماثلة:

وهي من مثل و"مثل: كلمة مستوية يقال: هذا مثله، والفرق بين المماثلة والمساواة أن المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين لأن التساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد

(١) المائدة: ٥٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٣/٥٦٨، ٥٦٩ .

(٣) الإتيان في علوم القرآن: ج ٣/٢٢٥ .

ولا ينقص، وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين" (١).

أما في الاصطلاح: فقد ذكرها قدامة ابن جعفر بمعنى التمثيل: "وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يسير إليه" (٢).

قال الشوكاني: "المثل قد يراد به إيراد حالة غريبة يعرف بها حالة أخرى مماثلة لها في الغرابة" (٣).

وقد تحدث الشوكاني عنها في تفسيره لأكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَبَهَا نَسَبًا بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (٤) يقول الشوكاني: "نأت بما هو أنفع للناس منها في العاجل والآجل أو في أحدهما أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومرجع ذلك إلى أعمال النظر في المنسوخ والناسخ، فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم في العاجل، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع لهم في الآجل، وقد يستويان فتحصل المماثلة" (٥). كلام الشوكاني عن المماثلة هنا ينطبق على المعنى اللغوي والاصطلاحي للمماثلة.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ (٦) يقول الشوكاني: "هذا الخطاب للمسلمين أيضاً، أي فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفقروا بين أحد منهم فقد اهتدوا، وعلى هذا (مثل) زائدة، كقوله: (ليس كمثله شيء)، وقول الشاعر:

فصيروا مثل كعصف مأكول .

وقيل إن المماثلة وقعت بين الإيمانيين" (٧).

(١) اللسان: (مثل) .

(٢) نقد الشعر، لقدامة بن جعفر، ص ١٥٨، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخارنجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٧٨ م.

(٣) فتح القدير: ج ٣٠٤/٥ .

(٤) البقرة: ١٠٦ .

(٥) فتح القدير: ج ١٨٣/١ .

(٦) البقرة: ١٣٧ .

(٧) فتح القدير: ج ١ / ٢٠٩، ٢١٠ .

ومنها قوله تعالى: ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (١) قال الشوكاني: "أي أحيينا بذلك الماء بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع، وجملة (كذلك الخروج) مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث كمثل هذا الإحياء الذي أحيا الله به الأرض الميتة" (٢). يفهم من قول الشوكاني أنه أراد المماثلة بين إخراج النبات و إحياء الموتى في أن كل منهما يخرج إلى الحياة بعد أن كان ميتاً.

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتَثِيرُ سَحَابًا فُسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ (٣). يقول الشوكاني: "(كذلك النشور) أي: كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الأرض بعد موتها... أي مثل إحياء موات الأرض إحياء الأموات فكيف تتكرونها وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيهه به" (٤).

يقول أبو السعود في تفسير الآية السابقة: "ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث الذي شبهه به بقوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ، أي مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياء الأموات في صحة المقدورية وسهولة التأتي" (٥) وعليه فقول الشوكاني: (مثل) أي المماثلة بين إحياء الموتى وإحياء الزرع .

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ﴾ (٦) أي فعليه جزاء مماثل لما قتله، ومن النعم بيان للجزاء المماثل، قيل: المراد المماثلة في القيمة، وقيل: في الخلقة، وقد ذهب إلى الأول أبو حنيفة، وذهب إلى الثاني مالك والشافعي وأحمد والجمهور وهو الحق لأن البيان للمماثل بالنعم يفيد ذلك وكذلك يفيد هدياً بالغ الكعبة" (٧) فالمماثلة واقعة بين ما يقتله المحرم متعمداً وبين الكفارة التي يجب عليه إخراجها جزاء لما فعل، وعلى الرأي الذي وافقه الشوكاني يكون من النعم في الخلقة.

(١) ق: ١١ .

(٢) فتح القدير: ج ٨٨/٥ .

(٣) فاطر: ٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٤٠٦/٤ .

(٥) تفسير أبي السعود: ج ٢٧٤/٥ .

(٦) المائدة: ٩٥ .

(٧) فتح القدير: ج ١٠٢/٢ .

وجاءت المماثلة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾^(١). قال الشوكاني: "أي جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ورزقهم كما رزقكم، داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء، وقيل: (أمثالنا) في ذكر الله والدلالة عليه... وقال سفيان بن عيينة: أي ما من صنف من الدواب والطيور إلا في الناس شبه منه، فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاووس وقيل: (أمثالكم) في أن لها أسماء تعرف بها... والأولى أن تحمل المماثلة على كل ما يمكن وجود شبه فيه كائناً ما كان"^(٢)، فهي مماثلة بين البشر والأمم الأخرى من الدواب والطيور والحشرات وغيرها، والشوكاني يحسم الأمر بين الأقوال كلها ويجعل المماثلة بينهم في كل ما يمكن أن يتشابهوا فيه.

ويكشف الشوكاني عما يجب أن تكون عليه أوجه المماثلة بين المتماثلين في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ﴾^(٣) فيقول: "أي مماثلة له في البلاغة وحسن النظم وجزالة اللفظ وفخامة المعاني، ووصف الصور بما يوصف به المفرد فقال مثله ولم يقل أمثاله، لأن المراد مماثلة كل واحد من السور أو لقصد الإيماء إلى وجه الشبه، ومداره المماثلة في شيء واحد وهو البلاغة البالغة إلى حد الإعجاز"^(٤) وذكر الزمخشري المماثلة في الآية فقال: "(مثله) بمعنى أمثاله ذهاباً إلى كل واحد منها له"^(٥).

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعِ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾^(٦).

يوضح الشوكاني هذه الصورة المضروبة كمثل للحق والباطل فيقول: "الزبد: هو الأبيض المرتفع المنتفخ على وجه السيل... والمراد من هذا تشبيه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه

(١) الأنعام: ٣٨.

(٢) فتح القدير ج ٢/١٤٧.

(٣) هود: ١٣.

(٤) فتح القدير: ج ٢/٦١٣.

(٥) الكشاف: ج ٢/٣٩٣.

(٦) الرعد: ١٧.

يضمحل ويلحق بجنابات الوادي وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل، وقد تم المثل الأول، ثم شرع سبحانه في ذكر المثل الثاني فقال: (ومما يوقدون عليه في النار) "من" لابتداء الغاية، أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء... والمعنى: ومما توقدون عليه في النار فيذوب من الأجسام المنطرفة الذائبة (ابتغاء حلية) أي: لطلب اتخاذ حلية تتزينون بها وتتجملون كالذهب والفضة (أو متاع) أي: أو طلب متاع تتمتعون به من الأواني والآلات المتخذة من الحديد والفضة والنحاس والرصاص (زبد مثله) المراد بالزبد هنا الخبث، فإنه يعلو فوق ما أذيب من تلك الأجسام كما يعلو الزبد على الماء" (١)

ثم يبين المماثلة بين الزبدتين فيقول: "واعلم أن وجه المماثلة بين الزبدتين في الزبد الذي يحمله السيل والزبد الذي يعلو الأجسام المنطرفة أن تراب الأرض لما خالط الماء وحمله معه صار زبداً رابياً فوقه، وكذلك ما يوقد عليه في النار حتى يذوب من الأجسام المنطرفة، فإن أصله من المعادن التي تنبت في الأرض فيخالطها التراب، فإذا أذيبت صار ذلك التراب الذي خالطها خبثاً مرتفعاً فوقها" (٢) فهناك اتفاق بين المتماثلين في أن كل منهما أصله من التراب، وأن كل منهما يعلو، ولكن لا فائدة منهما حيث يذهب كل منهما بسرعة ويبقى الذي ينفع، وهما كالباطل الذي يعلو الحق لفترة ولكن ما يلبث أن ينهزم ويزول.

ووضح الشوكاني المماثلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٣) وهذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالأخوة المماثلة التامة، وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب، فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة والإسراف في الانفاق من عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به (وكان الشيطان لربه كفوراً) أي كثير الكفران عظيم التمرد عن الحق، لأنه مع كفره لا يعمل إلا شراً ولا يأمر إلا بعمل الشر ولا يوسوس إلا بما لا خير فيه، وفي هذه الآية تسجيل على المبذرين بمماثلة الشياطين، ثم التسجيل على جنس الشيطان بأنه كفور، فافتضى ذلك أن المبذر مماثل للشيطان وكل مماثل للشيطان له حكم الشيطان وكل شيطان كفور، فالمبذر كفور " (٤)، نلاحظ هنا كيف بين الشوكاني المماثلة بين المبذر والشيطان،

(١) فتح القدير: ج ٣ / ٩٤ .

(٢) فتح القدير: ج ٣ / ٩٥ .

(٣) الإسراء: ٢٧ .

(٤) فتح القدير ج ٣ / ٢٧٨، ٢٧٩ .

والتي من خلالها بين حكماً فقهياً من تحليله لتلك الصورة وتوضيح المماثلة بينهما حتى صارا كأنهما شيء واحد.

الاستطراد:

الاستطراد في اللغة: "اطراد الشيء: تبع بعضه بعضاً وجرى، واطردت الأشياء إذا تبع بعضها بعضاً واطرد الكلام إذا تتابع" (١).

والاستطراد في الاصطلاح: قال عنه العسكري: "هو أن يأخذ المتكلم في معنى، فبينما يمر فيه يأخذ في معنى آخر، وقد جعل الأول سبباً إليه" (٢).

وعرفه ابن رشيق بقوله: "وهو أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء، وهو إنما يريد غيره، فإن قطع، أو رجع إلى ما كان فيه، فذلك استطراد، وإن تمادى، فذلك خروج" (٣).

أما القزويني فقال: "هو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصل به لم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني" (٤).

وعرفه العلوي نقلاً عن علماء البيان ولعله ينقله عن ابن رشيق فيقول: "هو أن يشرع المتكلم في شيء من فنون الكلام ثم يستمر عليه فيخرج إلى غيره، ثم يرجع إلى ما كان عليه من قبل، فإن تمادى فهو الخروج، وإن عاد فهو الاستطراد" (٥).

وقد ذكره الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (٦).

فقال: "أي إنهم أحرص الناس على أحقر حياة وأقل لبث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة ولبث متناول،... ووجه ذكر الذين أشركوا بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم الدلالة على

(١) اللسان: (اطرد) .

(٢) كتاب الصناعتين: ٤١٤ .

(٣) العمدة: ج ١/٣٧٣ .

(٤) الإيضاح: ٣٤٩ .

(٥) الطراز: ٤٠٤ .

(٦) البقرة: ٩٦ .

مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم، فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغاً في الحرص إلى غاية لا يقادر قدرها، وإنما بلغوا في الحرص إلى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب في الآخرة بخلاف المشركين من العرب ونحوهم، فإنهم لا يقرون بذلك، وكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود، والأول وإن كان فيه خروج من الكلام في اليهود إلى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكليف، ولا ضير في استطراد ذكر حرص المشركين بعد حرص اليهود" (١)

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٢).

يقول الشوكاني: "وأما (قد أفلح من زكاهها) فكلام تابع لقوله: (فألهمها فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد" (٣) والشوكاني هنا ينقل هذا الكلام عن صاحب الكشاف نقلاً تاماً، إذ يقول صاحب الكشاف: "وأما (قد أفلح من زكاهها) فكلام تابع لقوله: (فألهمها فجورها وتقواها) على سبيل الاستطراد" (٤).

التورية:

التورية في اللغة: من "وريت الخبر: جعلته ورأيت وسترته، ووريت عنه سترته وأظهرت غيره، والتورية الستر" (٥).

والتورية عند البلاغيين: سماها القزويني إيهاماً فقال: "التورية، وتسمى الإيهام أيضاً، وهي: أن يُطلق لفظ له معنيان: قريب، وبعيد، ويراد به البعيد منهما" (٦).

"والتورية أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفيفة، فيريد المتكلم المعنى البعيد

(١) فتح القدير: ج ١/١٦٨، ١٦٩ .

(٢) الشمس: ٧-٩ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/٥٣٣ .

(٤) الكشاف: ج ٤/٥٩٨ .

(٥) اللسان: (ورى) .

(٦) الإيضاح: ٣٥٣ .

ويورّي عنه بالمعنى القريب فيتوهم السامع مع أول وهلة أنه يريد القريب وليس كذلك، ولذلك سمي هذا الفن إيهاماً" (١).

وقد ذكر الشوكاني التورية في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٢)، معنى أنني سقيم: سأسقم سقم الموت، لأن من كتب عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، وهذا تورية وتعريض كما قال للملك لما سأله عن سارة، هي أختي، يعني أخوة الدين" (٣).

فقال أنني سقيم والسقم هو المرض وهذا المعنى القريب، ولكنه أراد المعنى البعيد وهو أن من يموت فهو يسقم، فأراد التورية عليهم.

وقال الزمخشري في الآية السابقة: "كان القوم نجامين فأوهمهم أنه استدل بأمانة في علم النجوم على أنه يُسقم (فقال أنني سقيم) إني مشارف للسقم ...

ليتفرقوا عنه فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد ففعل بالأصنام ما فعل، فإن قلت: كيف جاز له أن يكذب؟ قلت: قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب، والتقيّة وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين، والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرّض وورّى، والذي قاله إبراهيم - عليه السلام - معراض من الكلام، ولقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم... وقد مات رجل فجأة فالتف عليه الناس وقالوا مات وهو صحيح فقال أعرابي: أصحيح من الموت في عنقه؟" (٤).

المشاكلة:

المشاكلة في اللغة: من "الشكل: الشبه والمثل وقد تشاكل الشيطان وشاكل كل واحد منهما صاحبه" (٥).

(١) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: ج ٢/٣٨٣ .

(٢) الصافات: ٨٩ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/٤٧٨ .

(٤) الكشف: ج ٣/٦٨٣ .

(٥) اللسان: (شكل) .

والمشاكلة عند البلاغيين:

عرفها السكاكي بقوله: "هي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته" (١) ونقل القزويني التعريف السابق وأضاف إليه كلمتي تحقيقاً أو تقديرًا، فقال: "وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديرًا" (٢).

وعليه فالمشاكلة إما تحقيقية وإما تقديرية.

وقد تحدث الشوكاني كثيراً عن المشاكلة موضحاً اللفظين الذين حدث فيهما المشاكلة والفرق في المعنى بينهما، وقد ذكر تعريفها في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (٣).

فقال: "وإنما جعل سبحانه ما وقع منه استهزاء مع كونه عقوبة ومكافأة ما شاكله، وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء ذكرته بمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه... وإنما قال: (الله يستهزئ بهم) لأنه يفيد التجدد وقتاً بعد وقت، وهو أشد عليهم وأنكأ لقلوبهم وأوجع لهم من الاستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية، لما هو محسوس من أن العقوبة الحادثة وقتاً بعد وقت، والمتجددة حيناً بعد حين أشد على من وقعت عليه من العذاب الدائم المستمر" (٤).

فلاحظ كيف بين الشوكاني علاقة المشاكلة في الآية، ثم ذكر تعريف المشاكلة عند العرب وهو التعريف الذي ذكره علماء البلاغة وهذا يبين معرفته التامة لهذا الباب من أبواب البديع، وقد ذكر الله تعالى كيف أن المنافقين يستهزئون من المؤمنين، ثم ذكر الاستهزاء منه سبحانه على أنه عقوبة وليس استهزاء، لأن الاستهزاء لا يكون منه سبحانه وتعالى، ولكن جاء اللفظ هنا إزاء اللفظ السابق له كما عند العرب، ولكنه مخالف للأول في المعنى.

ومنها قوله تعالى: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٥) والنسيان الترك: أي تركوا ما أمرهم به فتركهم من رحمته لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٤ .

(٢) الإيضاح: ٣٤٨ .

(٣) البقرة: ١٥، ١٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١/ ٧٦ .

(٥) التوبة: ٦٧ .

من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان" ^(١) ووضح الشوكاني المقصود بالنسيان الذي يقع من الكفار، ثم المقصود بالنسيان وهي اللفظة التي وضعت إزاء اللفظة الأولى، والمقصود بها ترك الله سبحانه لهم من رحمته وفضله، ثم ذكر الشوكاني أن المشاكلة من علم البيان وقد ذكرها في آية أخرى أنها معروفة عند علماء المعاني والبيان، وذلك في قوله تعالى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ ^(٢)، فقال: "هذه الجملة في حكم التعليل لما قبلها أي تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وهذا الكلام من باب المشاكلة كما هو معروف عند علماء المعاني والبيان، وقيل المعنى تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبيك" ^(٣)، ولكن المشاكلة لم تكن من المعاني والبيان وإنما هي من البديع، وكأننا نفهم من كلامه أن هناك علاقة بين العلوم المذكورة وعلم البديع، مثل المجاز المرسل، وقد لاحظت أن الشوكاني يتحدث عن الآيات التي ذكرها العلماء في المجاز المرسل بعلاقته السببية على أنها مشاكلة، ولعله خلط بينهما أو اعتبرهما على أنهما شيء واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ﴾ ^(٤)، قال: "وأصل المكر في اللغة: الاغتيال والخدع، حكاه ابن فارس، وعلى هذا فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة" ^(٥) جعلها الشوكاني هنا من باب المشاكلة، وقد ذكرها القزويني في المجاز المرسل فقال فيها: "تجوز بلفظ المكر عن عقوبته، لأنه سببها" ^(٦)، ولعل الشوكاني نقلها عن السكاكي إذ جعلها السكاكي من المشاكلة. ^(٧)

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ﴾ ^(٨) .

يقول الشوكاني: "هذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى، أعنى قوله: (والحرمان قصاص)، وإنما سمي المكافأة اعتداء مشاكلة" ^(٩) وجعلها القزويني مجاز مرسل علاقته السببية فقال: "سمى جزاء الاعتداء اعتداء لأنه مسبب عن الاعتداء" ^(١٠)، وقد يكون الشوكاني نقل

(١) فتح القدير: ج ٢/ ٤٨٠ .

(٢) المائدة: ١١٦ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/ ١٢٤ .

(٤) آل عمران: ٥٤ .

(٥) فتح القدير: ج ١/ ٤٦٦ .

(٦) الإيضاح: ٢٧٣ .

(٧) مفتاح العلوم: ٤٢٤ .

(٨) البقرة: ١٩٤ .

(٩) فتح القدير: ج ١/ ٢٦٨ .

(١٠) الإيضاح: ٢٧٢ .

ذلك عن السكاكي (١) .

وفي قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)، يقول الشوكاني في قوله: "فلا عدوان إلا على الظالمين": "أي لا تعتدوا إلا على من ظلم وهو من لم ينته عن الفتنة ولم يدخل في الإسلام، وإنما سمي جزاء الظالمين عدواناً مشاكلة" (٣) وقد ذكرت هذه الآية في المجاز المرسل أيضاً، لكن نجد أن الفراء قد وضح المشاكلة في الآية بشكل جلي إلا أنه لم يسمه، قال الفراء: "إنما العدوان على من ظلم، على من بدأكم ولم ينته، فإن قال قائل: رأيت قوله: ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ أعدوان هو وقد أباحه الله لهم؟ قلنا: ليس بعدوان في المعنى، إنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله، ألا ترى أنه قال: ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى، والعدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص، فلا يكون القصاص ظلماً، وإن كان لفظه واحداً" (٤) وعدّ الزمخشري الآية من باب المشاكلة قال: "سمي جزاء الظالمين ظلماً مشاكلة" (٥).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ (٦)، قال الشوكاني: "أي أردتم المعاقبة (فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي بمثل ما فعل بكم لا تجاوزوا ذلك... وسمى سبحانه الفعل الأول الذي هو فعل البادئ بالشر عقوبة، مع أن العقوبة ليست إلا فعل الثاني وهو المجازى للمشاكلة" (٧) وقد ذكرها الزمخشري على أنها مزوجة فقال: "سمى الفعل الأول باسم الفعل الثاني للمزاوجة، والمعنى إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه فقابلوه بمثله، ولا تزيدوا عليه" (٨).

والمزاوجة: هي أن يزوج بين معنيين في الشرط والجزاء" (٩).

(١) مفتاح العلوم: ٤٢٤ .

(٢) البقرة: ١٩٣ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٢٦٧ .

(٤) معاني القرآن للفراء: ج ١/١١٦، ١١٧ .

(٥) الكشاف: ج ١/٢١٥ .

(٦) النحل: ١٢٦ .

(٧) فتح القدير: ج ٣/٢٥٦ .

(٨) الكشاف: ج ٢/٦١٠ .

(٩) الإيضاح: ٣٥٠، والإتقان في علوم القرآن ج ٣/٢٤٠ .

ومن المشاكلة قوله تعالى: ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ (١)، أي أعجل عقوبة، وقد دل أفعل التفضيل على أن مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله أسرع منه... وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرّاً من باب المشاكلة كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز" (٢)، فالمشاكلة بين (مكر) الأولى وهو فعل الكفار وهو المكر الحقيقي، و(مكرّاً) الثانية والمقصود بها العقوبة على مكرهم وهو إحباط هذا المكر ورد كيدهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴾ (٣).

يقول الشوكاني: "والمراد من مخادعتهم الله أنهم صنعوا معه صنع المخادعين، وإن كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يُخدع، وصيغة فاعلٍ تفيد الاشتراك في أصل الفعل، فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم، والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإبطال الكفر، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه، والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليه ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهراً، وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم" (٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (٥).

أي جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره" (٦)، فالمشاكلة جاءت بين اللفظين يسخرون وسخر، وهي سخرية المنافقين من المؤمنين، يقابلها سخرية من الله بالمنافقين وذلك بالإهانة والذل والعذاب.

(١) يونس: ٢١ .

(٢) فتح القدير: ج ٥٤٩/٢ .

(٣) البقرة: ٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٧٢/١ .

(٥) التوبة: ٧٩ .

(٦) فتح القدير: ج ٤٨٧/٢ .

ووضح الشوكاني المشاكلة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ (١).

الأنعام هي الإبل والبقر والغنم ويدخل في الغنم المعز، والعبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة... والظاهر أن العبرة هي قوله: (نسقيكم مما في بطونه) فتكون الجملة مستأنفة لبيان العبرة" (٢).

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَاتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ (٣).

يقول الشوكاني: "ومعنى ذلك: أنه يعلم شيئاً من الغيب وأنه لا يأتيهما إلى السجن طعام إلا أخبرهما بماهيته قبل أن يأتيهما... والاستثناء بقوله: (إلا نباتكما بتأويله) مفرغ من أعم الأحوال أي: لا يأتيكما طعام في حال من الأحوال إلا حال ما نباتكما أي: بينت لكما ماهيته وكيفيته قبل أن يأتيكما، وسماه تأويلاً بطريق المشاكلة، لأن الكلام في تأويل الرؤيا، أو المعنى: إلا نباتكما بما يؤول إليه الكلام من مطابقة ما أخبركما به للواقع" (٤).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (٥)، يقول الشوكاني: "وتسمية الجزاء سيئة إما لكونها تسوء من وقعت عليه، أو على طريق المشاكلة لتشابههما في الصورة" (٦)، "لأن الجزاء حق لا يوصف بأنه سيئة" (٧).

وذكرها في قوله تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (٨)، أي ذاته المقدسة، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز في المشاكلة" (٩) فعلى المشاكلة يكون المقصود يحذركم الله عقابه.

(١) النحل: ٦٦.

(٢) فتح القدير: ج ٣/٢١٩.

(٣) يوسف: ٣٧.

(٤) فتح القدير: ج ٣/٣٣.

(٥) الشورى: ٤٠.

(٦) فتح القدير: ج ٤/٦٤٢.

(٧) الإتيقان في علوم القرآن: ج ٣/٢٣٩.

(٨) آل عمران: ٢٨.

(٩) فتح القدير: ج ١/٤٤٩.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾^(١) قال الشوكاني: "أي جزاء سيئات كسبهم أو أصابهم سيئات هي جزاء كسبهم، وسمى الجزاء سيئات لوقوعها في مقابلة سيئاتهم، فيكون ذلك من باب المشاكلة"^(٢).

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾^(٣)، والمكر: التدبير في الأمر خفية، والمعنى: أنهم يخفون ما يعدونه لرسول الله ﷺ من المكائد، فيجازيهم الله على ذلك، ويرد كيدهم في نحورهم، وسمى ما يقع منه تعالى مكرًا مشاكلة كما في نظائره (والله خير الماكرين) أي المجازين لمكر الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على مكرهم من حيث لا يشعرون"^(٤) فالمكر من الله سبحانه مشاكلة هو رد كيدهم وتعذيبهم على أفعالهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾^(٥)، يقول الشوكاني: "والمعنى من جازى الظالم بمثل ما ظلمه، وسمى الابتداء باسم الجزاء مشاكلة، كقوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾، والعقوبة في الأصل إنما تكون بعد فعل تكون جزاء عنه، والمراد بالمثلية أنه اقتصر على المقدار الذي ظلم به ولم يزد عليه"^(٦).

وذكرها الزمخشري في باب المجاز المرسل علاقته السببية فقال: "تسمية الابتداء بالجزاء لملاسته له من حيث إنه سبب وذلك مسبب عنه، كما يحملون النظير على النظير والنقيض على النقيض للملابسة"^(٧).

وذكر الشوكاني المشاكلة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ دَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾^(٨) إذ يقول: "أي لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق ولا يمتنع من

(١) الزمر: ٥١، ٥٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/ ٥٥٨ .

(٣) الأنفال: ٣٠ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/ ٣٨٥ .

(٥) الحج: ٦٠ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/ ٥٧٨ .

(٧) الكشاف: ج ٣/ ٢٣٤ .

(٨) الأحزاب: ٥٣ .

بيانه وإظهاره، والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشكلة" (١) .

من خلال تفسير الآيات السابقة يتضح لنا أن المشكلة من أكثر أقسام البديع التي تحدث عنها الشوكاني في تفسيره ووضح مفهومها والعلاقة بين الألفاظ التي وقعت فيها المشكلة.

التضمين:

التضمين في اللغة: من "ضمن الشيء للشيء: أودعه إياه كما تودع الوعاء المتاع، وقد تضمنه هو، والمضمن من الشعر ما ضمنته بيتاً" (٢).

وفي الاصطلاح: "أن يضمن الشاعر شيئاً من شعر الغير مع التنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء وإن كان مشهوراً فلا حاجة إلى التنبيه" (٣).

وذكر الزركشي هذا المعنى فقال: "ويطلق التضمين أيضاً على إدراج كلام الغير في أثناء الكلام لتأكيد المعنى أو لترتيب النظم ويسمى الإبداع" (٤) . وذكره بمعنى آخر فقال: "هو إعطاء الشيء معنى الشيء، وتارة يكون في الأسماء، وفي الأفعال، وفي الحروف، فأما في الأسماء فهو أن تضمن اسماً معنى اسم، لإفادة معنى الاسمين جميعاً...وأما الأفعال فإن تضمن فعلاً معنى فعل آخر، ويكون فيه معنى الفعلين جميعاً، وذلك بأن يكون الفعل يتعدى بحرف، فيأتي متعدياً بحرف آخر ليس من عادته التعدي به، فيحتاج إما إلى تأويله أو تأويل الفعل، ليصح تعديه به" (٥).

وبناءً على هذا التعريف وضح الشوكاني التضمين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴾ (٦) ، فقال: "وجعل) هنا بمعنى خلق، وهكذا قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ (٧)

(١) فتح القدير: ج٤/٣٥٧ .

(٢) اللسان: (ضمن) .

(٣) معاهد التنصيص للعباسي، ج٤/١٥٣، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب، بيروت ١٩٤٧م وانظر الإيضاح: ٤١٩ .

(٤) البرهان في علوم القرآن: ج٣/٣٤٣، ٣٤٤ ، وانظر الإتيان في علوم القرآن: ج٣/٢٣٠ .

(٥) البرهان في علوم القرآن: ج٣/٣٣٨ .

(٦) النبأ: ١٣ .

(٧) النبأ: ٩ .

وما بعده، لأن هذه الأفعال قد تعدت إلى مفعولين فلا بد من تضمينها معنى فعل يتعدى إليهما كالخلق والتصيير ونحو ذلك" ^(١)، و(جعل) من أفعال التحويل، يقول ابن عقيل: "وأما أفعال التحويل فتتعدى أيضاً إلى مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر، وعدّها بعضهم سبعة: (صير) نحو (صيرت الطين خزفاً) و(جعل)" ^(٢) فهي بمعنى صير وخلق تتعدى إلى مفعولين.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ^(٣)، يقول الشوكاني: "انتصاب (السيئات) على أنها صفة لمصدر محذوف، أي: يمكرون المكرات السيئات، وذلك لأن (مكر) لازم، ويجوز أن يضمن يمكرون معنى يكسبون فتكون السيئات مفعولاً به" ^(٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَاءَ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾ ^(٥)، وضح الشوكاني التضمن في الآية فقال: "أي انطلقوا من مجلسهم الذي كانوا فيه عند أبي طالب قائلين: (أن امشوا) أي قائلين لبعضهم بعضاً: امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه (واصبروا على آلهتكم) أي: اثبتوا على عبادتهم... و(أن) في قوله (أن امشوا) هي المفسرة للقول المقدر أو لقوله: (وانطلق) لأنه مضمن معنى القول" ^(٦).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ^(٧)، فقد ضمن تركنا معنى قلنا، قال الكوفيون: جملة (سلام على نوح في العالمين) في محل نصب مفعول (تركنا) لأنه ضمن معنى قلنا" ^(٨).

ومنه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ^(٩)، جملة (يشرب بها عباد الله) صفة لـ (عيناً) وقيل: إن الباء في (يشرب بها) زائدة، وقيل: بمعنى (من) قاله الزجاج، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: يشربها عباد الله، وقيل: إن يشرب مضمن

(١) فتح القدير: ج ٤٣١/٥ .

(٢) شرح ابن عقيل: ج ٣٥٨/١ .

(٣) فاطر: ١٠ .

(٤) فتح القدير: ج ٤٠٧/٤ .

(٥) ص: ٦ .

(٦) فتح القدير: ج ٥٠١/٤ .

(٧) الصافات: ٧٩، ٧٨ .

(٨) فتح القدير: ج ٤٧٧/٤ .

(٩) الإنسان: ٦ .

معنى يلتذ... وقال الفراء: يشربها ويشرب بها سواء في المعنى، وكأن يشرب بها يروى بها وينتفع بها" (١).

وعليه فقد تكون يشرب مضمنة معنى يلتذ، أو مضمنة معنى يروى، كما ذكر ذلك الفراء والزركشي أيضاً حيث قال: "فضمن (يشرب) معنى (يروى) لأنه لا يتعدى بالباء، فلذلك دخلت الباء، وإلا ف (يشرب) يتعدى بنفسه، فأريد باللفظ الشرب والري معاً، فجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ واحد" (٢).

وجاء في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ (٣)، قوله: للكافرين: صفة أخرى لعذاب، أي كائن للكافرين، أو متعلق بواقع، واللام للعلة، أو يسأل على تضمينه معنى دعا، أو في محل رفع على تقدير: هو للكافرين، أو تكون اللام بمعنى على (٤) حيث ذكر تضمين الفعل سأل معنى (دعا).

ومن التضمين في الحروف قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ (٥)، يقول الشوكاني: والفاء للسببية لأن كونه رب العالمين سبب موجب لأن يعيد، وعدى فعل الصبر باللام دون على التي يتعدى له لتضمنه معنى الثبات" (٦).

وذكر هذا المعنى أبو السعود في تفسيره للآية السابقة فقال: "وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما في قوله تعالى: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (٧) لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما توردها من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز: اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك معه شدائده" (٨).

(١) فتح القدير: ج ٤١١/٥ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ج ٣٣٨/٣ .

(٣) المعارج: ٢٠١ .

(٤) فتح القدير: ج ٣٤٣/٥ .

(٥) مريم: ٦٥ .

(٦) فتح القدير: ج ٤٣١/٣ .

(٧) طه: ١٣٢ .

(٨) تفسير أبي السعود: ج ٢٥٠/٤ .

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ (١).

أي لهم في الآخرة عذاب جهنم بسبب كفرهم، والجملة في محل رفع على أنها خبر إن، أو الخبر (لهم) و(وعذاب جهنم) مرتفع به على الفاعلية، والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط" (٢).

ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٣) فقله: (فبشرهم بعذاب أليم) خبر (إن الذين يكفرون...) إلخ، ودخلته: الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط" (٤) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ (٥)، قال الشوكاني: "أي لا تتجاوز عينك إلى غيرهم، قال الفراء: معناه لا تصرف عينك عنهم، وقال الزجاج: لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة، واستعماله بعن لتضمنه معنى النبوء من عدوته عن الأمر أي صرفته منه" (٦).

ومن التضمنين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ (٧)، قال الشوكاني: "وإنما عدي بـ(إلى) وهو يتعدى بالياء فيقال خلوت به لا خلوت إليه، لتضمنه معنى ذهبوا وانصرفوا" (٨). قال الشوكاني: "وإنما يقال: خلوت به، لكن ضمن (خلوا) معنى (ذهبوا وانصرفوا) وهو معادل لقوله: لقوا" (٩).

ومن تضمين الاسم معنى الاسم :

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ (١٠).

(١) البروج: ١٠ .

(٢) فتح القدير: ج ٥/٤٩٠ .

(٣) آل عمران: ٢١ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٤٤٤ .

(٥) الكهف: ٢٨ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/٣٥٥ .

(٧) البقرة: ١٤ .

(٨) فتح القدير: ج ١/٧٥ .

(٩) البرهان في علوم القرآن : ج ٣/٣٣٩ .

(١٠) الأعراف: ١٠٥ .

قريء حقيق على أن لا أقول: أي واجب على ولازم لي أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق... وقيل: إن (حقيق) مضمن معنى حريص" (١) وذلك ليفيد أنه محقوق بقول الحق وحريص عليه" (٢) ، وقال فيه أبو السعود: "والمعنى واجب على القول الحق أن أكون أنا قائله لا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، أو ضمّن حقيق بمعنى حريص" (٣) .

الجناس :

وهو من المحسنات اللفظية :

يقول القزويني : " الجناس بين اللفظين هو تشابههما في اللفظ " (٤) .

ويسميه العلوي التجنيس وعرفه بقوله : " هو عبارة عن اتفاق اللفظين في وجه من الوجوه مع اختلاف معانيهما " (٥) .

وقد ذكره الشوكاني دون الوقوف عليه أو تحديد طرفيه ، وذلك في قوله تعالى:
﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٦) .

يقول الشوكاني : " قوله : (وهو يدرك الأبصار) أي يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية ، وخص الأبصار ليجانس ما قبله " (٧) .

فأراد هنا الجناس بين لفظي الأبصار الأولى والأبصار الثانية وهو من الجناس التام الذي " يتفق لفظاه في أنواع الحروف وعددها ، وهيأتها وترتيبها" (٨) ، وهو النوع الأول من الجناس التام المماثل وهو ما كان لفظاه من نوع واحد .

(١) فتح القدير: ج ٢/ ٢٩٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ج ٣/ ٣٣٨ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ٣/ ١٤ .

(٤) الإيضاح : ٣٨٢ .

(٥) الطراز : ٥٦٢ .

(٦) الأنعام : آية ١٠٣ .

(٧) فتح القدير ج ٢ / ١٩٠ .

(٨) من بلاغة القرآن : لمحمد ونعمان علوان / ٢٧٠ .

الفصل الرابع

مكانة فتح القدير بين كتب التفسير

المبحث الأول : منهجه في التفسير

يعد تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني من أمهات كتب التفسير مثل تفسير القرطبي وتفسير الكشاف وتفسير البيضاوي، وتفسير ابن كثير، وتفسير الطبري، والتفسير الكبير للرازي.

وقد سماه الشوكاني (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراسة في علم التفسير) .

وهذا الاسم يوحي لنا بمضمون هذا التفسير حيث أنه جمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي ولكن الرأي عن دراية ومعرفة، وقدرة على الاستنباط والتحليل والتغليب والترجيح، يقول الشوكاني في مقدمة كتابه عن سبب ولوجه علم التفسير وعن طريقته التي انتهجها في هذا التفسير: "ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية البنيان، المرتفعة المكان، رغبت إلى الدخول من أبوابه، ونشطت إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول: إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلخوا طريقين: الفريق الأول: اقتصرنا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الرواية، والفريق الآخر: جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاعوا بها لم يصححوا لها أساساً، وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتم بدونه كمال الانتصاب، فإن ما كان من التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ، وإن كان المصير إليه متعيناً، وتقديمه متحتماً، غير أن الذي صح عنه من ذلك إنما هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان، وأما ما كان منها ثابتاً عن الصحابة رضي الله عنهم، فإن كان من الألفاظ على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم، فإن خالف المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب، فبالأولى تفاسير من بعدهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة، وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال

ما يستفاد من العلوم التي تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه" (١) .

ثم يقول: "لا بد من الجمع بين الأمرين وعدم الاقتصار على مسك أحد الفريقين ، وهذا هو المقصد الذي وطنت نفسي عليه، والمسلك الذي عزمت على سلوكه إن شاء الله مع تعرضي للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لي وجهه ، وأخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب ، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو الأئمة المعترين ، وقد أذكر ما في إسناده ضعف إما لكونه في المقام ما يقويه أو لموافقته للمعنى العربي وقد أذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد لأنني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك" (٢)

وبعد أن بين الطريقة التي سلكها في تفسيره، يبين قيمة هذا التفسير بالنسبة للتفاسير الأخرى فيقول: "فهذا التفسير وإن كبر حجمه ، فقد كثر علمه وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحق سهمه ، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد مع زوائد فوائد وقواعد شوارد، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب اللباب وعجب العجاب وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب" (٣) .

وقد آثرت ذكر المقدمة لما فيها من توضيح للمنهج الذي اعتمده الشوكاني في تفسيره، والعلوم التي اعتمدها والتي هي عدة كل من أراد أن يدخل لهذا العلم ويكون له شأواً ومنزلة عند الله، وسأتحدث الآن عن تطبيقه لهذا المنهج وطريقته في كتابه .

يبدأ الشوكاني السورة بذكر أسمائها إن وجدت، وأين نزلت بمكة أم بالمدينة ثم يبين فضلها وذلك في كثير من السور، وقد يذكر أسباب نزولها، ثم يقسم الآيات إلى مجموعات ويبدأ بتفسير الآيات فيتحدث عن المعنى اللغوي وعلاقة الكلمات من الناحية النحوية والصرفية ويظهر الصور البلاغية إن وجدت ويستشهد بأقوال العلماء والمفسرين، وبالآحاد التي تبين تفسير

(١) فتح القدير: ج ٣٠/١ .

(٢) فتح القدير: ج ٣١/١ .

(٣) فتح القدير: ج ٣١/١ .

الآية ،أو بالآيات التي توضح تفسير الآية ،ثم يذكر الأحاديث التي وردت في شأن الآيات التي قام بتفسيرها وذلك في نهاية كل مجموعة من الآيات.

وسأدلل الآن على ما ذكرت من طريقة الشوكاني في تفسيره بأمثلة على ذلك:

أولاً: ذكره لأسماء السور وفضلها ومكان نزولها:

سورة الفاتحة، يقول الشوكاني في معنى الفاتحة: "معنى الفاتحة في الأصل: أول ما من شأنه أن يفتتح به، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، والتاء للنقل من الوصفية إلى الاسمية، فسميت هذه السورة (فاتحة الكتاب) لكونه افتتح بها، إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن، وقد اشتهرت هذه السورة الشريفة بهذا الاسم في أيام النبوة" (١) .

وفي ذكر أسمائها يقول: "وتسمى (أم الكتاب) قال البخاري في أول التفسير : وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف ويبدأ بقراءتها في الصلاة ... قال ابن كثير في تفسيره : وصح تسميتها بالسبع المثاني، قالوا : لأنها تنثني في الصلاة فتقرأ في كل ركعة، وأخرج أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال لأم القرآن : " هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم " ... ومن جملة أسمائها كما حكاها في الكشاف سورة الكنز والواقية وسورة الحمد وسورة الصلاة" (٢).

ومثال على ما ذكره عن مكان نزول السورة، يقول في سورة التغابن: "وهي مدنية في قول الأكثر، وقال الضحاك: هي مكية، وقال الكلبي: هي مدنية مكية، وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بالمدينة، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله، وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف ابن مالك الأشجعي" (٣).

(١) فتح القدير: ج ٣٣/١ .

(٢) فتح القدير: ج ٣٤، ٣٣/١ .

(٣) فتح القدير: ج ٢٧٩/٥ .

ومثال ذكره لفضائل السور، سورة الفاتحة يقول الشوكاني: "قد ورد في فضل هذه السورة أحاديث، منها ما أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال له : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد قال : فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله ، إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ؟ قال : نعم : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته" (١) .

ثانياً: اللغة :

يهتم الشوكاني باللغة في تفسيره وهي من أهم أدوات المفسر، حيث يقف الشوكاني عند الكلمات التي تحتاج إلى توضيح المعنى اللغوي لها فيبين معناها وقد يذكر علماء اللغة الذين قاموا بتفسير معناها اللغوي، يقول الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ (٢) .

"قال الكسائي: سرب يسرب سرباً وسروباً إذا ذهب، ومنه قول الشاعر:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي: ذهب، وقال القتيبي: ﴿ سارب بالنهار ﴾ متصرف في حوائجه بسرعة من قولهم: أسرب الماء، قال الأصمعي: حل سربه أي: طريقته" (٣) . فهو يبين أقوال العلماء في كلمة سارب.

ويقول في أصل كلمة الناس "وأصل ناس أناس حذفته همزته تخفيفاً، وهو من النوس وهو الحركة، يقال: نسا ينوس أي تحرك، وهو من أسماء الجموع جمع إنسان وإنسانة على غير لفظه، واللام الداخلة عليه للجنس" (٤).

وهنا يبين الشوكاني معنى الكلمة دون الرجوع إلى أقوال العلماء مما يدل على تمكنه

في اللغة.

(١) فتح القدير: ج ١/٣٤، ٣٥ .

(٢) الرعد: ١٠ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/٨٦ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٧١ .

ويقول في قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ (١).

والتسنه مأخوذ من السنة : أي لم تغيره السنون وأصلها سنهة أو سنوة من سنهت النخلة وتسنهت : إذا أتت عليها السنون ونخلة سنا : أي تحمل سنة ولا تحمل أخرى ، وأسنهت عند بني فلان : أقمت عندهم ، وأصله يتسنا سقطت الألف للجزم والهاء للسكت ، وقيل : هو من أسن الماء : إذ تغير وكان يجب أن يقال : يتأسن من قوله : ﴿حما مسنون﴾ قاله أبو عمرو الشيباني ، وقال الزجاج : ليس كذلك لأن قوله : ﴿مسنون﴾ ليس معناه متغير وإنما معناه مصبوب على سنة الأرض (٢) .

وفي قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (٣) . يقول الشوكاني موضحاً المعنى اللغوي لكلمة رمضان مستنداً بأقوال العلماء: "رمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض : إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء ممدود شدة الحر ، ومنه الحديث الثابت في الصحيح: (صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال) أي أحرقت الرمضاء أجوافها، قال الجوهري : وشهر رمضان يجمع على رمضانات وأرمضاء، يقال: إنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق هذا الشهر أيام الحر فسمي بذلك، وقيل : إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب : أي يحرقها بالأعمال الصالحة، وقال الماوردي : إن اسمه في الجاهلية ناتق" (٤) .

ويذكر هنا الجواهري وهو واحد من أصحاب المعاجم اللغوية ، وهذا يدل على اهتمامه بالمعاجم اللغوية والرجوع إليها عند الحاجة.

ثالثاً: اهتمامه بالنحو:

يكثر الشوكاني من تناوله للنحو لما له من دور في فهم الآيات وتفسيرها على الوجه الصحيح، ومن إعطاء أكثر من وجه لتفسير الآية، وهو يذكر في كثير من الأحيان علاقات الكلمات ببعضها وإعرابها وعلاقات الجمل بما قبلها، وكذلك يبين آراء علماء النحو في كثير من

(١) البقرة: ٢٥٩ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٣٨١ .

(٣) البقرة : ١٨٥ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٢٥٤ .

الأحيان، وقد يذكر مدرستي البصرة والكوفة والخلاف بينهما في تفسير الآية من الناحية النحوية، ونمثل لعمل الشوكاني في هذا الجانب .

يقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾^(١) .

"يحتمل أن يكون كذلك في محل نصب، أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا، ويحتمل أن يكون في محل جر على الوصفية، أي مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم، ويحتمل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك"^(٢) .

ومثال على ذكر الشوكاني لآراء علماء النحو، قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(٣) .

إذ يقول: ﴿ وشهر ﴾ مرتفع في قراءة الجماعة على أنه مبتدأ، خبره ﴿ الذي أنزل فيه القرآن ﴾ أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي المفروض عليكم صومه شهر رمضان، ويجوز أن يكون بدلاً من الصيام المذكور في قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾^(٤) . وقرأ مجاهد وشهر بن حوشب بنصب الشهر، ورواها هارون الأعمور عن أبي عمرو، وهو منتصب بتقدير الزموا، أو صوموا، قال الكسائي والفراء: إنه منصوب بتقدير فعل (كتب عليكم الصيام، وأن تصوموا) وأنكر ذلك النحاس وقال: إنه منصوب على الإغراء، وقال الأخفش: إنه نصب على الظرف ومنع الصرف للألف والنون الزائدتين"^(٥) .

ونلاحظ أن الشوكاني بين سبب ارتفاع كلمة (شهر) في قراءة الجماعة، ثم ذكر آراء العلماء في إعراب كلمة (شهر) مما يدل على سعة إطلاعه وتمكنه من معرفة آراء العلماء والقراءات .

وشاهد على نقله لآراء مدرستي البصرة والكوفة، قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ... ﴾^(٦) . ، يقول: " وقوله : (ولتكملوا العدة) الظاهر أنه

(١) الشعراء: ٥٩ .

(٢) فتح القدير: ج٤/ ١٢٣ .

(٣) البقرة: ١٨٥ .

(٤) البقرة: ١٨٣ .

(٥) فتح القدير: ج١/ ٢٥٥ .

(٦) البقرة: ١٨٥ .

معطوف على قوله : (يريد الله بكم اليسر) أي يريد بكم اليسر ويريد إكمالكم للعدة وتكبيركم وقيل : إنه متعلق بمحذوف تقديره : رخص لكم هذه الرخصة لتكملوا العدة ، وشرع لكم الصوم لمن شهد الشهر لتكملوا العدة ، وقد ذهب إلى الأول البصريون قالوا : والتقدير يريد لأن تكملوا العدة ومثله قول كثير بن صخر :

أريد لأتسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلا بكل سبيل

وذهب الكوفيون إلى الثاني وقيل : الواو مقحمة وقيل : إن هذه اللام لام الأمر والواو لعطف الجملة التي بعدها على الجملة التي قبلها^(١) .

رابعاً : حديثه عن أسباب النزول :

وهو الحديث عن أسباب نزول الآية أو الآيات أو السورة ، وهو علم من علوم القرآن، وله فوائد ذكر السيوطي منها^(٢) .

- ١- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.
- ٢- تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.
- ٣- أن اللفظ قد يكون عاماً، ويقوم الدليل على تخصيصه.
- ٤- الوقوف على المعنى وإزالة الإشكال، قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.
- ٥- دفع توهم الحصر.

والشوكاني قد يذكر أكثر من سبب لنزول الآية مستنداً بالأحاديث النبوية وما روى عن الصحابة فيقول في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٣) .

"أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: اسألوه عن

(١) فتح القدير: ج ١/٢٥٥، ٢٥٦ .

(٢) الإنتقان في علوم القرآن : ج ١/١٠٨-١١٠ .

(٣) الإسراء: ٨٥ .

الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، فقالوا: يا محمد ما الروح؟ فما زال متكئاً على العسيب، فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ ، وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ في العظمة الحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال: قالت قریش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، قالوا: سلوه عن الروح، فنزلت ﴿ ويسألونك عن الروح... ﴾ (١) .

وفي سورة المسد يبين الشوكاني ما روي عن سبب نزول هذه السورة فيقول:

"وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢) . خرج النبي ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم لو أخبرتمكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: ﴿ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ فقال أبو لهب: تبا لك إنما جمعتنا لهذا؟ ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٣) .

خامساً: علم الحديث:

لقد كان للشوكاني باعاً طويلاً في الحديث ومعرفة رجاله وخاصة أن له كتب في الحديث مثل (نيل الأوطار) و (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) وبحث في (قول الرجال للحديث) وغيرها من الأبحاث، وفي تفسيره فتح القدير، يستشهد بالأحاديث النبوية عند تفسيره للآيات، ويجعل في نهاية كل تفسير للآيات جزءاً خاصاً للأحاديث المفسرة لتلك الآيات.

يقول في منهجه في أخذه للحديث: "واحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ ، أو الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو الأئمة المعترين، وقد أذكر ما في إسناده ضعف، إما لكونه في المقام ما يقويه، أو لموافقه للمعنى العربي، وقد أذكر الحديث معزواً إلى روايه من غير بيان حال الإسناد، لأنني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك ، كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي وغيرهم ، ويبعد كل البعد أن يعلموا في

(١) فتح القدير: ج ٣/٣٢٣ .

(٢) الشعراء: ٢١٤ .

(٣) فتح القدير ج ٥/٦١٥ .

الحديث ضعفا ولا يبينونه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه إنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن، لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيرا التصريح بالصحة أو الحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم إليها فليُنظر في أسانيدنا موقفا إن شاء الله" (١) .

يقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾ (٢) . "والميتة: ما فارقها الروح من غير ذكاة، وقد خصص هذا العموم بمثل حديث: (أحل لكم ميتتان ودمان) أخرجه أحمد وابن ماجه والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً" (٣) .

فالشوكاني يستشهد بالحديث الشريف على تخصيص العموم وهو استثناء ميتة السمك والجراد من باقي الميتة.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ (٤) . يقول الشوكاني: "فيه التصريح بأن السموات سبع وأما الأرض فلم يأت في ذكر عددها إلا قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فقيل : أي في العدد، وقيل : أي في غلظهن وما بينهن، وقال الداودي : إن الأرض سبع ولكن لم يفتق بعضها من بعض، والصحيح أنها سبع كالسموات، وقد ثبت في الصحيح قوله ﷺ : (من أخذ شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله من سبع أرضين) وهو ثابت من حديث عائشة وسعيد بن زيد" (٥) .

والشوكاني هنا يستدل بالحديث على أن الأرض سبع مثل السموات وينقل الحديث من الصحيح ويذكر رواته وهما عائشة- رضی الله عنها- وسعيد بن زيد- رضي الله عنه- وأحياناً يورد الشوكاني الحديث دون إسناد ويشير إلى وجوب الكشف عن إسناده يقول: "أخرج الطبراني في قوله تعالى: ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ (٦) . قال: يجلسه فيما بينه

(١) فتح القدير : ج ٣١/١ .

(٢) البقرة: ١٧٣ .

(٣) فتح القدير: ج ٢٣٨/١ .

(٤) البقرة: ٢٩ .

(٥) فتح القدير: ج ٩٨/١ .

(٦) الإسراء: ٧٩ .

وبين جبريل ويشفع لأمته، فذلك المقام المحمود، وأخرج الديلمي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ : (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) قال: (يجلسني معه على السرير) وينبغي الكشف عن إسناد هذين الحديثين" (١) .

سادساً: القراءات القرآنية

يهتم الشوكاني بالقراءات القرآنية كثيراً ، و لا تكاد صفحات كتابه تخلو من ذكر للقراءات واختلافها إضافة إلى ذكر قرائها، واختلاف التفسير تبعاً لاختلاف القراءات، فمن أمثلة تناوله للقراءات وذكره للقراء واختلاف المعاني لاختلاف القراءات تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ (٢) . إذ يقول: "قرأ الجمهور (أوبي) بفتح الهزرة وتشديد الواو على صيغة الأمر من التأويب، وهو الترجيع أو التسبيح أو السير أو النوح، وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق (أوبي) بضم الهزرة أمراً من آب يؤوب إذا رجع، أي ارجعي معه، قرأ الجمهور { والطير } بالنصب عطفاً على { فضلاً } على معنى : وسخرنا له الطير، لأنه إيتاءه إياها تسخيرها له، أو عطفاً على محل { يا جبال } لأنه منصوب تقديرًا، إذ المعنى : نادينا الجبال والطير، وقال سيوييه وأبو عمرو بن العلاء : انتصابه بفعل مضمر على معنى وسخرنا له الطير وقال الزجاج والنحاس : يجوز أن يكون مفعولاً معه كما تقول : استوى الماء والخشبة، وقال الكسائي إنه معطوف على فضلاً لكن على تقدير مضاف محذوف، أي آتيناه فضلاً وتسبيح الطير، وقرأ السلمي والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم وابن هرمز ومسلمة بن عبد الملك بالرفع عطفاً على لفظ الجبال، أو على المضمر في (أوبي) لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه" (٣) .

ومثال على موافقته للقراءات ومخالفته لرأي العلماء، قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (٤) . يقول الشوكاني: "قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي والأعمش (التنأوش) بالهمز، وقرأ الباقرن بالواو، واستبعد أبو عبيد والنحاس القراءة الأولى، ولا وجه للاستبعاد، فقط ثبت ذلك في لغة العرب وأشعارها، ومنه قول الشاعر:

(١) فتح القدير: ج ٣/٣٢٢ .

(٢) سبأ: ١٠ .

(٣) فتح القدير: ج ٤/٣٧٧ .

(٤) سبأ: ٥٢ .

أي وجئت أخيراً، قال الفراء: الهمزة وترك الهمز متقارب^(١) .

ومن اهتمام الشوكاني بذكر القراءات التي تظهر لغات العرب قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾^(٢) . قرأ الحسن وحميد (رسلاً) بسكون السين وهي لغة تميم^(٣) .

سابعاً: جمعه في تفسيره بين المأثور والدراية (الرأي) :

و يتضح هذا جلياً من عنوان كتابه (فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير) ، وقد عني الشوكاني بهما عناية فائقة فمن الشواهد على تفسيره القرآن بالقرآن، قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(٤) .

يقول الشوكاني في معنى القرآن: "والقرآن اسم لكلام الله تعالى، وهو بمعنى المقروء، كالمشروب سمي شراباً، والمكتوب سمي كتاباً، وقيل: هو مصدر قرأ يقرأ... ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ أي قراءة الفجر"^(٥) .

وفي قوله تعالى: ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءِ بِنَاهَا ﴾^(٦) . قال الشوكاني: "أي: أخلقتكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم أم خلق السماء والخطاب لكفار مكة، والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيك، لأن من قدر على خلق السماء التي لها هذا الجرم العظيم وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين للناظرين كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة؟ ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾^(٧) .

(١) فتح القدير: ج٤/٤٠٠، ٤٠١ .

(٢) فاطر: ١ .

(٣) فتح القدير: ج٤/٤٠٣ .

(٤) البقرة: ١٨٥ .

(٥) فتح القدير: ج١/٢٥٥ .

(٦) النازعات: ٢٧ .

(٧) غافر: ٥٧ .

وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ (١) .

ومن شواهد تفسير القرآن بالحديث ما قاله الشوكاني في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٢) . والأُمِّي منسوب إلى الأمة الأُمِّيَّة التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث: (إنا أمة أُمِّيَّة لا نكتب ولا نحسب) (٣) .

يتبين لنا من خلال ما ذكرناه من اهتمام الشوكاني بالعلوم السابقة إضافة إلى غيرها من العلوم التي لم نذكرها مكانة هذا التفسير بين التفاسير الأخرى.

(١) فتح القدير: ج ٥/٤٤٦، ٤٤٧ .

(٢) البقرة: ١٧٨ .

(٣) فتح القدير: ج ١/١٥٤ .

المبحث الثاني

منهجه البلاغي

اهتم الشوكاني بالدرس البلاغي كغيره من علماء التفسير الذين سبقوه وهذا واضح من خلال ما بيناه في الفصول الثلاثة السابقة، ولم يخرج الشوكاني في منهجه عن علماء التفسير إذ إنه اعتمد ما اعتمده، فكان يذكر الفنون البلاغية أثناء تعرضه لتفسير الآيات، وذلك بعد أن يبين النواحي اللغوية والنحوية في الآيات كما يبين الناحية البلاغية فيها، وأحياناً يذكرها قبل اللغة والنحو أو يبينهما، وغير ذلك من الطرق في توضيح الناحية البلاغية.

وقد كان اهتمام الشوكاني بعلمي المعاني والبيان أكثر من اهتمامه بعلم البديع، فقد ذكر أغلب فنون علم المعاني، وجميع فنون البيان، ولم يذكر من فنون علم البديع إلا بعضاً منها، وكأنه يعتمد في ذلك منهج الجرجاني والزمخشري.

وقد تحدث الشوكاني عن الفصاحة وذكر تعريفها لغة واصطلاحاً وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾^(١).

فيقول: "والفصاحة لغة: الخلوص، يقال: فصح اللين وأفصح فهو فصيح، أي: خلص من الرغوة، ومنه: فصح الرجل: جادت لغته، وأفصح: تكلم بالعربية، وقيل: الفصيح الذي ينطق والأعجم الذي لا ينطق، وأما في اصطلاح أهل البيان فالفصاحة: خلوص الكلمة عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، وفصاحة الكلام: خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد"^(٢).

وذكر الفصاحة والبلاغة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾^(٣). فقال: "وهذا نوع من البلاغة بليغ وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص الذي هو موت حياة باعتبار ما يتوَل إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم"^(٤).

(١) القصص: ٣٤ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/٢٠٨ .

(٣) البقرة: ١٧٩ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٢٤٧ .

ويرى الشوكاني أن استخدام علمي المعاني والبيان في التفسير لا يعتبر من التفسير بالرأي المنهي عنه فيقول: "كثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية، ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي تتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير باللغة، لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه"^(١).

ويوافق الشوكاني القائلين بأن القرآن معجز ببلاغته، ويرفض رأي القائلين أنه بالصرفه فيقول: "وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر؟ أو كان العجز عن المعارضة للصرفه من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه؟ والحق الأول، والكلام في هذا مبسوط في مواطنه"^(٢).

كذلك نجد الشوكاني يذكر الفن البلاغي موضحاً للغرض البلاغي منه، أو نوع ذلك الفن ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾^(٣). في الآية التفات يوضحه الشوكاني مبيناً الغرض منه فيقول: "التفت سبحانه إلى خطاب الكفرة تبيكيتاً لهم وإلزاماً للحجة، أي: فهلا تصدقون بالبعث أو بالخلق"^(٤).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٥).

يقول الشوكاني: "الاستفهام في (أغير الله أبغي ربا) للإلكار، وهو جواب على المشركين لما دعوه إلى عبادة غير الله، أي كيف أبغي غير الله رباً مستقلاً وأترك عبادة الله أو شريكا لله فأعبدهما معاً، والحال أنه رب كل شيء والذي تدعونني إلى عبادته هو من جملة من هو مربوب له مخلوق مثلي لا يقدر على نفع ولا ضرر، وفي هذا الكلام من التقرير والتوبيخ لهم ما لا يقدر قدره"^(٦).

(١) فتح القدير: ج ٣٠/١ .

(٢) فتح القدير: ج ٨٨/١ .

(٣) الواقعة: ٥٧ .

(٤) فتح القدير: ج ١٨٧/٥ .

(٥) الأنعام: ١٦٤ .

(٦) فتح القدير: ج ٢٣٧/٢ .

وقوله عز وجل: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١) .

بين الشوكاني الغرض من الأمر في الآية فقال: "فيه تخويف وتهديد: أي إن عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ولا على المؤمنين فسارعوا إلى أعمال الخير وأخلصوا أعمالكم لله عز وجل، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط، فإن من علم أن علمه لا يخفى سواء كان خيراً أو شراً رغب إلى أعمال الخير وتجنب أعمال الشر" (٢).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَأ تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَأ تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ (٣) .

يبين الشوكاني الفن البلاغي في الآية فيقول: "شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل، وبالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء إلى الله ثم ذكر جملة لتكميل التشبيه وتأكيد، فقال: (إذا ولوا مدبرين) أي إذا أعرضوا عن الحق إعراضاً تاماً، فإن الأصم لا يسمع الدعاء إذا كان مقبلاً، فكيف إذا كان معرضاً عنه مولياً مدبراً" (٤) .

ومن منهج الشوكاني البلاغي أنه يتعرض أحياناً لتعريف بعض فنون البلاغة، فقد عرف الفصاحة كما ذكرنا، كذلك عرف المشاكلة فقال: "وقد كانت العرب إذا وضعت لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزءاً ذكرته بمثل ذلك اللفظ، وإن كان مخالفاً له في معناه" (٥) .

وعرف الخبر فقال: "والصدق خلاف الكذب وهو مطابقة الخبر للواقع أو للاعتقاد أولهما، على الخلاف المعروف في علم المعاني" (٦) .

ومنه تعريفه للالتفات فيقول: "الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني" (٧) .

(١) التوبة: ١٠٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٥٠٥ .

(٣) النمل: ٨٠ .

(٤) فتح القدير: ج ٤/١٨٢ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٧٦ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٨٧ .

(٧) فتح القدير: ج ١/٤٥ .

وعرف التعريض أيضاً فقال: "التعريض ضد التصريح، وهو من قولك: عرضت الرجل أي اهديت له، ومنه أن ركباً من المسلمين عرضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر ثياباً بيضاً، أي أهدوا لهما"^(١).

ويقارن الشوكاني بين بعض الفنون البلاغية، فقد قارن بين الكناية والتعريض كما ذكرنا ذلك عند حديثنا عن التعريض، فقال: "الفرق بين الكناية والتعريض أن الكناية أن يذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له، والتعريض أن يذكر شيئاً يدل به على شيء لم يذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه جئتكم لأسلم عليكم ولأنظر إلى وجهك الكريم، ولذلك قالوا: وحسبك بالتسليم منى تقاضياً، وكأنه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض، ويسمى التلويح لأنه يلوح منه ما يريد"^(٢).

ونجد أن الشوكاني ينقل الوجه البلاغي في الآية عن العلماء السابقين له وقد يصرح بأسماء من ينقل عنهم وهذا ما لاحظناه عند الحديث عن المبحث الأول من هذا الفصل.

يقول الشوكاني في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾^(٣).

"وتتكير (حياة) للتحقير، أي إنهم أحرص الناس على أحرر حياة وأقل لبث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة ولبث متناول، وقال في الكشاف: إنه أراد بالتكثير حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطاول، وتبعه في ذلك الرازي في تفسيره"^(٤)، فقد ذكر هنا اسم الرازي ومتابعته لصاحب الكشاف في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾^(٥).

يقول الشوكاني: "وجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي، ذكر معناه ابن كثير في تفسيره"^(٦)، والمقصود تكرار النداء حيث ذكر في آية سابقة، ونقل الشوكاني هذا عن ابن كثير.

(١) فتح القدير: ج ١/٣٤٢.

(٢) فتح القدير: ج ١/٣٤٢.

(٣) البقرة: ٩٦.

(٤) فتح القدير: ج ١/١٦٨.

(٥) البقرة: ١٢٢.

(٦) فتح القدير: ج ١/١٩٦.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) . يقول الشوكاني: "جملة حالية، أي نعبده حال إسلامنا له، وجوز الزمخشري أن تكون اعتراضية على ما يذهب إليه من جواز وقوع الجمل الاعتراضية آخر الكلام"^(٢) . ، وهنا ذكر الزمخشري باسمه.

وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾^(٣) . يقول الشوكاني: "وهو خبر معنى الأمر، للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه... (يغفر لكم ذنوبكم) هذا جواب الأمر المدلول عليه بلفظ الخبر ولهذا جزم، قال الزجاج والمبرد : قوله : (تؤمنون) معنى (آمنوا) ولذلك جاء يغفر لكم مجزوماً، وقال الفراء : يغفر لكم جواب الاستفهام فجعله مجزوماً لكونه جواب الاستفهام، وقد غلظه أهل العلم، قال الزجاج : ليسوا إذا دلهم على ما ينفعهم يغفر لهم ، إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا، وقال الرازي في توجيه قول الفراء : (إن هل أدلكم) في معنى الأمر عنده، يقال: هل أنت ساكت، أي اسكت، وبيانه أن (هل) بمعنى الاستفهام، ثم يتدرج إلى أن يصير عرضاً وحثاً والحث كالإغراء والإغراء أمر"^(٤) .

وأحياناً يذكر الشوكاني اسم الكتاب الذي ينقل عنه دون ذكر صاحبه كما في قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾^(٥) .

يقول الشوكاني: "وذكر البطون دلالة وتأكيذاً أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل أكل فلان أرضي ونحوه، وقال في الكشف: إن معنى (في بطونهم) ملء بطونهم، قال: يقول: أكل فلان في بطنه وأكل في بعض بطنه"^(٦) .

وقد ينقل الوجهة البلاغية دون ذكر لقائلها فيستخدم كلمة (قيل) وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ ﴾^(٧) .

(١) البقرة: ١٣٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٢٠٨/١ .

(٣) الصف: ١٢، ١١، ١٠ .

(٤) فتح القدير: ج ٢٦٥/٥ .

(٥) البقرة: ١٧٤ .

(٦) فتح القدير: ج ٢٤٠/١ .

(٧) البقرة: ٢١٣ .

يقول الشوكاني: قوله: (سيقول) هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمنافقين سيقولون هذه المقالة عند أن تتحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وقيل: إن (سيقول) بمعنى قال، وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته واستمراره عليه، وقيل: إن الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة، وأن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهويناً لصدمة وتخفيفاً لروعته وكسراً لسورته^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدْمِيَّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٢). يقول الشوكاني: "قيل النكته في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق"^(٣).

والمقصود بالماضيين (سقناه) و(أحيينا) وبالمضارع (تثير) وقد نقل القول دون تحديد صاحبه.

وقد يذكر الشوكاني كذلك أكثر من وجه بلاغي في الآية كما في قوله تعالى: ﴿فلا تطع المكذبين﴾^(٤). حيث قال: "تهاه سبحانه عن ممايلة المشركين، وهم رؤساء كفار مكة لأنهم كانوا يدعونهم إلى دين آباؤه فنهاء عن طاعتهم، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار، أو المراد بالطاعة مجرد المداراة بإظهار خلاف ما في الضمير، فنهاء الله عن ذلك"^(٥).

ذكر الشوكاني هنا الوجه البلاغي الأول وهو النهي، ثم وجهاً بلاغياً ثانياً وهو التعريض، فقد يكون المعنى البلاغي فيها النهي أو التعريض.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾^(٦). يقول الشوكاني: "وأما قوله: (قلنا اهبطوا) بعد قوله: (وقلنا اهبطوا)^(٧). فكرره للتوكيد والتغليظ، وقيل: إنه لما تعلق به حكم غير

(١) فتح القدير: ج ١/٢١٣.

(٢) فاطر: ٩.

(٣) فتح القدير: ج ٤/٤٠٦.

(٤) القلم: ٨.

(٥) فتح القدير: ج ٥/٣٢٠.

(٦) البقرة: ٣٨.

(٧) البقرة: ٣٦.

الحكم الأول كرره، ولا تزامم بين المقتضيات فقد يكون التكرير للأمرين معاً^(١) .

هنا تحدث عن الغرض من التكرار فقد يكون للتوكيد والتغليظ، وقد يكون لتعلقه بحكم غير الحكم الأول.

كذلك يستشهد الشوكاني بالشعر ليثبت الأسلوب البلاغي الذي يتحدث عنه مثال ذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٢) . حيث يقول: "والركوع في اللغة : الانحناء، وكل منحن راعع، قال لبيد:

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راعع

وقيل: الانحناء يعم الركوع والسجود، ويستعار الركوع أيضاً للانحطاط في المنزلة: قال الشاعر:

لا تهين الفقير عنك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

وإنما خص الركوع بالذكر هنا لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل : لكونه كان ثقيلاً على أهل الجاهلية^(٣) . وقد استشهد هنا ببيت شعر دل على أن الركوع يستعار للانحطاط والذل.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾^(٤) . يقول الشوكاني: "الظاهر في هذا المعنى الحقيقي وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ، وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله ... ومنه قول الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإِنَّمَا يقول له كُن فَيَكُونُ

وقد قيل : إن ذلك مجاز، وأنه لا قول، وإنما هو قضاء يقضيه فعبر عنه بالقول، ومنه قول الشاعر، وهو عمر بن حممة الدوسي:

(١) فتح القدير: ج ١/ ١٠٩ .

(٢) البقرة: ٤٣ .

(٣) فتح القدير: ج ١/ ١١٩ .

(٤) البقرة: ١١٧ .

فأصبحت مثل النسر طار فراخه إذا رام تطياراً يقال له قع

وقال آخر:

قالت جناحاه لساقيه الحقا ونجيا لحكمكما أن يمزقا^(١).

ولا يسلم الشوكاني بأقوال العلماء بل يناقشها ويعترض عليها ويخالفها ومن أمثلة ذلك اعتراضه على كلام الرازي والشوكاني في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٢).

يقول: "أنزل الله هذه الآية رداً على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال ... فقالوا: الله أجل وأعلا من أن يضرب الأمثال، وقال الرازي: إنه تعالى لما بين الدليل كون القرآن معجزاً أوردها هنا شبهة أوردتها الكفار قدحاً في ذلك، وأجاب عنهم، وتقرير الشبهة أنه جاء في القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء، فاشتمال القرآن عليها يقدر في فصاحته، فضلاً عن كونه معجزاً، وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا تقدر في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتتلاً على حكمة بالغة، انتهى، ولا يخفك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له ولا دليل عليه، وقد تقدمه إلى شيء من هذا صاحب الكشاف، والظاهر ما ذكرناه أولاً لكون هذه الآية جاءت بعقب المثليين اللذين هما المذكوران قبلهما، ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحاً في الفصاحة والإعجاز"^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿تَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾^(٤).

يقول الشوكاني: "وقوله: (فتاب عليكم) قيل: في الكلام حذف أي فقتلتم أنفسكم فتاب عليكم، أي على الباقيين منكم، وقيل: هو جواب شرط محذوف كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب

(١) فتح القدير: ج ١/١٩٢، ١٩٣.

(٢) البقرة: ٢٦.

(٣) فتح القدير: ج ١/٩٢.

(٤) البقرة: ٥٤.

عليكم، وأما ما قاله صاحب الكشاف : من أنه يجوز أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الإلتفات، فيكون التقدير ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم بارئكم، فهو بعيد جداً، كما لا يخفى" (١) .

نلاحظ هنا أن الشوكاني يخالف رأي الزمخشري ويرى أن رأيه بعيد عن معنى الآية ومقصودها.

وبعارض الشوكاني البقاعي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) . فقال: "وقال البقاعي في تفسيره: إنه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم والتحذير من حلول النقم يوم تجمع الأمم، ويدوم فيه الندم لمن زالت به القدم، ليعلم أن ذلك فذلقة القصة، والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة . انتهى.

وأقول : ليس هذا بشيء فإنه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار والأحق بإعادة الذكر هو قوله سبحانه: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (٣) . فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم في هذه السورة هي أيضاً أولى بأن تعاد وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم والوفاء بالعهد والرهبة لله سبحانه... ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحوالي أنه قال: كرره تعالى إظهاراً لمقصد التئام آخر الخطاب بأوله، وليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلاً لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة يجب أن يلحظ القلب بذاته تلك الغاية فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي الثناء، وفي تفهيمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى. انتهى.

وأقول: لو كان هذا هو سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك، وأما قوله: وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار في سائر القرآن فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقرره في الأفهام لا يختص بتكرار آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها فلم تتم حينئذ النكتة في تكرير

(١) فتح القدير: ج ١/ ١٣١ .

(٢) البقرة: ١٢٢ .

(٣) البقرة: ٤٠ .

هاتين الآيتين بخصوصهما، والله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تدركها العقول، فليس في تكليف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هناك" (١) .

وواضح من هذا النص طريقة الشوكاني في رد ما يراه غير صحيح وإثبات ما يريد بالحجة والدليل.

هذه أهم النقاط التي اتبعتها الشوكاني في منهجه البلاغي أثناء تفسيره.

(١) فتح القدير: ج ١/١٩٦، ١٩٧ .

المبحث الثالث

تأثره بالسابقين

لا يمكن لأحد أن يتحدث في تفسير القرآن الكريم ويقول فيه برأيه دون الرجوع إلى الآيات التي يفسر بعضها البعض، والسنة النبوية المفسرة للقرآن، وكذلك أقوال الصحابة ومن ثم العلماء والمحدثين والفقهاء وأهل اللغة والبلاغة وغيرهم، وذلك لينهل من أقوالهم وآرائهم وترجيحاتهم، وهذا ما كان مع مفسرنا الشوكاني الذي درس جميع العلوم المتعلقة بالتفسير - كما وضعنا ذلك في التمهيد - وبالتالي تأثر بسابقيه من العلماء كغيره من المفسرين، لأن المفسر لا بد له من عدة تعينه على تفسير كتاب الله، وقد اعتمد الشوكاني في تفسيره على أفضل العلماء والمفسرين ونقل عنهم وحاورهم وناقشهم فيما أبدوه من آراء. حتى لا نكاد نجد صفحة في كتابه إلا وفيها رجوع إلى قول عالم في التفسير أو الفقه أو الحديث أو اللغة أو البلاغة والإعجاز أو القراءات أو الأصوات أو غير ذلك من العلوم.

ولكن الذي يهمنا في بحثنا هذا من أولئك العلماء هم علماء التفسير وما تحدثوا فيه من بلاغة القرآن، وعلماء البلاغة وغيرهم من العلماء الذين تحدثوا في بلاغة القرآن وإعجازه وكان لهم تأثير على عالمنا الشوكاني في تفسيره فتح القدير، ومن خلال استقرائي لكتاب فتح القدير استطعت أن أقف على تأثر الشوكاني بمجموعة من العلماء الذين تأثر بهم من ناحية بلاغية مثل الفراء والزجاج والزمخشري وابن عطية وأبي السعود، وهناك بعض العلماء الذين نقل عنهم النواحي البلاغية ولكن بصورة قليلة، وسأبين في الصفحات الآتية ذلك حيث: سأنقل كلام الشوكاني في المسألة البلاغية وكلام الذي تأثر به من العلماء، وأوضح أوجه التشابه بينهم إن احتاج إلى ذلك، فقد ينقل الكلام عن العالم من خلال التصريح باسمه وهذا أغلب ما اعتمد عليه، أو لا يصرح باسمه وهذا قليل جداً، وقد لاحظته فقط مع أبي السعود ولعل ذلك لتقارب الزمن بينهما بالنسبة للعلماء الآخرين .

كذلك لاحظت أن الشوكاني ينقل قول العالم دون التعليق عليه، وأحياناً يعلق عليه إما بالموافقة لرأيه وتدعيم ذلك، أو مخالفته له والرد عليه.

ولعل أهم العلماء الذين تأثر بهم الشوكاني من ناحية بلاغية هم :

- أولاً: الفراء: ت(٢٠٧هـ) .
- ثانياً: الزجاج: ت(٣١١هـ) .
- ثالثاً: الزمخشري: ت(٥٣٨هـ) .
- رابعاً: ابن عطية ت(٥٤١هـ) .
- خامساً: أبو السعود ت(٩٨٢هـ) .

هذا إضافة إلى تأثيره بالجرجاني والتفتازاني حيث ذكر كتابة المطول في تفسيره وكذلك ابن جرير الطبري والقرطبي وابن أبي زيد، والقفال والقتبي وغيرهم من العلماء.

أولاً: الفراء ت(٢٠٧هـ) :

يعد الفراء أحد علماء النحو واللغة بل من أشهر علماء النحو واللغة وإمام مدرسة الكوفة فيها. وكانت له آراء بلاغية نثرها في كتابه (معاني القرآن) رجع إليها الشوكاني وتأثر ببعضها فنقلها عنه، وكان يصرح باسم الفراء إذا نقل عنه سواء في المسائل البلاغية أو غيرها من المسائل، وهذا يؤكد تأثيره بالفراء إضافة إلى ما سأذكره من مسائل بلاغية، وأهم هذه المسائل:

١ - التشبيه:

تأثر الشوكاني بالفراء من خلال نقله لكلام الفراء وتصريحه باسمه وسأذكر نص الفراء ثم نص الشوكاني.

يقول الفراء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾^(١) .

"أراد بالوردة الفرس، الوردة تكون في الربيع وردة إلى الصفرة، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة، فشبه تلون السماء بتلون الوردة من الخيل، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه"^(٢) .

(١) الرحمن: ٣٧ .

(٢) معاني القرآن: ج ٣/ ١١٧ .

ويقول الشوكاني في الآية السابقة: "قال الفراء وأبو عبيدة: تصير السماء كالأديم لشدة حر النار، وقال الفراء أيضاً: شبه تلون السماء بتلون الورد من الخيل وشبه الورد في ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه"^(١).

نلاحظ هنا النقل التام من الشوكاني لقول الفراء وخاصة الجزء الثاني الذي وضح فيه التشبيه، والاختلاف بينها بسيط في قول الفراء: شبهت الورد في اختلاف ألوانها" مع نقل الشوكاني: "شبه الورد في ألوانها".

وتأثر به أيضاً في التشبيه التمثيلي، حيث ذكر الفراء كلمة (مثل) وقصد بها التشبيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾^(٢).

يقول الفراء في الآية: "قوله: ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ ضربه مثلاً لمن اتخذ من دون الله ولياً أنه لا ينفعه ولا يضره، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً"^(٣).

ويقول الشوكاني: ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ﴾ فإن بيتها لا يغني عنها شيئاً لا في حر ولا قر ولا مطر، كذلك ما اتخذوه ولياً من دون الله فإنه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيئاً، قال الفراء: هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً، قال: ولا يحسن الوقف على العنكبوت، لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به"^(٤).

وكما قلنا فكلمة (مثلاً) تعني التشبيه التمثيلي بين من اتخذ من دون الله أولياء وبين بيت العنكبوت، والملاحظ هنا نقل الشوكاني لقول الفراء مع بعض التغيير في الكلمات حيث ذكر الشوكاني كلمة (آلهة) بدل كلمة (ولياً) وبالتالي غير الأفعال بعده بما يلائم التأنيث.

فالشوكاني تأثر في ذلك بالفراء واقتبس من كلامه وأضاف إليه ، ووضح التشبيه بصورة أجمل.

(١) فتح القدير: ج ١٦٤، ١٦٥ .

(٢) العنكبوت: ٤١ .

(٣) معاني القرآن: ج ٣١٧/٢ .

(٤) فتح القدير: ج ٢٤٤/٤ .

٢ - المجاز المرسل علاقته الجزئية:

ومن المسائل التي تأثر بها الشوكاني بالفراء المجاز وإن لم يذكره كل منهما باسمه ولكن بينوا علاقته، وكان الشوكاني ناقلاً لقول الفراء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطوم ﴾ (١) .

يقول الفراء في هذه الآية: "أي : سنسمه سمة أهل النار ، أي سنسود وجهه ، فهو وإن كان الخرطوم قد خص بالسمة فإنه في مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض " (٢) . ويقول الشوكاني: "أي سنسمه بالكي على خرطومه... قال الفراء: والخرطوم وإن كان قد خص بالسمة فإنه في مذهب الوجه، لأن بعض الوجه يؤدي عن بعض" (٣) .

والمراد هنا المجاز في قوله الخرطوم وهو الأنف وأراد الكل وهو الوجه ، وما نلاحظه هنا في قضية التأثر أن الشوكاني نقل قول الفراء نقلاً تاماً ذاكراً الفراء باسمه .

٣ - الكناية:

يعتبر الفراء من أوائل العلماء الذين ذكروا الكناية مثل سيبويه وأبي عبيدة وقد تأثر الشوكاني به في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ (٤) .

قال الفراء في هذه المسألة: "وقوله: ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ يقول: ما يطول من عمر، ولا ينقص من عمره، يريد آخر غير الأول، ثم كنى عنه بالهاء كأنه الأول، ومثله في الكلام: عندي درهم ونصفه يعني نصف آخر، فجاز أن يكني عنه بالهاء، لأن لفظ الثاني قد يظهر كلفظ الأول، فكنى عنه ككناية الأول" (٥). وينقل الشوكاني كلام الفراء فيقول: "أي ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمره إلا في كتاب، أي : في اللوح المحفوظ، قال الفراء: يريد آخر غير الأول فكنى عنه بالضمير كأنه الأول، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول، كأنه قال: ولا ينقص من

(١) القلم: ١٦ .

(٢) معاني القرآن : ج ٣ / ١٧٤ .

(٣) فتح القدير: ج ٥ / ٣٢١ .

(٤) فاطر: ١١ .

(٥) معاني القرآن : ج ٢ / ٣٦٨ .

عمر معمر، فالكناية في عمره ترجع إلى آخر غير الأول، ومثله قولك: عندي درهم ونصفه أي نصف آخر... والمعنى: وما يمد في عمر أحد لا ينقص من عمر أحد" (١) .

يظهر لنا من خلال النصين مدى التأثير، من حيث ذكر الشوكاني لاسم الفراء صراحة، ثم نقله لكلامه ولكن مع شيء من التحوير، وزيادة في التحليل.

٤ - المشاكلة: وهي من البديع

تأثر الشوكاني بالفراء في توضيحه للمشاكلة متى تكون ومتى لا تكون وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) .

قال الفراء: "ثم قال عز وجل: ﴿ فَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فرجع لأن النية فيه الاستئناف لا العطف على ما قبله... فإذا رأيت الفعل منصوباً وبعده فعل قد نسق عليه بواو أو فاء أو ثم أو (أو) فإن كان يشاكل معنى الفعل الذي قبله نسقته عليه، وإن رأيت غير مشاكل لمعناه استأنفته فرفعته.. وتقول: أتيتك أن تأتيني وأكرمك فتد (أكرمك) على الفعل الأول لأنه مشاكل له وتقول أتيتك أن تأتيني وتحسن إليّ فتجعل (وتحسن) ومردوداً على ما شاكلها ويقاس على هذا" (٣) .

ويقول الشوكاني في تفسير الآية: "جملة مستأنفة أي: يضل من يشاء إضلاله ويهدي من يشاء هدايته، قال الفراء: إذا ذكر فعل وبعده فعل آخر فإن لم يكن النسق مشاكلاً للأول فالرفع على الاستئناف هو الوجه، فيكون معنى هذه الآية: وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم تلك الشرائع باللغة التي ألفوها وفهموها، ومع ذلك فإن المضل والهادي هو الله عز وجل" (٤) .

يلاحظ ما بين النصين من اتفاق وهو في الجزئية الأولى من قول الفراء، فقد نقل الشوكاني كلام الفراء بمضمونه محوراً وملخصاً لما أراده الفراء، ولم يذكر ما قاله الفراء بعد ذلك مستكفياً بما يوضح مراده، حيث أراد الشوكاني أن يوضح متى لا تقع المشاكلة في المعنى بين الفعلين، وبالتالي يتضح متى تكون المشاكلة بينهما.

(١) فتح القدير: ج ٤/٤٠٧ .

(٢) إبراهيم: ٤ .

(٣) معاني القرآن : ج ٢/٦٨ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/١١٨ .

٥ - التقديم والتأخير:

وهي مسألة من مسائل علم المعاني، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١) .

يقول الفراء في معاني القرآن: "وقوله: (نبتليه) والمعنى والله أعلم: جعلناه سميعاً بصيراً نبتليه، فهذه مقدمة معناها التأخير" (٢) .

وقال الشوكاني: "جملة (نبتليه) في محل نصب على الحال من فاعل خلقنا، أي: مريدين ابتلاءه، ويجوز أن يكون حالاً من الإنسان والمعنى: نبتليه بالخير والشر وبالتكاليف، قال الفراء: معناه والله أعلم: جعلناه سميعاً بصيراً نبتليه، وهي مقدمة معناها التأخير، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة، وعلى هذا تكون هذه الحال مقدرة" (٣) .

فهنا مطابقة تامة بين النص المنقول والنص الأصلي مما يبرهن على تأثر الشوكاني بالفراء، إضافة إلى التصريح باسمه. ثم أن الشوكاني يتفوق في توضيح التقديم والتأخير إضافة إلى توضيح المسائل النحوية في الآية.

كذلك كان تأثر الشوكاني بالفراء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ كِتَابَكَ وَإِذْ يَرْفَعُكَ إِلَيْنَا ﴾ (٤) .

إذ يقول الفراء: "يقال إن هذا مقدم ومؤخر، والمعنى فيه: إنني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا فهذا وجه، وقد يكون الكلام غير مقدم ولا مؤخر، فيكون معنى متوفيك: قابضك، كما تقول: توفيت مالي من فلان: قبضته من فلان، فيكون التوفي على أخذه ورفعته إليه من غير موت" (٥) .

(١) الإنسان: ٢ .

(٢) معاني القرآن: ج ٣/٢١٤ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/٤٠٩ .

(٤) آل عمران: ٥٥ .

(٥) معاني القرآن: ج ١/٢١٩ .

ويقول الشوكاني: "وقال الفراء: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً تقديره: إني رافعك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء" (١) .

نلاحظ أن الشوكاني قد أخذ بالرأي الأول أو الوجه الأول وهو التقديم والتأخير موافقاً للفراء في هذا الرأي.

٦- خروج الأمر إلى النهي:

وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (٢).

يقول الفراء: "أمرهم ثم نهاهم، وفيه طرف من الجزاء وإن كان نهياً، ومثله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾ (٣)، ذ أمرهم ثم نهاهم، وفيه تأويل الجزاء" (٤) .

ويقول الشوكاني فيها: "أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ولا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم، وقد اختلف النحاة في دخول هذه النون المؤكدة في (تصيين) فقال الفراء: هو بمنزلة قولك: انزل عن الدابة لا تطرحنك، فهو جواب الأمر بلفظ النهي أي: إن تنزل عنها لا تطرحنك ومثله قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانَ وَجُنُودَهُ﴾ أي إن تدخلوا لا يحطمنكم فدخلت النون لما فيه من معنى الجزاء" (٥) .

يتضح تأثر الشوكاني بالفراء من خلال ذكره لاسمه، ثم من خلال مطابقة النصين حيث نقل الشوكاني مضمون ما ذهب إليه الفراء، ووضحه بصورة أفضل.

ثانياً: الزجاج ت (٣١١هـ) :

وهو أبو إسحاق إبراهيم بن السري، أحد علماء النحو واللغة، وله آراء بلاغية أيضاً لاحظتها من خلال استقراء كتاب (فتح القدير) حيث تأثر الشوكاني بتلك الآراء وأشار إلى ذلك

(١) فتح القدير: ج ١/٤٦٦ .

(٢) الأنفال: ٢٥ .

(٣) النمل: ١٨ .

(٤) معاني القرآن : ج ١/٤٠٧ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/٣٨٠ .

صراحة من خلال ذكره لاسم الزجاج، ومن أهم هذه الآراء أو المسائل البلاغية التي تأثر بها الشوكاني بالزجاج:

١ - الاستفهام:

وهي من المسائل التي تأثر بها الشوكاني بالزجاج إضافة إلى الفراء، وذلك في خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى غرض بلاغي هو التقريع والتوبيخ، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (١) .

يقول الزجاج في إعراب القرآن: "وقوله عز وجل: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ ﴾ بغير ألف الاستفهام، ويقرأ: (أَذْهَبْتُمْ) بهمزتين محققتين، وبهمزتين الثانية منهما مخففة وهذه الألف للتوبيخ، التوبيخ إن شئت أثبت فيه الألف، وإن شئت حذفها، كما تقول: (يا فلان أحدثت ما لا يحل لك جنيت على نفسك) إذا وبخته، وإن شئت: أخذت ما لا يحل لك، أجنيت على نفسك" (٢) .

أما قول الشوكاني فهو: "قرأ الجمهور: (أذْهَبْتُمْ) بهمزة واحدة، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهمزتين مخففتين، ومعنى الاستفهام التقريع والتوبيخ، قال الفراء والزجاج: العرب توبخ بالاستفهام وبغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين" (٣) .

فمقارنة النصين نجد أن الشوكاني اختصر كلام الزجاج وذهب إلى ما ذهب إليه من أن الاستفهام للتوبيخ، وإن التوبيخ يقع أيضاً بغير استفهام، وبذكر قول الفراء يتضح مدى التوافق بين النصوص الثلاثة بقول الفراء: "قرأها الأعمش وعاصم ونافع المدني بغير استفهام، وقرأها الحسن وأبو جعفر المدني بالاستفهام: (أَذْهَبْتُمْ)، والعرب تستفهم بالتوبيخ ولا تستفهم، فيقولون: ذَهَبْتَ ففعلت وفعلت، ويقولون: أَذْهَبْتَ ففعلت وفعلت، وكل صواب" (٤) .

فلاحظ أن الشوكاني ذكر القراءتين كالزجاج والفراء، وذكر قوليهما، وأضاف غرضاً آخر وهو التقريع إضافة إلى التوبيخ، مما يدل على فهمه ومعرفته بالأغراض التي يخرج إليها الاستفهام.

(١) الأحقاف: ٢٠ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٤/٣٣٨، ٣٣٩ .

(٣) فتح القدير: ج ٥/٢٦ .

(٤) معاني القرآن: ج ٣/٥٤ .

٢ - الكناية:

وموطن الشاهد في هذه المسألة، قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) .

يقول الزجاج فيها: "وأما (هو) فإنما هو كناية عن ذكر الله عز وجل، المعنى: الذي سألتكم تبيين نسبته (هو الله) و (أحد) مرفوع على معنى: هو أحد، هو الله" (٢).

وينقل الشوكاني هذا النص عن الزجاج مصرحاً باسمه ذاكراً لقول الزجاج بتمامه إذ يقول: "قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله، والمعنى: إن سألتكم تبيين نسبته هو الله أحد" (٣) .

٣ - خروج الخبر إلى الأمر:

وهو أحد الأغراض البلاغية للخبر، وجاء تأثر الشوكاني بالزجاج في هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ (٤) .

وقد خرج الزجاج هذا الغرض بقوله: "لفظ يحذر لفظ الخبر، ومعناه الأمر. لأنه لا لبس في الكلام في أنه أمر، فهو كقولك ليحذر المنافقون، وعلى هذا يجوز في كل ما يؤمر به أن تقول يُفعلُ ذلك، فينوب عن قولك ليفعل ذلك" (٥) .

ولكي نقارن بين النصين نذكر قول الشوكاني الذي ذكر فيه قول الزجاج إذ يقول في الآية: "قيل هو خبر وليس بأمر، وقال الزجاج: معناه ليحذر، فالمعنى على القول الأول: أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم، وعلى الثاني الأمر لهم بأن يحذروا ذلك" (٦) .

وبمقارنة النصين نلاحظ أن الشوكاني يأخذ رأي الزجاج المختصر من خلال لفظة (ليحذر) والمقصود بها الأمر وهو ما وضحه الزجاج بالتفصيل، ثم إن الشوكاني يذكر رأياً آخراً وهو أن الآية خبر وليس بأمر، ثم يوضح المعنى على كلا الرأيين، وكأنه يوافق الرأيين.

(١) الإخلاص: ١ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٢٩١/٥ .

(٣) فتح القدير ج ٦١٩/٥ .

(٤) التوبة: ٦٤ .

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ج ٣٧١، ٣٧٠/٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٤٧٦/٢ .

٤ - مجاز مرسل علاقته الجزئية:

الشاهد في ذلك قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾^(١). ذكر الزجاج معنى المجاز من خلال علاقته دون أن يذكره بلفظه فقال: "وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ معناه وهم يصلون لأن التلاوة ليست في السجود، وإنما ذكرت الصلاة بالسجود لأن السجود نهاية ما فيها من التواضع والخشوع والتضرع"^(٢).

والشوكاني ينقل هذا الكلام عن الزجاج إضافة إلى الفراء وكثيراً ما يقرنهما معاً أثناء استشهاده بقولييهما، ولم يذكر الشوكاني المجاز، إلا أنه يفهم من السياق كما فهم عند الزجاج يقول: "وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة لما فيه من الخضوع والتذلل"^(٣).

نلاحظ مدى تأثير الشوكاني بالزجاج في هذه المسألة من خلال الاتفاق في توضيح المعنى البلاغي، ونذكر أيضاً قول الفراء لنلاحظ التأثير به من قبل الشوكاني، يقول الفراء: "السجود في هذا الموضع اسم للصلاة لا للسجود، لأن التلاوة لا تكون في السجود ولا في الركوع"^(٤). فهنا أيضاً تأثير واضح بالفراء من خلال ذكر اسمه والاقتباس من قوله.

وقد ذكرت هذه الأمثلة هنا ولم أذكرها عند الحديث عن الفراء، لأن الشوكاني ذكرهما معاً فأردت أن أبين هذا التأثير بعد التعرف على تأثيره بكل واحد منهما على حدة.

٥ - التقديم والتأخير:

الشاهد هنا قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾^(٥).

(١) آل عمران: ١١٣ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ج ١/٣٨٦ .

(٣) فتح القدير : ج ١/٥٠٤ .

(٤) معاني القرآن: ج ١/٢٣١ .

(٥) البقرة: ١٥١، ١٥٢ .

يقول الزجاج: "الأجود أن تكون (كما) معلقة بقوله عز وجل: (فاذكروني أذكركم)، أي فاذكروني بالشكر والإخلاص كما أرسلنا فيكم"^(١). أي هنا تقديم وتأخير وهذا ما ذكره الشوكاني عند نقله عن الزجاج إذ يقول: "وقيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير، أي فاذكروني كما أرسلنا"^(٢).

نلاحظ التأثير من خلال ذكره للزجاج إضافة إلى فهمه لمضمون قول الزجاج ونقله لجزء من كلامه.

٦- التشبيه:

كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ ﴾^(٣).

نص الزجاج في توضيح التشبيه هو: "وضرب الله عز وجل لهم هذا المثل، وشبههم بالغنم المنعوق بها بما لا يسمع منه إلا الصوت، فالمعنى: مثلك يا محمد ومثلهم كمثل الناعق والمنعوق به، بما لا يسمع، لأن سمعهم ما كان ينفعهم، فكانوا في شركهم وعدم قبول ما يسمعون بمنزلة من لم يسمع، والعرب تقول لمن يسمع ولا يعمل بما يسمع: أصم"^(٤).

ونذكر نص الشوكاني لنرى مدى تأثيره بالزجاج إضافة إلى غيره من العلماء يقول الشوكاني: "فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعيتهم وهو محمد ﷺ بالراعي الذي ينعق بالغنم أو الإبل فلا يسمع إلا دعاء ونداء ولا يفهم ما يقول، هذا فسر الزجاج والفراء وسيبويه... والمعنى: مثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم فحذف لدلالة المعنى عليه"^(٥).

فالشوكاني يورد اسم الزجاج والفراء وسيبويه ليظهر لنا مدى التأثير بالنقل عنهم وأخذه بآرائهم ونلاحظ التوافق شبه التام بين نص الزجاج ونص الشوكاني.

(١) معاني القرآن وإعرابه: ج ١/١٩٨ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٢٢٣ .

(٣) البقرة: ١٧١ .

(٤) معاني القرآن وإعرابه: ج ١/٢١٠ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٢٣٦ .

ولو ذكرنا قول الفراء فإننا نجد التأثير بكلام الفراء وأخذه بقوله دون نقل نص الفراء من قبل الشوكاني ، يقول الفراء: "أضف المثل إلى الذين كفروا، ثم شبههم بالراعي، ولم يقل كالغنم، والمعنى - والله أعلم - مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها: ارعي أو اشربي، لم تدر ما يقول لها، فكذاك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول، فأضيف التشبيه إلى الراعي" (١) . وذكرت نص الفراء هنا لأضيفه إلى ما ذكرته من قبل من تأثير الشوكاني بالفراء.

ثالثاً: الزمخشري ت (٥٣٨هـ) :

يعتبر الزمخشري أحد علماء البلاغة واللغة والتفسير من خلال مؤلفاته المعروفة وأشهرها كتاب (الكشاف) في التفسير والذي تحدث فيه عن علمي البلاغة والبيان والمعاني وذكر الكثير من مسائلها ووضع تعريفات لفنون البيان والمعاني إضافة إلى مسائل من علم البديع، والكتاب الآخر كتاب (أساس البلاغة) في اللغة وهو كمعجم لغوي، وذكر فيه المجاز، ومما يدل على أنه أحد علماء البلاغة قول الشوكاني في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) . إذ يقول: "وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سبباً فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي" (٣) ، ويقصد الشوكاني هنا بـ(عصاه التي يتوكأ عليها) اعتماد الزمخشري على علم البلاغة في تفسيره.

ولعل كون الزمخشري أحد علماء البلاغة إضافة إلى أنه من المفسرين - وإن كان ينزع في تفسيره إلى التشيع والاعتزال - جعل تأثير الشوكاني به أكثر من غيره، وهذا ما سنلاحظه من خلال الشواهد التي تأثر بها الشوكاني بالزمخشري في فنون البلاغة الثلاثة، ومن أهم المسائل التي تأثر بها الشوكاني بالزمخشري في علم المعاني:

(١) معاني القرآن: ج ١/٩٩ .

(٢) البقرة: ٢٦ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٩٣ .

١ - التقديم والتأخير:

يقول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾^(١) . أوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي والطاعة لي... (أوف بعهدكم) بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم (وإياي فارهبون) فلا تتقضوا عهدي، وهو من قولك: زيداً رهبتُهُ، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من (إياك نعبد)^(٢) .

ويقول الشوكاني في تفسير الآية: "معنى قوله: (أوف بعهدكم) أي بما ضمننت لكم من الجزاء، والرهب، والرهبية: الخوف ويتضمن الأمر به معنى التهديد، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص كما تقدم في (إياك نعبد) وإذا كان التقديم على طريقة الإضمار والتفسير مثل: زيداً ضربته (وإياي فارهبون) كان أوكد في إفادة الاختصاص، ولهذا قال صاحب الكشاف: وهو أوكد في إفادة الاختصاص من (إياك نعبد)^(٣) .

وبمقارنة قول الشوكاني بقول الزمخشري يتضح لنا التأثير من خلال:

١- ذكر اسم الزمخشري بشكل غير مباشر من خلال قوله (صاحب الكشاف) وكان الشوكاني يستخدمها كثيراً في تفسيره، إضافة إلى استخدامه كلمة (وفي الكشاف) أو يصرح باسم الزمخشري مباشرة.

٢- نقل عبارة الزمخشري بتمامها وهي الغرض البلاغي من التقديم والتأخير.

٣- المثل الذي ضربه الزمخشري (زيداً رهبتُهُ) يقارب للمثل الذي ضربه الشوكاني (زيداً ضربته) والمقصود فيه التقديم.

كذلك شاهد آخر في التقديم والتأخير قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾^(٤) .

(١) البقرة: ٤٠ .

(٢) الكشاف: ج ١/ ١٢٣ .

(٣) فتح القدير: ج ١/ ١١٦ .

(٤) الفاتحة: ١ .

يقول الزمخشري: "فإن قلت: بم تعلقت الباء؟ قلت: بمحذوف تقديره باسم الله أقرأ أو أتلو، لأن الذي يتلو التسمية مقروء، كما أن المسافر إذا حل أو ارتحل، فقال: (بسم الله والبركات) كان المعنى بسم الله أحل، وباسم الله أرتحل، وكذلك الذابح، وكل فاعل يبدأ فعله (بسم الله) كان مضمرًا ما جعل التسمية مبدأ له... فإن قلت: لم قدرت المحذوف متأخرًا؟ قلت: لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به، لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم، فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله- عز وجل- بالابتداء، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل، كما فعل في قوله: (إياك نعبد) حيث صرح بتقديم الاسم لإرادة للاختصاص... فإن قلت: فقد قال: (أقرأ باسم ربك)^(١). فقدم الفعل، قلت: هناك تقديم الفعل أوقع، لأنها أول سورة نزلت، فكان الأمر بالقراءة أهم"^(٢).

وقد ذكر الشوكاني مضمون الكلام السابق إضافة إلى رأي من قال بتقديم الفعل، ثم ذكر رأي الزمخشري فقال: "ومتعلق الباء محذوف وهو أقرأ أو أتلو لأنه المناسب لما جعلت البسمة مبدأ له، فمن قدره متقدماً كان غرضه الدلالة بتقديمه على الاهتمام بشأن الفعل، ومن قدره متأخرًا كان غرضه الدلالة بتأخيره على الاختصاص مع ما يحصل في ضمن ذلك من العناية بشأن الاسم والإشارة إلى أن البداية به أهم لكون التبرك حصل به، وبهذا يظهر رجحان تقدير الفعل متأخرًا في مثل هذا المقام ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ لأن ذلك المقام مقام القراءة، فكان الزمر بها أهم، وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة، والباء للاستعانة أو المصاحبة، ورجح الثاني الزمخشري"^(٣).

من خلال مقارنة النصين يتضح لنا مدى تأثير الشوكاني بالزمخشري حيث أنه: ذكر اسمه صراحة، ووافق في الفعل المحذوف، ثم ذكر رأي الزمخشري في أن الفعل متأخر والغرض من ذلك الاختصاص، ثم يرجح هذا الرأي، ويستدل بالآية التي استدل بها الزمخشري في كون تقديم الفعل فيها أولى من تأخيره.

ويضيف الشوكاني رأي من قال بتقديم الفعل والغرض منه الاهتمام، وهو رأي سيبويه^(٤).

(١) العلق: ١ .

(٢) الكشاف: ج ١/١١، ١٢ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٣٨ .

(٤) الكتاب، سيبويه، ج ١/٣٤، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م .

ومن صور التأثر بالزمخشري في مسألة التقديم والتأخير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١) .

يقول الزمخشري: "فإن قلت: لم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة، ليستوجبوا الإجابة إليها، فإن قلت: لم أطلقت الاستعانة؟ قلت: ليتناول كل مستعان فيه" (٢) .

وبهذا المعنى كان قول الشوكاني في تعليقه على الآية السابقة وذهب إلى ما ذهب إليه الزمخشري فقال: "وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم" (٣) . وبمقارنة القولين نلاحظ أن الجزء الأول منهما واضح في مدى التأثر، وكذلك الجزء الثاني فما قصده الزمخشري من إطلاق الاستعانة أنها ليتناول كل مستعان فيه، هو التعميم، وهذا ما وضحه الشوكاني.

٢ - الالتفات:

وهو من المسائل التي تأثر بها الشوكاني بالزمخشري، وخاصة في نقل المعنى الاصطلاحي للالتفات عن الزمخشري، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٤) ..

قال الزمخشري: "فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان: قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم... ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعها بفوائد" (٥) .

(١) الفاتحة: ٥ .

(٢) الكشاف: ج ٢٠/١ .

(٣) فتح القدير: ج ٤٦/١ .

(٤) الفاتحة: ٥ .

(٥) الكشاف: ج ٢٠، ١٩/١ .

وقد أخذ الشوكاني كلام الزمخشري وذكره في تعليقه على الآية السابقة فقال: "وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني" (١).

وما نلاحظه هنا التطابق بين النصين مما يدل على تأثر الشوكاني بالزمخشري وإن لم يذكر اسمه هنا ولا اسم كتابه.

ولم يقتصر الشوكاني على نقل كلام الزمخشري، بل إنه يعارض رأيه ويرى أن ما ذهب إليه بعيداً جداً وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢). وفي هذا يقول الزمخشري: "إِن قلت: ما الفرق بين الفاءات؟ قلت: الأولى للتسبب لا غير، لأن الظلم سبب التوبة، والثانية للتعقيب لأن المعنى فاعزموا على التوبة فاقتلوا أنفسكم من قِبَلِ أَنْ اللهُ جعل توبتهم قتل أنفسهم، ويجوز أن يكون القتل تمام توبتهم، فيكون المعنى فتوبوا، فاتبعوا التوبة القتل تنمة لتوبتكم، والثالثة متعلقة بمحذوف، ولا يخلو إما أن ينتظم في قول موسى لهم، فتتعلق بشرط محذوف، كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وإما أن يكون خطاباً من الله تعالى لهم على طريقة الالتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى، فتاب عليكم باريكم" (٣).

أما الشوكاني فقد قال: "وقوله: (فتاب عليكم) قيل في الكلام حذف أي فقتلتكم نفسكم فتاب عليكم أي على الباقيين منكم، وقيل: هو جواب شرط محذوف كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، وأما ما قاله صاحب الكشاف من أنه يجوز أن يكون خطاباً من الله لهم على طريقة الالتفات، فيكون التقدير: ففعلتم ما أمركم به موسى فتاب عليكم باريكم، فهو بعيد جداً، كما لا يخفى" (٤).

نلاحظ أن الشوكاني وافق الزمخشري عند حديثه عن الفاء الثالثة في أنها متعلقة بشرط محذوف كأنه قال: فإن فعلتم فقد تاب عليكم، حيث ينقل الشوكاني هذا الرأي دون أن يذكر صاحبه فقال: قيل، وهو رأي الزمخشري، ثم نجده يعارض رأي الزمخشري في أن الآية إلتفات

(١) فتح القدير: ج ٤٦/١ .

(٢) البقرة: ٥٤ .

(٣) الكشاف: ج ١٣١/١، ١٣٢ .

(٤) فتح القدير: ج ١٣١/١ .

ويرى أن ذلك بعيداً جداً، ويذكر هنا كتاب الزمخشري وهو الكشاف، ولكنه لا يبين سبب اعتراضه، والمعارضة لرأي الزمخشري من قبل الشوكاني تدل أيضاً على التأثر مثل الموافقة للرأي.

٣ - التنكير:

والشاهد هنا قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾^(١). يقول الزمخشري في تنكير كلمة (حياة): "فإن قلت: لم قال: (على حياة) بالتنكير؟ قلت: لأنه أراد حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطولة"^(٢).

أما نص الشوكاني فهو: "تنكير حياة للتحقير، أي إنهم أحرص الناس على أحقر حياة وأقل لبث في الدنيا، فكيف بحياة كثيرة ولبث متطول، وقال في الكشاف: إنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة، وهي الحياة المتطولة"^(٣).

وهنا يذكر الشوكاني الغرض من التنكير، ثم يذكر رأي الزمخشري دون تعليق على ذلك والشوكاني أقرب إلى الصواب في تخريجه للغرض البلاغي للتنكير.

ومن صور تأثر الشوكاني بالزمخشري في علم البيان:

١ - التشبيه:

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ فُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾^(٤). "فهى في قسوتها مثل الحجارة (أو أشد قسوة) منها وأشد معطوف على الكاف: إما على معنى: أو مثل (أشد قسوة) ٠٠٠ وإما على أو هي في أنفسها أشد قسوة، والمعنى أن من عرف حالها شبيهاً بالحجارة أو بجوهر أفسى منها، وهو الحديد مثلاً أو من عرفها شبيهاً بالحجارة أو قال: هي أفسى من الحجارة، فإن قلت: لم قيل: أشد قسوة، وفعل القسوة مما يخرج

(١) البقرة: ٩٦ .

(٢) الكشاف: ج ١/١٥٥ .

(٣) فتح القدير: ج ١/١٦٨ .

(٤) البقرة: ٧٤ .

منه أفعال التفضيل وفعل التعجب؟ قلت: لكونه أبين وأدل على فرط القسوة" (١) .

وإذا ما قارنا هذا بقول الشوكاني نجده يتفق معه في الصورة البيانية في الآية وهي التشبيه، ثم ينقل عنه السبب في التوصل إلى أفعال التفضيل بأشد، فيقول: "أي هذه القلوب هي كالحجارة أو هي أشد قسوة منها، فشبهوها بأي الأمرين شئتم، فإنكم مصيبون في هذا التشبيه... وإنما توصل إلى أفعال التفضيل بأشد مع كونه يصح أن يقال: وأقسى من الحجارة لكونه أبين وأدل من فرط القسوة، كما قال في الكشاف" (٢) .

وشاهد آخر على تأثر الشوكاني بالزمخشري في التشبيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (٣) .

قال الزمخشري في تفسيره للآية: "إن شأن عيسى وحاله الغريبة كشأن آدم، وقوله: (خلقه من تراب) جملة مفسرة لما له شبه عيسى بآدم، أي خلق آدم من تراب، ولم يكن ثمة أب ولا أم، فكذلك حال عيسى، فإن قلت: كيف شبه به وقد وجد هو بغير أب، ووجد آدم بغير أب وأم؟ قلت: هو مثله في أحد الطرفين، فلا يمنع اختصاصه بونه بالطرف الآخر من تشبيهه به، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف، ولأنه شُبه به في أنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة، وهما في ذلك نظيران، ولأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود من غير أب، فشبه الغريب بالأغرب، ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيها هو أغرب مما استغربه" (٤) .

وقد أخذ الشوكاني هذه الصورة وبينها وبين الغرض منها متأثراً بذلك بالزمخشري، فقال: "تشبيه عيسى بآدم في كونه مخلوقاً من غير أب كآدم، ولا يقدح في التشبيه اشتغال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له كما أنه لا أب له، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه وإن كان المشبه به أشد غرابية من المشبه وأعظم عجباً وأغرب أسلوباً، وقوله: (خلقه من تراب) جملة مفسرة لما أبهم في المثل: أي أن آدم لم يكن له أب ولا أم بل خلقه الله من تراب، وفي

(١) الكشاف: ج ١/١٤٥ .

(٢) فتح القدير: ج ١/١٤٨ .

(٣) آل عمران: ٥٩ .

(٤) الكشاف: ج ١/٣٢٣، ٣٢٤ .

ذلك دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب ولا أم^(١) .

فكما وضحنا من قبل هناك توافق بين النصين في التشبيه، وكل منها بين أن الاختلاف بين المتشابهين لا يمنع التشبه بينهما، حيث المراد بالتشبيه أن كل من آدم وعيسى وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة كما قال الزمخشري، إضافة إلى أنهما اتفقا في طرف من الأطراف وهو أن كل واحد منهما لم يكن له أب.

كذلك كان التأثر بالزمخشري في تحديد نوع التشبيه وهو التشبيه المركب وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

يقول الزمخشري: " هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرتة ورفيفه (فاختلط به) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً (أخذت الأرض زخرفها وازينت) كلام فصيح جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعرس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين"^(٣) .

ويتأثر الشوكاني بكلام الزمخشري ويشرح الصورة البيانية بطريقة رائعة وجميلة فيقول: "لما ذكر الله سبحانه ما تقدم من متاع الدنيا جاء بكلام مستأنف يضمن بيان حالها وسرعة تقضيها، وأنها تعود بعد أن تملأ الأعين برونقها، وتجذب النفوس ببهجتها، وتحمل أهلها على أن يسفكوا دماء بعضهم بعضاً، ويهتكوا حرمهم حباً لها وعشقا لجمالها الظاهري، وتكالباً على التمتع بها، وتهافتاً على نيل ما تشتهي الأنفس منها بضرب من التشبيه المركب، فقال: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء) إلى آخر الآية، والمعنى: أن مثلها في سرعة الذهاب والاتصاف بوصف يضاد ما كانت عليه وبيانه، مثل ما على الأرض من أنواع النبات في زوال

(١) فتح القدير: ج ١/٤٦٨، ٤٦٩ .

(٢) يونس: ٢٤ .

(٣) الكشاف: ج ٢/٣٥٨ .

رونقه وذهاب بهجته وسرعة تقضيته، بعد أن كان غضاً مخضراً طرياً قد تعانقت أغصانه المتمايلة، وزهت أوراقه المتصافحة، وتلألأت أنوار نوره، وحاكت الزهر أنواع زهره، وليس المشبه به هو ما دخله الكاف في قوله: (كماء أنزلناه من السماء) بل ما يفهم من الكلام" (١) .

نلاحظ أن الشوكاني يقدم للتشبيه بمقدمة جميلة ليبين جمال التشبيه القرآني للدنيا وزينتها، وتأثر بالزمخشري في توضيح نوع التشبيه وتحليله للصور المتعددة في التشبيه، ثم يوضح أن هذا التشبيه يفهم من الكلام فالتشبه متعدد الصور، ولقد تأثر كل منهما بالإمام عبد القاهر الجرجاني في شرحه لهذه الآيات (٢) .

٢- المجاز:

أ- المجاز العقلي علاقته الزمانية:

أخذ الشوكاني بقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴾ (٣) .

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "وصف اليوم باليوم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه، فإن قلت: فإذا وصف به العذاب؟ قلت: مجازي مثله، لأن الأليم في الحقيقة هو العذاب" (٤) .

ويقول الشوكاني متأثراً بقول الزمخشري: "واليوم الأليم هو يوم القيامة أو يوم الطوفان، ووصفه بالأليم من باب الإسناد المجازي مبالغة" (٥) .

وهو مجاز عقلي علاقته الزمانية، وكما هو واضح من النصين تأثر الشوكاني ونقله لقول الزمخشري وإن لم يصرح باسمه .

(١) فتح القدير: ج ٢/ ٥٥٢ .

(٢) أسرار البلاغة: ٨٧ .

(٣) هود: ٢٦ .

(٤) الكشف: ٢ / ٣٩٧ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/ ٦٢٢ .

ب- المجاز العقلي علاقته السببية:

يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(١) .

"وإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب، لأن لما ضرب المثل، فضلَّ به قوم واهتدى به قوم تسبب لضلالهم وهداهم"^(٢) .

ويقول الشوكاني عن قول الزمخشري السابق: "وأما صاحب الكشاف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه بكونه سبباً فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي"^(٣) .

والملاحظ هنا إذا ما قارنا بين النصين: تأثر الشوكاني بالزمخشري تأثراً كاملاً في هذه المسألة من حيث أنه:

- ١- صرح باسم كتاب الزمخشري وهو الكشاف.
- ٢- ذكر كلام الزمخشري في توضيح علاقة المجاز.
- ٣- أن الشوكاني وضح نوع المجاز وهو المجاز الإسنادي (العقلي) وعلاقته السببية.

٣- الاستعارة:

وهي من المسائل التي تأثر بها الشوكاني بالزمخشري مثال ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾^(٤) .

قال الزمخشري: "(غلف) جميع أغلف، أي هي خلقة وجيلة مغطاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جاء به محمد ﷺ ولا تفقهه، مستعار من الأغلف الذي لم يختن"^(٥) .

(١) البقرة: ٢٦ .

(٢) الكشاف: ج ١/١١٢ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٩٣ .

(٤) البقرة: ٨٨ .

(٥) الكشاف: ج ١/١٥١ .

ونقل الشوكاني هذا القول في الاستعارة نقلاً كاملاً عن الزمخشري فقال: "الغلف جمع أغلف، المراد به هنا الذي عليه غشاوة تمنع وصول الكلام إليه، ومنه غلفت السيف أي جعلت له غلافاً، قال في الكشاف، هو مستعار من الأغلف الذي لم يختن"^(١) .

نلاحظ هنا مدى تأثر الشوكاني بالزمخشري من خلال ذكر اسم كتابه، ونقل كلامه أيضاً. إضافة إلى نقل المعنى اللغوي

ب- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾^(٢) .

يقول الزمخشري في تفسيره لهذه الآية: "فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وهو عمر بن عبد العزيز، ويحكي عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: أنما يجلبهم ويعظمهم، كما يُجل المهيّب المخشي في الرجال بين الناس من بين جميع عباده"^(٣) .

ويقول الشوكاني: "وقرأ عمر بن عبد العزيز برفع الاسم الشريف ونصب العلماء، ورويت هذه القراءة عن أبي حنيفة، قال في الكشاف: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى أنه يجلبهم ويعظمهم كما يجلب المهيّب المخشي من الرجال بين الناس"^(٤) .

بمقارنة النصين فإننا لا نحتاج إلى كثير نظر لنلاحظ درجة التأثر من الشوكاني بالزمخشري.

ج- في قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾^(٥) .

يقول صاحب الكشاف (الزمخشري): "في ذلك المقام، وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان (تبلو كل نفس) تختبر وتدوق (ما أسلفت) من العمل

(١) فتح القدير: ج ١/١٦٢ .

(٢) فاطر: ٢٨ .

(٣) الكشاف: ج ٣/٦٣٣ .

(٤) فتح القدير: ج ٤/٤١٥ .

(٥) يونس: ٣٠ .

فتعرف كيف هو: أقيح أم حسن؟ أنافع أم ضار؟ أمقبول أم مردود؟ كما تختبر الرجل الشيء، ويتعرفه ليكتته حاله" (١) .

قال الشوكاني في تفسيره للآية: "أي في ذلك المكان وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم الزمان للمكان تذوق كل نفس وتختبر جزاء ما أسلفت من العمل فمعنى تبلو تذوق وتختبر" (٢) .

بالنظر إلى النصين نلاحظ نقلاً تاماً من الشوكاني لقول الزمخشري، إلا أن الشوكاني جعل استعارة اسم الزمان للمكان، وقد يكون الشوكاني نقل الكلام وأخطأ في نقله، أو أنه رأى أن الاستعارة هنا استعارة اسم الزمان للمكان، إلا أن كلمة هنالك تدل على المكان أكثر من دلالتها على الزمان فيكون كلام الزمخشري أصح من كلام الشوكاني.

وهذا لا يمنع من دلالة ذلك على مدى تأثير الشوكاني بالزمخشري في هذه المسألة.

د- أيضاً تأثر الشوكاني بالزمخشري في الاستعارة التمثيلية وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (٣).

قال الزمخشري في الآية: "مثل الله إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروء" (٤) .

ويقول الشوكاني: "وذكر الشراء تمثيل كما في قوله: ﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ (٥). مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء" (٦) .

(١) الكشاف: ج ٢/٣٦٠ .

(٢) فتح القدير ج ٢/٥٥٦ .

(٣) التوبة: ١١١ .

(٤) الكشاف: ج ٢/٣٣٥ .

(٥) البقرة: ١٦ .

(٦) فتح القدير: ج ٢/٥١٥ .

نلاحظ التأثير من خلال نقل قول الزمخشري مع تغيير خفيف في الألفاظ، ثم أن الشوكاني جاء بآية مماثلة للآية الشاهد.

٤ - الكناية:

تأثر الشوكاني بالزمخشري في هذا اللون من ألوان البيان ونقل عنه بعضاً من آرائه ومن أمثلة ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾^(١).

يقول الزمخشري: "عض اليدين والأنامل والسقوط في اليد وأكل البنان وحرق الأسنان والأرم وقرعها كنايات عن الغيظ والحسرة، لأنها من روادفها فيذكر الرادفة ويدل بها على المردوف فيرتفع الكلام به في طبقة الفصاحة، ويجد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المكني عنه"^(٢).

ويقول الشوكاني: "الظاهر أن العض هنا حقيقة ولا مانع من ذلك ولا موجب لتأويله، قيل: هو كناية عن الغيظ والحسرة، والمراد بالظالم كل ظالم يرد ذلك المكان وينزل ذلك المنزل"^(٣).

بمقارنة القولين: نلاحظ أن الشوكاني ينسب القول في أن في الآية كناية عن الغيظ والحسرة إلى مجهول بقوله: (قيل) ولعل ذلك المجهول هو الزمخشري كما هو واضح من قوله، فيكون متأثراً بذلك بقول الزمخشري، ثم إن الشوكاني يرى أن العض حقيقة لا موجب إلى تأويله، فهو يخالف رأي الزمخشري، ونجد أن الزمخشري يذكر أمثلة أخرى للكنايات، ويبين تأثير الكناية على المستمع.

ب- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾^(٤).

قال الزمخشري: "روى أنه لم يكن مع موسى -عليه السلام- غير امرأته، وقد كنى الله عنهما بالأهل، فتنبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله: (امكثوا)"^(٥).

(١) الفرقان: ٢٧ .

(٢) الكشاف: ج ٣/٣٢٦ .

(٣) فتح القدير: ج ٤/٨٨ .

(٤) النمل: ٧ .

(٥) الكشاف: ج ٣/٣٩٢ .

وقال الشوكاني: "المراد بأهله امرأته، في مسيره من مدين إلى مصر ولم يكن معه إذ ذاك إلا زوجته بنت شعيب، فكنى عنها بلفظ الأهل الدال على الكثرة"^(١)

ج- قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾^(٢) .

قال الزمخشري في تفسيره للآية: "فلان كناية عن الأعلام كما أن (الهن) كناية عن الأجناس"^(٣) .

ونجد أن الشوكاني ينقل كلام الزمخشري وآراء بعض العلماء في كلمة (فلان) فيقول في تفسير الآية: "دعاء على نفسه بالويل والثبور على مخاللة الكافر الذي أضله في الدنيا، و(فلان) كناية عن الأعلام، قال النيسابوري: زعم بعض أئمة اللغة أنه لم يثبت استعمال فلان في الفصح إلا حكاية... وقيل: فلان كناية عن علم ذكور من يعقل، وفلانة عن علم إناثهم، قيل: كناية عن نكرة من يعقل من الذكور، وفلانة عن يعقل من الإناث، وأما الفلان والفلانة فكناية عن غير العقلاء... وزعم أبو حيان أن ابن عصفور وابن مالك وهما في جعل فلان كناية عن علم من يعقل"^(٤) .

نلاحظ هنا أن الشوكاني: أخذ برأي الزمخشري وإن لم يذكره ولكن من مقارنة النصين يتضح لنا ذلك مما يدل على تأثره به، ثم إنه يذكر آراء العلماء دون أن يعلق عليها، وفي قوله: (زعم أبو حيان) كأنه يرفض هذا الرأي لأبي حيان، فمن هذا يتضح لنا سعة علم الشوكاني ومعرفته لأراء العلماء وإطلاعه عليها.

ومن صور تأثر الشوكاني بالزمخشري في علم البديع:

١ - اللف والنشر:

وقد تأثر الشوكاني فيه بالزمخشري ونقل ذلك عنه إلا أنه لم يذكر كلمة اللف كما ذكرها الزمخشري، وذلك في قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ

(١) فتح القدير: ج ١٥٣/٤ .

(٢) الفرقان: ٢٨ .

(٣) الكشاف: ج ٣٢٧/٣ .

(٤) فتح القدير: ج ٨٩/٤ .

مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾ .

يقول الزمخشري في تفسير الآية: "شُرِعَ ذلك: يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد بصوم الشهر، وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أفطر فيه، ومن الترخيص في إباحة الفطر مقولة: (لتكلموا) علة للأمر بمراعاة العدة، و(لتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، و(لعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبنيه إلا النّقاب المحدث من علماء البيان" (٢) .

وينقل الشوكاني توضيح الزمخشري للّف والنشر في الآية فيقول: "وقال في الكشاف: إن قوله: (ولتكلموا العدة) علة للأمر بمراعاة العدة، و(لتكبروا) علة ما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر و(لعلكم تشكرون) علة الترخيص والتيسير" (٣) .

نلاحظ هنا نقل الشوكاني للنص نقلاً كاملاً دون أن يعلق عليه أو يعارضه وكأنه يوافق فيه فإما ذهب إليه.

٢ - المشاكلة:

في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٤) .

يقول الزمخشري: "فإن قلت: كيف ذلك ومخادعة الله للمؤمنين لا تصح، لأن العالم الذي لا تخفى عليه خافية لا يُخدع، والحكيم الذي لا يفعل القبيح لا يَخْدَع... قلت: فيه وجوه: أحدها أن يقال كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون، صورة صنع الخادعين، وصورة صنع الله معهم حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده في عداد

(١) البقرة: ١٨٥ .

(٢) الكشاف: ج ١/٢٠٧، ٢٠٨ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٢٥٦ .

(٤) البقرة: ٩ .

شرار الكفرة وأهل الدرك الأسفل من النار صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم، فأجروا أحكامهم عليهم" (١) .

وقد نقل الشوكاني هذا المعنى والتحليل وبين المقصود منه بلاغياً وهي المشاكلة فقال: "وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل، فكونهم يخادعون الله والذين آمنوا يفيد أن الله سبحانه والذين آمنوا يخادعونهم، والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام، وإبطال الكفر، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه، والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجرى عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام ظاهراً وإن كانوا يعلمون فساد بواطنهم" (٢) .

فتوجيه المعنى الذي ذكره الشوكاني هو نفس التوجيه عند الزمخشري، وهذا يؤدي إلى الصورة البلاغية وهي المشاكلة.

وفي موضع آخر يخالف الشوكاني الزمخشري في أن في الآية مشاكلة ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٣) .

يقول الزمخشري في قوله تعالى: "الذي بيده عقدة النكاح": "الولي يعني: إلا أن تعفوا المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر... أو يعفو الولي الذي يلي عقد نكاحهن، وهو مذهب الشافعي، وقيل: هو الزوج، وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملاً وهو مذهب أبي حنيفة، والأول ظاهر الصحة، وتسمية الزيادة على الحق عفواً فيها نظر إلا أن يقال: كان الغالب عندهم أن يسوق إليها المهر عند التزوج، فإذا طلقها استحق أن يطالبها بنصف ما ساق إليها، فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها، أو سماه عفواً على طريق المشاكلة" (٤) .

أما الشوكاني فيذكر في قوله تعالى: ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ ، والاختلاف بين العلماء في المقصود هنا الزواج أم الولي ثم يقول: "فالراجح ما قاله الأولون لوجهين: الأول: أن الزواج

(١) الكشاف: ج ١/ ٥٦ .

(٢) فتح القدير: ج ١/ ٧٢ .

(٣) البقرة: ٢٣٧ .

(٤) الكشاف: ج ١/ ٢٥٨ .

هو الذي بيده عقدة النكاح حقيقة، الثاني: أن عفوّه بإكمال المهر هو صادر عن المالك مطلق التصرف بخلاف الولي، وتسمية الزيادة عفوّاً وإن كان خلاف الظاهر، لكن لما كان الغالب أنهم يسوقون المهر كاملاً عند العقد كان العفو معقولاً، لأنه تركه لها ولم يسترجع النصف منه، ولا يحتاج في هذا إلى أن يقال: إنه من باب المشاكلة كما في الكشاف، لأنه عفو حقيقي، أي ترك لما يستحق المطالبة به، إلا أن يقال: إنه مشاكلة أو يطيب في توفية المهر قبل أن يسوقه الزوج^(١).

بمقارنة النصين نلاحظ الخلاف بين الزمخشري والشوكاني في :

١- الترويج بين آراء العلماء، فالزمخشري رجح الرأي القائل بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي، والشوكاني ورجح الزوج.

٢- المشاكلة، فالزمخشري يرى أنه أن ترك المطالبة بالنصف فقد عفا، أو يكون إطلاق العفو من باب المشاكلة.

والشوكاني يرى أن العفو هنا عفوّاً حقيقياً ، ولا داعي أن يقال من باب المشاكلة كما قال الزمخشري، لأنه ترك ما يستحق المطالبة به وهو النصف.

ورفض الشوكاني لرأي الزمخشري يدل على تأثره به وإطلاعه على كتبه فالتأثر يكون بموافقة الرأي أو مخالفته وتوضيح الرأي الأصوب في نظر المتأثر.

٣- الاستطراد:

والشاهد في ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾^(٢).

في هذا الشاهد ينقل الشوكاني قول الزمخشري نقلاً حرفياً، حيث يعدد أقوال العلماء في الآية ويذكر منها قول الزمخشري دون ذكر اسمه أو اسم كتابه وندلل على ذلك من خلال نقل نص كل منهما ليتضح لنا ذلك.

(١) فتح القدير : ج ١/ ٣٤٨ .

(٢) الشمس: ٩،٨ .

يقول الزمخشري : " فإن قلت: فأين جواب القسم؟ [القسم في الآية السابقة] قلت: هو محذوف تقديره ليدمدن الله عليهم أي على أهل مكة، لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمد على ثمود، لأنهم كذبوا صالحاً، وأما قد أفلح من زكاها فكلام تابع لقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء" (١) .

ويقول الشوكاني: "واختلف في جواب القسم ماذا هو... وقيل: الجواب محذوف، أي والشمس وكذا لتبعثن، وقيل: تقديره ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمد على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً، وأما (قد أفلح من زكاها) فكلام تابع لقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ على سبيل الاستطراد وليس من القسم في شيء" (٢) .

٤ - المماثلة:

ذُكرت عند العالمين في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ﴾ (٣) .

قال الزمخشري: "(بمثل ما آمنتم به) من باب التبكيت، لأن دين الحق واحد لا مثل له، وهو دين الإسلام... فلا يوجد إذاً دين آخر يماثل دين الإسلام في كونه حقاً، حتى إن آمنوا بذلك الدين المماثل له كانوا مهتدين، فقيل: فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير أي: فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسادق فقد اهتدوا، وفيه أن دينهم الذي هم عليه، وكل دين سواه مغاير له غير مماثل، لأنه حق وهدى، وما سواه باطل وضلال" (٤) .

ويقول الشوكاني: "أي فإن آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد فقد اهتدوا وعلى هذا ف (مثل) زائدة... وقيل: إن المماثلة وقعت بين الإيمانيين، أي فإن آمنوا بمثل إيمانكم، وقال في الكشاف: إنه من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام، قال: أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسادق فقد اهتدوا" (٥) .

(١) الكشاف: ج ٤/٥٩٨ .

(٢) فتح القدير: ج ٥/٥٣٣ .

(٣) البقرة: ١٣٧ .

(٤) الكشاف: ج ١/١٨٠ .

(٥) فتح القدير: ج ١/٢٠٩، ٢١٠ .

نلاحظ من خلال النصين أن: الشوكاني جعل المماثلة بين الإيمانيين، بأن يُحصل الكفار إيماناً مثل إيمان المؤمنين، ثم ينقل قول الزمخشري والذي رأى أن المماثلة بأن يأتوا بدين مماثل لدين الإسلام وهذا لا يمكن أبداً، فجعل ذلك من باب التبكييت لهم لأنهم لن يقدرُوا على ذلك لأن دين الإسلام لا مثل له، وهنا نرى الشوكاني متأثراً برأي الزمخشري وناقلاً لجزء من قوله في الآية السابقة، إضافة إلى أنه صرح باسم كتابه الذي نقل عنه.

رابعاً: ابن عطية ت (٥٤١هـ) :

وهو "عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي" (١). من علماء الأندلس له كتاب (المحرر الوجيز) في التفسير، والذي كان له تأثير في الإمام الشوكاني، وقد تحدث الدكتور محمد علوان في رسالته الدكتوراة عن تأثير ابن عطية في الإمام الشوكاني إذ يقول: "لقد تأثر الشوكاني في تفسيره - فتح القدير بمسائل بلاغية عدة - بابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز، فكان للمحرر الأثر الواضح في هذا الجانب، كيف والشوكاني يعترف في كثير من المواطن في تفسيره إذ يذكر اسم شيخه ابن عطية صراحة، ويتبعه بنقل نصه في تلك المسائل، وتارة أخرى لا يصرح فينقل قوله مع إجراء عملية تحوير بسيطة بزيادة كلمة أو الإتيان بالمرادف لها أو حذف أخرى" (٢).

وهذا ما لاحظته أثناء رصد تأثر الشوكاني بابن عطية في تفسيره فتح القدير، وسنأكد ذلك من خلال الشواهد على هذا التأثير.

١ - التقديم والتأخير:

والشاهد على تأثر الشوكاني بابن عطية، قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ (٣).

(١) انظر: تاريخ قضاة الأندلس، الشيخ أبو الحسن النباهي، ص ١١٩، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٥، ١٩٨٣ م .

والتفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ج ١/٢٣٨، دار الكتب الحديثة، ط ٢، ١٩٧٦ .

(٢) المحرر الوجيز وأثره في الدراسات البلاغية، الدكتور محمد علوان، رسالة دكتوراة، ص ٤١٢، ١٩٩١ م .

(٣) سبأ: ٢٨ .

يقول ابن عطية: "هذا إعلام من الله تعالى بأنه بعث محمداً ﷺ إلى جميع العالم ،
و(الكافة) الجمع الأكمل من الناس، و(كافة) نصب على الحال وقدمها للاهتمام"^(١) .

وقد نقل الشوكاني عن ابن عطية أن الآية فيها تقديم وتأخير ووضح آراء العلماء في
انتصاب كافة فقال: "في انتصاب كافة وجوه... قيل: إنه حال من الناس والتقدير: وما أرسلناك
إلا للناس كافة، و رُدُّ بأنه لا يتقدم الحال من المجرور عليه، كما هو مقرر في علم الإعراب،
ويجاب عنه بأنه قد جوز ذلك أبو علي الفارسي وابن كيسان وابن برهان ومنه قول الشاعر:

إذا المرء أعيته السيادة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه عسير

وقول الآخر:

تسلبت طراً عنكم بعد بينكم بذكرام حتى كأنكم عندي

وقول الآخر:

غافلاً تعرض المنية للمرء فيدعي ولات حين إباء

وممن رجح كونها حالاً من المجرور بعدها ابن عطية، وقال: قدمت للاهتمام
والتقوي"^(٢) .

نلاحظ هنا ذكر الشوكاني لآراء العلماء في انتصاب(كافة) والخلاف بينهما، ثم يستشهد
لذلك بالشعر ليثبت ما ذهب إليه أبو علي الفارسي وابن كيسان وابن برهان ثم ابن عطية، وهنا
يتضح تأثر الشوكاني بابن عطية من خلال ذكره لاسم ابن عطية، ثم نقله لقوله نقلاً كاملاً.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَأْتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) .

(١) المحرر الوجيز ، ج٤/٤٢٠ .

(٢) فتح القدير: ج٤/٣٩١ .

(٣) البقرة: ١٥٠، ١٥١ .

قال ابن عطية في تفسير الآية: "والكاف في قوله: (كما) رد على قوله: (لأتم) أي إتماماً كما، وهذا أحسن الأقوال، أي لأتم نعمتي عليكم في بيان سنة إبراهيم عليه السلام (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم) إجابة لدعوته في قوله: (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم) الآية، وقيل: الكاف من (كما) رد على (تهتدون) أي اهتداء كما، وقيل: هو في موضع نصب على الحال، وقيل: هو في معنى التأخير متعلق بقوله: (فاذكروني)"^(١).

وينقل الشوكاني مضمون الكلام السابق فيقول في تفسير الآية: "وقوله: ﴿ كما أرسلنا ﴾ الكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف، والمعنى: ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل ما أرسلنا، قاله الفراء، ورجحه ابن عطية وقيل: الكاف في موضع نصب على الحال، والمعنى: ولأتم نعمتي عليكم في هذه الحال، والتشبيه واقع على أن النعمة في القبلة كالنعمة في الرسالة، وقيل: معنى الكلام على التقديم والتأخير، أي فاذكروني كما أرسلنا، قاله الزجاج"^(٢).

بمقارنة النصين يتضح تأثر الشوكاني وأخذه بقول ابن عطية والفراء في نصب الكاف، وكذلك متأثر بابن عطية وبالزجاج في أن الكلام على التقديم والتأخير وإن كان ابن عطية قد ذكر كلمة التأخير إلا أنها توحى أن هناك أيضاً تقديم، ولعل الاثنان متأثران بالزجاج في هذه المسألة، يقول الزجاج: "والأجود أن تكون (كما) معلقة بقوله عز وجل: ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ أي فاذكروني بالشكر والإخلاص كما أرسلنا فيكم" ^(٣).

٢ - إطلاق المفرد وإرادة الجمع:

يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ ^(٤)، "هذا أمر في ظاهر اللفظ للنبي عليها السلام وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة مدة ما، المعنى - والله أعلم - أنه خطاب للنبي عليه السلام في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له: "قاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك" ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر أن يجاهد ولو وحده"^(٥).

(١) المحرر الوجيز: ج ١/٢٢٦ .

(٢) فتح القدير: ج ١/٢٢٣ .

(٣) معاني القرآن وإعرابه: ج ١/١٩٨ .

(٤) النساء: ٨٤ .

(٥) المحرر الوجيز: ج ٢/٨٦ .

وقد أخذ الشوكاني هذا القول عن ابن عطية وقد صرح باسمه فقال: "هذا ظاهر اللفظ إلا أنه لم يجيء في خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة، فالمعنى والله أعلم: أنه خطاب له في اللفظ وفي المعنى له ولأمته: أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك يقال له: { فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك } أي لا تكلف غير نفسك ولا تلزم فعل غيرك، وهو استئناف مقرر لما قبله، لأن اختصاص تكليفه بفعل نفسه من موجبات مباشرته للقتال وحده" (١).

ونقل الشوكاني لهذا الكلام وتصريحه باسم ابن عطية فيه إثبات بتأثر الشوكاني به وإطلاعه على تفسيره وأخذه عنه.

٣ - إطلاق الماضي وإيراد المستقبل:

جاء هذا التأثر من الشوكاني بابن عطية في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقَوْمَ عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢).

يقول ابن عطية "وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقَوْمَ عَلَىٰ النَّارِ ﴾ الآية، المخاطبة فيه لمحمد ﷺ، وجواب (لو) محذوف، تقديره في آخر هذه الآية لرأيت هولاً أو مشقات أو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله، ووقعت (إذ) في موضع إذا التي هي لما يستقبل وجاز ذلك لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع، و(وقفوا) معناه: حبسوا، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغير متعد سواء، تقول: وقفت أنا ووقفت غيري، وقال الزهراوي: وقد فرق بينهما بالمصدر ففي المتعدي وقفته وقفاً وفي غير المتعدي وقفت وقوفاً" (٣).

يقول الشوكاني: "قوله: (لو ترى إذ وقفوا على النار) الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيهاً على تحقيق وقوعه كما ذكره علماء المعاني و { وقفوا } معناه حبسوا، يقال: وقفته وقفاً ووقف وقوفاً وقيل معنى وقفوا على النار أدخلوها، فتكون على بمعنى في، وقيل: هي بمعنى الباء: أي وقفوا بالنار أي بقربها معانين لها" (٤).

(١) فتح القدير: ج ١/٦٥٧.

(٢) الأنعام: ٢٧.

(٣) المحرر الوجيز: ج ٢/٢٨١.

(٤) فتح القدير: ج ٢/١٤٠، ١٤١.

يقول الدكتور محمد علوان: "وإن كان نص ابن عطية يختلف عن نص الشوكاني في الحرف والخط إلا أنه يظهر لنا تأثره به من جانب تكرار عبارات ذكرها صاحب المحرر في تفسيره إضافة إلى أن محتوى النصين يدور حول فكرة واحدة وغرض ثابت" (١) .

فمن العبارات المكررة: (الخطاب فيه لمحمد ﷺ) و (وقفته وقفاً وقف وقوفاً) ، وكل منهما ذكر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي.

٤ - الاستفهام:

كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ... ﴾ (٢) .

يقول ابن عطية في توضيح الغرض من الاستفهام: "هذا خطاب لليهود والنصارى الذي انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ونسبواهم إلى اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم وكذبهم، وأعلمهم أنهم كانوا على الحنفية والإسلام، وقال لهم على جهة التقرير والتوبيخ: أشهدتهم يعقوب وعلمتم بما أوصى فتدعون عن علم؟ أي لم تشهدوا بل أنتم تفترون" (٣) .

يقول الشوكاني: "وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقرير والتوبيخ، والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى إبراهيم وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله ذلك عليهم وقال لهم : أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى به بنيه فتدعون ذلك عن علم أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون" (٤) .

بمقارنة النصين نلاحظ تأثر الشوكاني بان عطية في توضيح المعنى الثاني للاستفهام وهو التقرير والتوبيخ وأضاف إليه الشوكاني أنه استفهام إنكاري، إضافة إلى باقي النص فإنه يوضح مدى ذلك التأثر.

(١) المحرر الوجيز وأثره في الدراسات البلاغية، رسالة دكتوراه، ص ٤١٥ .

(٢) البقرة: ١٣٣ .

(٣) المحرر الوجيز: ج ١/٢١٣ .

(٤) فتح القدير: ج ١/٢٠٨ .

٥ - الإيجاز:

الشاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

يقول ابن عطية: "وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجاز بليغ، وذلك أن المقصود منه أمرهم بالإسلام والدوام عليه، فأتى ذلك بلفظ موجز يقتضي المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت"^(٢).

وقال الشوكاني: "وقوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فيه إيجاز بليغ، والمراد الزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا"^(٣).

وواضح هنا التأثير من خلال نقل الشوكاني لكلام ابن عطية وإن اختلف معه في اللفظ إلا أن المعنى واحد في قول ابن عطية (أمرهم بالإسلام والدوام عليه) وقال الشوكاني (والمراد الزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا) إضافة إلى الاتفاق بأن في الآية (إيجاز بليغ).

٦ - المجاز والاستعارة:

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^(٤).

يبين ابن عطية الوجهة البلاغية في الآية وينقل قول الطبري أيضاً فيقول: "وقيل لفظ الهبوط مجاز لما كانت الحجارة يعتبر بخلقها ويخشع بعض مناظرها، أضيف تواضع الناظر إليها، كما قالت العرب: ناقة تاجرة أي: تبعث من يراها على شرائها، وقال مجاهد: ما تردى حجر من رأس جبل ولا تفجر نهر من حجر ولا خرج ماء منه إلا (من خشية الله) نزل بذلك القرآن وقال مثله ابن جريج، وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى: "يريد أن ينقض"^(٥). وكما قال زيد الخيل:

(١) البقرة: ١٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز: ج ١/٢١٣ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٢٠٧ .

(٤) البقرة: ٧٤ .

(٥) الكهف: ٧٧ .

بجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجداً للحوافر

وكما قال جرير: والجمال الخشع، أي من رأي الحجر هابطاً تخيل فيه الخشية. (١) .

ويقول الشوكاني: "وقيل إن الهبوط مجاز عن الخشوع منها والتواضع الكائن فيها انقياداً لله عز وجل، فهو مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٢) . وقد حكى ابن جرير عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وكما قال الشاعر: :

لما أتى خير الزبير تواضعت سور المدينة والجمال الخشع" (٣)

بمقارنة النصين نلاحظ أن كلا منهما قد نقل عن غيره القول بأن في الآية مجازاً ثم ذكروا ما قاله الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة، كذلك الاستشهاد بقول الشاعر: ...والجمال الخشع، وهذا يؤكد تأثر الشوكاني بابن عطية.

واكتفى بهذه الشواهد على تأثر الشوكاني بابن عطية، وهناك المزيد من الشواهد في رسالة الدكتورة للدكتور محمد علوان التي ذكرتها سابقاً.

خامساً: أبو السعود: ت(٩٨٢هـ) :

وهو "أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي الإمام العلامة والفقير والمفسر والقاضي والمفتي وشيخ الإسلام" (٤) . صاحب كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المعروف بتفسير أبي السعود.

(١) المحرر الوجيز: ج ١/١٦٧ .

(٢) الحشر: ٢١ .

(٣) فتح القدير: ج ١/١٥٠ .

(٤) انظر ترجمته في: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، مج ١، ص: ١١٢، ١١٣، دار الفكر، ١٩٨٢ م .

وقد لاحظت أن الشوكاني تأثر بأبي السعود في بعض من المسائل البلاغية وإن لم يذكر أو يشير بشيء يبين أنه أخذ عنه، حتى أنه لم يذكر اسمه في تفسيره إلا قليلاً أو مرة واحدة حسب ما تمكنت من الإطلاع عليه، إلا أن هذا لا يمنع أن يكون الشوكاني قد تأثر به، ولعل الأمثلة الآتية تدلل على ذلك.

يقول الشوكاني ناقلاً عن أبي السعود في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١).

"قال أبو السعود ما معناه: إن قوله: (ولا يستقدمون) عطف على (يستأخرون) لكن لا لبيان انتفاء التقدم مع إمكانه في نفسه كالتأخر بل للمبالغة في انتفاء التأخر بنظمه في سلك المستحيل عقلاً"^(٢).

فهذا فيه دلالة على تأثر الشوكاني بأبي السعود تأثراً مباشراً من خلال تصريحه باسمه، ونقل كلامه بالمعنى.

١- التعريف:

الشاهد على التأثر قوله تعالى: ﴿تَلِكِ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾^(٣).

يقول أبو السعود في تفسير الآية: "إشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها"^(٤).

ويقول الشوكاني في تفسير الآية: "أي الجنة، والإشارة إليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها كأنه قال: تلك التي سمعت بخبرها وبلغك شأنها"^(٥).

بالمقارنة بين النصين نلاحظ درجة التأثر حيث نقل كلام أبي السعود مع تغيير طفيف في الألفاظ، لكنه لم يصرح باسمه أو بكتابه.

(١) الأعراف: ٣٤.

(٢) فتح القدير: ج ٢/٢٥٨.

(٣) القصص: ٨٣.

(٤) تفسير أبي السعود: ج ٥/١٣٨.

(٥) فتح القدير: ج ٤/٢٢٥.

ولعل أبا السعود قد نقل كلامه عن الزمخشري ولكن بتصريف حيث يقول الزمخشري في الآية: "تلك) تعظيم لها، وتفخيم لشأنها، يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها"^(١) .

وبمقارنة النصوص الثلاثة نلاحظ الاتفاق بينها في فائدة التعريف ولكن تأثر الشوكاني بكلام أبي السعود أكبر.

٢- الالتفات:

في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾^(٢) . وضح أبو السعود الالتفات في الآية فقال: "أي بذلك الماء والالتفات لإظهار كمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة والحكمة"^(٣) .

وقد نقل الشوكاني هذا القول بتغيير بسيط حيث يقول: (فأخرجنا به) أي بالماء، والنكته في هذا الالتفات إظهار كمال العناية بالفعل لما فيه من الصنع البديع"^(٤) .

من خلال التطابق بين النصين يتضح تأثر الشوكاني بأبي السعود وإن لم يصرح باسمه.

٣- المجاز:

وكان التأثر من الشوكاني بأبي السعود في المجاز المرسل علاقته اعتبار ما كان، أو اعتبار ما سيكون تبعاً للكلمة الواقع بشأنها الخلاف وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ ﴾^(٥) .

يقول أبو السعود: "فأزواجهن إن أريد بهن المطلقون فالزوجية إما باعتبار ما كان وإما باعتبار ما يكون وإلا فاعتبار الأخير"^(٦) .

(١) الكشف: ج ٤/٤٧٠ .

(٢) فاطر: ٢٧ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ٥/٢٨٠ .

(٤) فتح القدير: ج ٤/٤١٤ .

(٥) البقرة: ٢٣٢ .

(٦) تفسير أبي السعود: ج ١/٢٧٥ .

والشوكاني متأثر بذلك الكلام لكنه يوضح المجاز الصورة أفضل من أبي السعود فيقول: "وقوله: (أزواجهن) إن أريد به المطلقون لهن فهو مجاز باعتبار ما كان، وإن أريد به من يردن أن يتزوجنه فهو مجاز باعتبار ما سيكون"^(١).

فالتأثر واضح هنا والشوكاني تفوق في شرحه للمسألة وذكر اسم المجاز وعلاقته، رغم عدم تصريحه بأنه نقل هذا الكلام عن أبي السعود أو عن غيره.

٤- التجريد:

وقد ذكره أبو السعود في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(٢).

فقال: "أو اجعل أمرنا راشداً كله على أن (من) تجريدية مثلها في قولك: رأيت منك أسداً"^(٣).

ولعل الشوكاني متأثر بأبي السعود في هذه المسألة فقال: "أي أصلح لنا، من قولك: هيأت الأمر فتهيأ، والمراد بأمرهم الأمر الذي هو عليه وهو مفارقتهم للكفار، والرشد نقيض الضلال، (من) للابتداء ويجوز أن تكون للتجريد كما في قولك: رأيت منك رشداً"^(٤).

فالإتفاق بين الشوكاني وأبي السعود في أن (من) قد تكون تجريدية يدل على تأثر الشوكاني بأبي السعود في هذه المسألة.

(١) فتح القدير: ج ٣٣٤/١ .

(٢) الكهف: ١٠ .

(٣) تفسير أبي السعود: ج ١٧١/٤ .

(٤) فتح القدير: ج ٣٤٣/٣ .

المبحث الرابع

تأثير الشوكاني في اللاحقين

من خلال مراجعة كتب علماء التفسير اللاحقين للشوكاني وجدت أن تأثير الشوكاني من الناحية البلاغية في من جاء بعده كان محدوداً وقد تمكنت من ملاحظة تأثير الشوكاني في الإمام القاسمي من خلال بعض الأمثلة التي تثبت ذلك.

أثر الشوكاني في القاسمي ت(١٣٣٢هـ) :

والقاسمي هو محمد جمال الدين أبو الفرج بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق والي قاسم هذا ينسب حفيده فيسمى (جمال الدين القاسمي) ولد سنة ١٢٨٣هـ في دمشق وهو إمام الشام في عصره وكان عالماً بالدين، متضلعا في فنون الأدب، ومن مصنفاته تفسيره المسمى (محاسن التأويل) وتوفي القاسمي في دمشق ودفن بها سنة ١٣٣٢هـ. (١).

وقد تأثر القاسمي بكثير من العلماء ذكرهم في تفسيره، وكان من العلماء الذين تأثر بهم وأخذ عنهم (الإمام الشوكاني) فقد ذكره باسمه صراحة وكان هذا التأثير في النواحي الفقهية والحديث والتفسير مثال ذلك يقول القاسمي: "قال الشوكاني : فأما مانعو الزكاة منهم، المقيمون على أصل الدين، فإنهم أهل بغى، ولم يسموا على الأفراد كفاراً، وإن كانت الردة قد أضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعه من حقوق الدين، وذلك أن الردة اسم لغوي، فكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً عليه، فقد ارتد عنه، وقد وجد من هؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة ومنع الحق، وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح، وعلق بهم الاسم القبيح، لمشاركتهم القوم الذين ارتدادهم حقاً" (٢).

(١) الأعلام مج ٢/ ١٣٥، وانظر : كتاب اتجاهات التفسير في القرن الرابع الهجري، د.فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، ج ١/١٦١، طبعة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، ١٤٠٦هـ .

(٢) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل، محمد بن جمال الدين القاسمي، مج ٤/١٧١، ضبطه وصححه محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م .

أما تأثير القاسمي بالشوكاني في المسائل البلاغية فقد ظهر لي بعض ذلك التأثير عند مقارنتي بين قول الشوكاني وقول القاسمي في بعض الآيات التي سأذكرها كدليل على ذلك التأثير وإن كان بصورة قليلة نوعاً ما حيث كان تأثير القاسمي أكبر بالزمخشري وبأبي السعود في المسائل البلاغية.

١ - الأمر:

تأثر القاسمي بالشوكاني في هذه المسألة البلاغية في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾^(١).

يقول القاسمي في توضيح الغرض من الأمر في الآية: "والأمر في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ من باب التعجيز وإلقاء الحجر"^(٢).

فقد وضح القاسمي أن الغرض من الأمر هو التعجيز فإنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك.

وبذكر قول الشوكاني في الآية يتضح لنا تأثير القاسمي بالشوكاني، يقول الشوكاني: "وقوله: ﴿فَأْتُوا﴾ إلقاء جواب الشرط، وهو أمر معناه التعجيز"^(٣).

نلاحظ هنا أن كل منهما قد اتفق في أن الغرض من الأمر هو التعجيز، وهذا يجعلنا نعتقد أن القاسمي قد نقل ذلك عن الشوكاني فهو قد نقل عنه في أكثر من موضع كما وضحنا من قبل.

ومثال آخر على تأثير القاسمي بالشوكاني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٤).

بين القاسمي الغرض من الأمر (ائتنا) فقال: "أي من العذاب على عقر الناقة، والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى ذلك"^(٥).

(١) البقرة: ٢٣ .

(٢) تفسير القاسمي: مج ١/٢٦٨ .

(٣) فتح القدير: ج ١/٨٦ .

(٤) الأعراف: ٧٧ .

(٥) تفسير القاسمي: مج ٥/١٢٩ .

هذا الغرض بينه أيضاً الشوكاني في تفسير الآية السابقة فقال: "هذا استعجال منهم للنقمة، وطلب منهم لنزول العذاب وحلول البلية بهم" (١) .

من خلال التوافق بين النصين في أن الغرض من الأمر هو الاستعجال يتضح لنا تأثير الشوكاني في القاسمي.

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٢) .

يقول القاسمي: " (فاخرج) تأكيد للأمر بالهبوط، متفرع على علته (إنك من الصاغرين) أي: من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه" (٣) .

ولتأكيد مدى التأثير نورد قول الشوكاني في الآية السابقة حيث يقول: " (فاخرج) لتأكيد الأمر بالهبوط، وجملة (إنك من الصاغرين) تعليل للأمر، أي: إنك من أهل الصغار والهوان على الله وعلى صالحى عباده" (٤) .

بالمقارنة بين النصين يتبين لنا أن القاسمي نقل قول الشوكاني مع شيء من التحوير والتبديل إلا إنهما اتفقا في أن الأمر بقوله: (فاخرج) جاء لتأكيد الأمر السابق (فاهبط)، ثم إن جملة (إنك من الصاغرين) هي تعليل لذلك الأمر، وهذا يؤكد لنا تأثير الشوكاني في القاسمي .

٢ - الاستفهام:

ومن الشواهد على تأثير الشوكاني في القاسمي في هذا النوع من الأساليب قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ (٥) .

يقول القاسمي في تفسير الآية: "في الآية رد على من تورع عن أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة، لأنه زهد في ترك الطيب منها، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن

(١) فتح القدير: ج ٢/٢٨٠ .

(٢) الأعراف: ١٣ .

(٣) تفسير القاسمي: مج ٥/١٩ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/٢٤٥ .

(٥) الأعراف: ٣٢ .

للإنكار على من حرم ذلك على نفسه، أو حرمه على غيره، وما أحسن ما قاله ابن جرير الطبري: لقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان، مع وجود السبيل إليه من حله، ومن أكل البقول والعدس، واختاره على خبز البرّ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة^(١) .

وبمقارنة هذا الكلام بكلام الشوكاني نجد أنه قد نقله عن الشوكاني نقلاً تاماً كاملاً ولتأكيد ذلك نورد كلام الشوكاني إذ يقول: " فلا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخل في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي، ومن زعم أن ذلك يخالف الزهد فقد غلط غلطاً بيناً... ولهذا جاءت الآية هذه معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه أو حرمه على غيره، وما أحسن ما قال ابن جرير الطبري : ولقد أخطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان مع وجود السبيل إليه من حله ومن أكل البقول والعدس: واختاره على خبز البرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة^(٢) .

نلاحظ من خلال النصين أن القاسمي متأثر بالشوكاني تأثراً كاملاً حيث أنه:

- ١- نقل نص الشوكاني نقلاً كاملاً.
- ٢- وافق الشوكاني بأن الاستفهام غرضه الإنكار.
- ٣- نقل ما نقله الشوكاني عن ابن جرير.
- ٤- وافق الشوكاني في أنه لا زهد في ترك الطيبات.

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَغْيِرَ اللَّهُ دَعُونََ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾^(٣) .

وضح القاسمي الغرض من الاستفهام في الآية فقال: "أي: في كشف العذاب عنكم، وهذا محط التبكيت، أي أتخصون آلهتكم بالدعوة إلى رفع تلك الشدة، بل لا تدعونها من الله أيضاً (إن كنتم صادقين)متعلق بـ(أرأيتم) مؤكداً للتبكيت كاشف عن كذبهم"^(٤) . كلام القاسمي السابق هو ما تحدث به الشوكاني فقال: "هذا على طريق التبكيت والتوبيخ أي:أُدعون غير الله في هذه

(١) تفسير القاسمي: مج ٥/٤٧ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/٢٥٥، ٢٥٦ .

(٣) الأنعام: ٤٠ .

(٤) تفسير القاسمي: مج ٤/٣٥٨ .

الحالة من الأصنام التي تعبدونها أم تدعون الله سبحانه، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ تأكيد لذلك التوبيخ أي أغير الله من الأصنام تدعون إن كنتم صادقين أن أصنامكم تضر وتنتفع" (١) .

نلاحظ من خلال النصين الاتفاق في أن الغرض من الاستفهام هو التبيكيت، وأن الشوكاني أضاف إليه التوبيخ، ثم إن قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ جاءت مؤكدة لذلك الغرض من الاستفهام، وهذا يظهر لنا تأثر ما من القاسمي بالشوكاني.

ومن الشواهد قوله تعالى: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ﴾ (٢) .

يقول القاسمي في الكشف عن المعنى الثاني للاستفهام: "وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك" (٣) .

وهذا المعنى هو ما كشف عنه الشوكاني فقال: "قالوا هذا على طريق الاستهزاء والسخرية" (٤) .

يتضح من خلال النصين تأثر القاسمي بالشوكاني حيث نقل قول الشوكاني كاملاً مع تغيير في وضع الكلمات حيث وضع كلمة السخرية قبل الاستهزاء، وهذا لا يمنع أن يكون قد تأثر في هذا بالشوكاني.

وشاهد آخر قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٥).

يقول القاسمي: "أي المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم... (ولنسألن المرسلين) أي عما أجيبوا به والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريرهم" (٦) .

يقول الشوكاني في تفسير الآية السابقة: "هذا وعيد شديد، والسؤال للقوم الذين أرسل الله إليهم الرسل من الأمم السالفة للتقرير والتوبيخ، واللام لام القسم: أي لنسألنهم عما أجابوا به

(١) فتح القدير: ج ١٥٠/٢ .

(٢) الأعراف: ٧٥ .

(٣) تفسير القاسمي: مج ١٢٧/٥ .

(٤) فتح القدير: ج ٢٨٠/٢ .

(٥) الأعراف: ٦ .

(٦) تفسير القاسمي: مج ٦/٥ .

رسلهم عند دعوتهم، والفاء لترتيب الأحوال الآخروية على الأحوال الدنيوية (ولنسألن المرسلين) أي الأنبياء الذين بعثهم الله" (١) .

بمقارنة نص الشوكاني ونص القاسمي في تفسير الآية نلاحظ مدى التوافق في توضيح الغرض من السؤال وهو التقرير والتوبيخ، إضافة للتوافق في توضيح معنى الآية.

٣ - النفي:

والشاهد فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

يقول القاسمي: "فيه من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه، مطلعاً عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد" (٣) .

وهذا القول هو نفس قول الشوكاني حيث يقول: "وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه كان لمجازاتهم بالمرصاد" (٤) .

وهذا النقل التام يبين لنا مدى تأثر القاسمي بالشوكاني وإن كان لا يذكر اسم الشوكاني عند نقل كلامه.

٤ - الالتفات:

يبين القاسمي المعنى الثاني للالتفات في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٥) .

(١) فتح القدير: ج ٢/٢٤١ .

(٢) البقرة: ٧٤ .

(٣) تفسير القاسمي: مج ١/٣٣٣ .

(٤) فتح القدير: ج ١/١٥٠ .

(٥) الأنعام: ٩٩ .

فقال: "التفت إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله أي: فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء، مع وحدته (نبات كل شيء) أي: صنف من أصناف النبات والثمار المختلفة الطعوم والألوان" (١) .

يقول الشوكاني: "التفات من الغيبة إلى التكلم إظهار للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه والضمير في (به) عائد إلى الماء و(نبات كل شيء) يعني: كل صنف من أصناف النبات المختلفة" (٢) .

نلاحظ تأثر القاسمي بالشوكاني في أن الآية فيها التفات من الغيبة إلى التكلم، وأن الغرض من هذا الالتفات إظهار كمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله، وهذا التوافق بين النصين يؤكد لنا ذلك التأثير .

٥- وضع المظهر موضع المضمرة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (٣) .

يقول القاسمي: "أي للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ووضع المظهر موضع المضمرة، لتشديد الوعيد، وأنه تعالى مطلع على سرهم وعلنهم، لا يفوت عن علمه شيء من ضمائرهم وأعمالهم، فيجازيهم على حسب ذلك" (٤) .

وهذا قريب مما قاله الشوكاني إذ يقول: "وفي جملة (ثم تردون إلى عالم الغيب) إلى آخرها تخويف شديد لما هي مشتملة عليه من التهديد، ولاسيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمرة لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتُمونه ويتظاهرون به وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه" (٥) . وهنا وافق القاسمي الشوكاني بأن الآية اشتملت على وضع الظاهر موضع المضمرة، وأن الغرض منه التهديد والوعيد وهما بمعنى واحد لأن الوعد مع التخويف هو تهديد.

(١) تفسير القاسمي: مج ٤/٤٤٥ .

(٢) فتح القدير: ج ٢/١٨٥ .

(٣) التوبة : ٩٤ .

(٤) تفسير القاسمي: مج ٥/٤٨٠ .

(٥) فتح القدير: ج ٢/٤٩٩ .

٦- التضمين:

وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾^(١).

يقول القاسمي في تفسير الآية السابقة: "واللام في قوله: (لكم) لتضمين معنى الاستجابة، كما في قوله عز وجل ﴿ فَأَمِّنْ لَهُ لُوط ﴾^(٢). أي في إيمانهم مستجيبين لكم"^(٣).

ويقول الشوكاني في تفسير الآية: "أي لأجلكم، أو على تضمين آمن معنى استجاب: أي أتطمعون أن يستجيبوا لكم"^(٤).

(١) البقرة: ٧٥ .

(٢) العنكبوت: ٢٦ .

(٣) تفسير القاسمي: مج ١/ ٣٣٤ .

(٤) فتح القدير: ج ١/ ١٥٢ .

الفصل الخامس

الوجهة البلاغية في توجيهه للقراءات القرآنية

لقد نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف، وتنوعت قراءاته مما جعل هناك اختلافاً في القراءات وهذا الاختلاف كان له فوائد جمة^(١).

١- منها ما في ذلك من نهاية البلاغة وكمال الإعجاز وغاية الاختصار وجمال الإيجاز إذ كل قراءة بمنزلة الآية.

٢- ومنها ما في ذلك من عظيم البرهان وواضح الدلالة، إذ هو مع كثرة هذا الاختلاف وتنوعه لم يتطرق إلى تضاد ولا تناقض ولا تخالف بل كله يصدق بعضه بعضاً.

٣- ومنها إعظام أجور هذه الأمة من حيث أنهم يفرغون جهدهم ليلبغوا قصدهم في تتبع معاني ذلك واستنباط الحكم والأحكام من دلالة كل لفظ، واستخراج كمين أسرارته وخفي إشارات.

وسأحاول في هذا الفصل توضيح الوجهة البلاغية في توجيه القراءات القرآنية عند الشوكاني من خلال شواهد ذكرها في تفسيره على اختلاف القراءات ووضح فيها المعاني البلاغية لبعض القراءات.

وسأعتمد على القراءات المتواترة والتي لا يمكن تفضيل واحدة منها على الأخرى لأنها كلها صحيحة، وسأذكر الآية القرآنية ثم قراءاتها، ثم الكشف عن الصور البلاغية فيها.

١- قوله عز وجل: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) وفيها قراءتان يقول الشوكاني: "وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (يخادعون) في الموضعين، وقرأ حمزة وعاصم والكسائي وابن عامر في الثاني (يخدعون)"^(٣).

(١) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري: ج ٥٢/١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٢) البقرة: ٩.

(٣) فتح القدير: ج ٧٢/١.

وقال مكي بن أبي طالب: "قوله (وما يخذعون) قرأ الكوفيون وابن عامر بفتح الياء وإسكان الخاء من غير ألف، وقرأ الباقر بضم الياء، وبألف بعد الخاء، وكسر الدال" (١) .

وقد بين الشوكاني المحسن البديعي في الآية وذلك على القراءتين فقال: "والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الإسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه بإظهار الإسلام وإيطان الكفر، مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه، والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله به من أحكام الإسلام وإبطال الكفر" (٢) .

ويبين الدكتوران محمد علوان ونعمان علوان صورة بلاغية على القراءة الثانية حيث يقولان: "والقراءة الأخرى (وما يخذعون إلا أنفسهم) نقول إن زيادة الحرف فيها عن (وما يخذعون) هو زيادة في مبنى الكلمة، وكما يقولون: فإن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، لذلك لا بد وأن يكون هناك وجه إعجازي فالمخادعة على وزن المفاعلة، والمفاعلة لا تكون إلا بين اثنين، فكأن الله سبحانه وتعالى قد انتزع من أنفسهم نفساً أخرى يخادعونها و تخادعهم، وذلك على سبيل المبالغة في هذه الصفة الذميمة الموجودة فيهم، وهذا ما ضبطه البلاغيون باسم التجريد أو الانتزاع وهو: أن ينتزع من أمر ذي صفة أمراً آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها فيه، فتارة هم يخادعون أنفسهم، والأخرى أنفسهم تخادعهم" (٣) .

٢- قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٤) .

وفيها قراءتان فقد قرأه ابن كثير وحزمة والكسائي بالياء، ردوه إلى لفظ الغيبة الذي قبله... وقرأه الباقر بالتاء حملوه على الخطاب وعلى ما بعده من الخطاب" (٥) وقد ذكر

(١) كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لمكي بن أبي طالب، ج ١/٢٢٤، تحقيق محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٤ م ، وانظر الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه ص ٦٨ ، تحقيق عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨١ م .

(٢) فتح القدير: ج ١/٧٢ .

(٣) توجيه القراءات القرآنية بلاغياً ، د. محمد علوان ود. نعمان علوان، ص ٣٩٨ ، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، العدد الثامن عشر، ٢٠٠٠ م .

(٤) البقرة: ٨٣ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٤٤٧ ، والحجة في القراءات السبع ص ٨٣ .

الشوكاني القراءتين في قوله تعالى : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ وذكر قراءة الثالثة، ووضح الوجهة البلاغية في إحداهم حيث قال: " قال سيبويه : إن قوله : (لا تعبدون إلا الله) هو جواب قسم ، والمعنى استحلّفناهم والله لا تعبدون إلا الله ، وقيل : هو إخبار في معنى الأمر، ويدل عليه قراءة أبي وابن مسعود : (لا تعبدوا) على النهي، ويدل عليه أيضا ما عطف عليه من قوله : (وقولوا وأقيموا وآتوا) وقال قطرب والمبرد : إن قوله : (لا تعبدون) جملة حالية، أي أخذنا ميثاقهم موحدين أو غير معاندين قال القرطبي : وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي (يعبدون) بالياء التحتية" (١) .

نلاحظ أن القراءة على (تعبدون) جاءت جواباً للقسم المقدر، وظهر فيها أيضاً الوجهة البلاغية وهو خروج الخبر إلى معنى الأمر، وتؤيده القراءة الثانية على النهي (لا تعبدوا) فالقراءتان فيها وجهة بلاغية واحدة.

ويوضح الزمخشري هذا الأمر فيقول: " (لا تعبدون) إخبار في معنى النهي كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له كذا: تريد الأمر، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأن سُورِع إلى الامتثال والانتهاء، فهو يخبر عنه، وتتصره قراءة عبد الله وأبي (لا تعبدوا) ولا بد من إرادة القول" (٢).

٣- قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ (٣) .

فيها قراءتان الأولى قراءة ابن عامر بسكون العين وضم التاء، والثانية قراءة الباقرين بفتح العين وسكون التاء" (٤) .

وقد نقل الشوكاني هاتين القراءتين موضحاً الوجهة البلاغية لكل منهما فقال: " قرأ أبو بكر وابن عامر بضم التاء، فيكون من جملة كلامها، ويكون متصلاً بما قبلها، وفيه معنى

(١) فتح القدير: ج ١/١٥٨ .

(٢) الكشف: ج ١/١٤٨ .

(٣) آل عمران: ٣٦ .

(٤) الكوكب الدرّي في شرح طيبة ابن الجزري/ مختصر شرح الطيبة للنويري، محمد الصادق قمحاوي، ص ٤٠٠، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ١ .

وانظر الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ١/٣٤٠، والحجة في القراءات السبع ص ١٠٨ .

التسليم لله والخضوع والتتزيه له أن يخفى عليه شيء، وقرأ الجمهور (وضعت) فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين وعبرة للمعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحداً" (١) .

فالشوكاني هنا يبين الوجهة البلاغية للاعتراض حيث أن الجملة اعتراضية حسب القراءة الأولى (ضم التاء) وهي التعظيم والخضوع لله والتتزيه لله سبحانه، وعلى القراءة الثانية (سكون التاء) وهي التعظيم للمولود والتفخيم لشأنه، وهذا ما ذكره مكي بن أبي طالب: "وفي القراءة بضم التاء معنى التعظيم لله، والخضوع والتتزيه له، أن يخفى عليه شيء، كأن أم مريم لما قالت رب إنني وضعتها أنثى، أرادت أن تعظم الله وتنزهه عن أن يخفى عليه شيء" (٢) .

وهناك وجهة بلاغية أخرى على قراءة الضم للتاء وذلك لاتصال كلام أم مريم بما قبله وبما بعده قولها: (رب إنني وضعتها أنثى) وقولها: (وليس الذكر كالأنثى) وقولها: (وإنني سميتها مريم) حيث يظهر المطابقة والمجانسة بين الكلام كما ذكر ذلك مكي بن أبي طالب (٣) .

٤- قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٤) .

في الكلمتين (يبغون) و (يرجعون) ثلاث قراءات، الأولى: قراءة حفص بالياء في الموضعين. والثانية قرأ أبو عمرو (يبغون) بالياء و (ترجعون) بالتاء والثالثة: قرأ الباقون بالتاء في الموضعين (٥) .

وقد ذكر الشوكاني هذه القراءات ووضح الوجهة البلاغية في قراءة أبي عمر فقال: "وقرأ أبو عمرو وحده: (يبغون) بالتحتيّة، و (ترجعون) بالفوقية، قال: لأن الأول خاص والثاني عام، ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى، وقرأ حفص بالتحتيّة في الموضعين، وقرأ الباقون بالفوقية فيهما" (٦) .

(١) فتح القدير: ج ١/٤٥٣ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ١/٣٤٠ .

(٣) انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٣٤٠ .

(٤) آل عمران: ٨٣ .

(٥) انظر الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٣٥٣ .

(٦) فتح القدير: ج ١/٤٨٢ .

إذاً على قراءة حفص يكون الحديث عن الغائب لتتاسب ما قبلها ﴿ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ (١).

أما حجة من قرأ بالتاء في الموضعين "أنه أجراه على الخطاب لهم، أمر الله نبيه أن يقول
لهم : أفغير دين الله تبغون أيها الكافرون، وإليه ترجعون لأنهم كانوا ينكرون البعث، وينتحلون
غير دين الله، فخطبوا بذلك على لسان النبي عليه السلام" (٢) .

أما قراءة أبي عمرو فقد فرق بين المعنيين وانتقل بالكلام من الغيبة إلى الخطاب على
طريقة الالتفات حيث أنه "جعل الأول للكفار، ثم أشرك المؤمنين معهم في الرجوع وفيه انتقال
بالكلام من أسلوب الغيبة إلى الخطاب ، وهذا ما أطلق عليه البلاغيون (الالتفات)... وفي توجيهه
هذه القراءة من خلال هذه الصورة، نرى أن الانتقال من الغيبة إلى الخطاب في الآية هو انتقال
من الخصوص إلى العموم كما يقول الشوكاني في تفسيره" (٣) .

وهناك حسب هذه القراءة وجهة بلاغية أخرى وهي : "أن الغيبة جاءت بعد الاستفهام
الذي خرج عن معناه الحقيقي ليفيد معنى بلاغياً آخر وهو الإنكار التوبيخي والتحذيري" (٤).

٥- ومن صور الالتفات، قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٥) .

وفيه قراءتان الأولى: بالياء (يكونوا)، والثانية: بالتاء (تكونوا) وقد بين الشوكاني الوجهة
البلاغية في كل قراءة منهما فقال: "قرأ الجمهور: بالتحية على الغيبة جرياً على ما تقدم، وقرأ
أبو حيوة وابن أبي عبله بالفوقية على الحساب التفاتاً وبها قرأ عيسى وابن إسحاق" (٦) .

يتضح من القراءة الأولى والتي جاءت بصيغة الغيبة جاءت لتتوافق وتتناسق مع ما قبلها
(وما نزل من الحق) وما بعدها (الذين أوتوا الكتاب) حيث أنهم قد أوتوا الكتاب من قبل.

(١) آل عمران: ٨٢ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع : ج ١/ ٣٥٣ .

(٣) توجيه القراءات القرآنية بلاغياً ، ٣٩٩ .

(٤) المصدر السابق: ٤٠٠ .

(٥) الحديد: ١٦ .

(٦) فتح القدير: ج ٥/ ٢٠٦ .

أما القراءة الثانية حيث انتقل من الغيبة إلى الخطاب وهي إحدى صور الالتفات كما ذكر الشوكاني ولعل هذا على طريق التحذير والتخويف لهم.

٦- ومن صور الالتفات أيضاً، قوله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ (١).

القراءة الأولى وهي قراءة الجمهور في (تكرمون) قرأوا بالتاء، والقراءة الثانية وهي قراءة أبي عمرو حيث قرأ بالياء. (٢).

وقد أورد الشوكاني هذه القراءات مبيناً الفرق بينهما من الوجهة البلاغية حيث يقول: "والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتفريع، على قراءة الجمهور بالفوقية، وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالتحنية على الخبر" (٣).

قراءة الخطاب وهي قراءة الجمهور تبيين أسلوباً بلاغياً وهو الالتفات وغرضه التوبيخ والتفريع وهو على الخطاب من النبي ﷺ لمن أرسل إليهم على معنى: قل لهم يا محمد كذا وكذا" (٤).

أما قراءة أبي عمرو ويعقوب بالتحنية فهي على الخبر وهو لفظ الغيبة لتناسب ما قبلها وذلك "لتقدم ذكر الإنسان الذي هو اسم للجنس، يدل على الجمع بلفظه، فرجعت عليه الياءات لغيبته" (٥) والمقصود بالياءات ياءات الكلمات (يكرمون ويحاضون ويأكلون ويحبون) في الآية الحالية والآيات التالية لها.

٧- في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يُمْنِي ﴾ (٦).

في قوله تعالى: (يك) قراءتان الأولى قراءة الجمهور بالتحنية، والثانية بالفوقية.

(١) الفجر: ١٧ .

(٢) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/٣٧٢ ، وانظر : حجة القراءات ، عبد الرحمن أبو زرعة ، ص ٧٦٢ ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م .

(٣) فتح القدير: ج ٥ / ٥٢١ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/٣٧٢ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/٣٧٢ .

(٦) القيامة: ٣٧ .

وقد كشف الشوكاني عن الوجهة البلاغية في كل قراءة منهما فقال: "قرأ الجمهور: (ألم يك) بالتحنية على إرجاع الضمير إلى الإنسان، وقرأ الحسن بالفوقية على الالتفات إليه تويخاً له" (١) .

٨- وفي قوله تعالى: ﴿ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وفيها قراءتان الأولى: قرأه الكوفيون بتأين على الخطاب للكفار، والثانية: قرأه الباقون بياء وتاء على الإخبار عن الكفار. (٣)

وهي ما ذكرها الشوكاني إذ يقول: "قرأ الجمهور (يتذكرون) بالتحنية على الغيبة، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم لأن قبلها وبعدها على الغيبة لا على الخطاب، وقرأ الكوفيون بالفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات، أي: تذكرت قليلاً ما تتذكرون" (٤) .

وهذه الآية كسابقتها حيث أن القراءة بالياء جاءت للنسق مع ما قبلها وما بعدها من الآيات، أما القراءة الثانية فيبين الشوكاني الوجهة البلاغية فيها وهو الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

٩- وجاء الالتفات أيضاً في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) .

ذكر في الآية قراءتان وذلك في قوله: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ حيث قرأه أبو بكر وأبو عمرو بالياء، وقرأ الباقون بالتاء (٦) .

يقول الشوكاني: "قرأ أبو بكر وأبو عمرو (يرجعون) بالتحنية، وقرأ الباقون بالفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة" (٧) .

(١) فتح القدير: ج ٥ / ٤٠٥ .

(٢) غافر: ٥٨ .

(٣) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢ / ٢٤٦ .

(٤) فتح القدير: ج ٤ / ٥٩١ .

(٥) الروم: ١١ .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢ / ١٨٣ .

(٧) فتح القدير: ج ٤ / ٢٦١ .

ولعل هذا ما ذكره مكي بن أبي طالب حيث بين حجة كل فريق منهما فقال: "وحجة من قرأ بالياء أنه حمله على لفظ الغيبة المتقدم في قوله: (يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) أي: يرجع الخلق، والخلق هم المخلوقون كلهم، لكن وحدّ اللفظ في قوله: (يعيده) رداً على توحيد لفظ الخلق، ثم جمع في قوله: (يرجعون) رداً على معنى الخلق.

وحجة من قرأ بالتاء أنه رده إلى الخطاب بعد الغيبة، وهو كثير في القرآن" (١).

ونكتفي بهذا القدر من صور الالتفات التي تظهر لنا من خلال الاختلاف في القراءات القرآنية حيث أنها جاءت في القرآن الكريم بكثرة لا يمكن لنا أن نحصيها في هذا البحث التي من سمته إظهار الشواهد التي تؤكد على تمكن الشوكاني من هذا الفن وقدرته على إظهار الصور البلاغية للقراءات المختلفة.

١٠ - قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (٢).

في الآية قراءتان حيث قرأ حمزة والكسائي بإضافة (مائة) إلى (سنتين)، ولم يضيف الباقون ونونوا (مائة) (٣).

وأورد الشوكاني هذه القراءات ذاكراً الوجهة البلاغية فيها فقال: "قرأ الجمهور بتتوين مائة ونصب سنين، فيكون سنين على هذه القراءة بدلاً أو عطف بيان، وقال الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائي: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: سنين ثلاثمائة، ورجح الأول أبو علي الفارسي، وقرأ حمزة والكسائي بإضافة مائة إلى سنين وعلى هذه القراءة تكون سنين تمييزاً على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز" (٤).

من خلال كلام الشوكاني تتضح الوجهة البلاغية في كل قراءة فعلى قراءة الجمهور ذكر لنا قول الفراء وأبو عبيدة والزجاج والكسائي في أن الآية فيها تقديم وتأخير وهي أحد الفنون البلاغية في علم المعاني كما هو معروف، وذلك على التقدير: سنين ثلاثمائة، وفيها وجهة ثانية

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/ ١٨٣ .

(٢) الكهف: ٢٥ .

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/ ٥٨ .

(٤) فتح القدير: ج ٣/ ٣٥٢ .

وهي "أن هذا العدد إنما يبين بواحد يضاف إليه، وليس المستعمل فيه أن يضاف إلى جمع، إلا أن يكون فيما دون العشرة، فيضاف إلى جمع للمشاكله في أن كل واحد من الجمعين لأقل العدد، فإذا علا العدد في الكثرة لم يضاف إلى أقل العدد، لاختلاف معنيهما، فيضاف إلى واحد يبين جنسه، فلما يضاف نون المائة وجعل سنين بدلاً من (ثلاث مائة) أعنى من (ثلاث) فكأنه قال: ولبثوا في كهفهم سنين" (١).

أما على القراءة الثانية فإن التوجيه البلاغي فيها هو وضع الجمع موضع المفرد على أن سنين جاءت هنا تمييزاً وليس بدلاً أو عطف بيان، وبذلك تظهر لنا هذه الوجهة البلاغية.

١١ - قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢).

في الآية قراءتان في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ﴾

الأولى قراءة الجمهور بالجر، والثانية قراءة نافع وابن عامر بالرفع ويقول الشوكاني: "قرأ نافع وابن عامر بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: هو الله المتصف بملك ما في السماوات وما في الأرض، وقرأ الجمهور بالجر على أنه عطف بيان لكونه من الأعلام الغالبة فلا يصح وصف ما قبله به لأن العلم لا يوصف به، وقيل: يجوز أن يوصف به من حيث المعنى، وقال أبو عمرو: إن قراءة الجر محمولة على التقديم والتأخير، والتقدير إلى صراط الله العزيز الحميد" (٣).

نلاحظ من كلام الشوكاني أنه وضح الصور البلاغية في كل قراءة.

فالصورة الأولى على الجر جاءت بدلاً أو عطف بيان وذلك ليتصل الكلام ببعضه ببعض وهذا على قول بعض العلماء مثل أبو عبيد. (٤).

وعلى رأي أبو عمرو فإن الصورة فيها هو التقديم والتأخير على تقدير: إلى صراط الله العزيز الحميد، حيث قدم (العزيز الحميد) على لفظ الجلالة (الله).

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/٥٨ .

(٢) إبراهيم: ٢ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/١١٧ .

(٤) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/٢٥ .

أما الصورة في القراءة الثانية فهي على الخبر لتعظيم الله سبحانه وتزيهه، وإظهار قدرته سبحانه بخلق السماوات والأرض والله أعلم.

١٢ - قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ (١).

في قوله تعالى: (أنتك) قراءتان، الأولى: قراءة الجمهور وهي بهمزتين على لفظ الاستفهام، والثانية: قراءة ابن كثير (إنك لأنت) بهمزة واحدة على لفظ الخبر" (٢).

يقول الشوكاني مبيناً هاتين القراءتين: "قرأ ابن كثير (إنك) على الخبر بدون استفهام، وقرأ الباقون على الاستفهام التقريري، وكان ذلك منهم على طريق التعجب والاستغراب" (٣).

فعلى قراءة ابن كثير تكون الوجهة البلاغية خروج إلى معنى التأكيد، وعلى القراءة الثانية قراءة الباقين من القراء فهي استفهام تقريري الغرض البلاغي فيه التعجب والاستغراب، وكما هو واضح فإن الشوكاني يورد القراءات وينسبها لأصحابها ثم يبين الوجهة البلاغية فيها، وقد ذكر أمثلة كثيرة على الاستفهام سأذكر بعضها دون التعليق عليها لأن المجال لا يتسع لذكرها جميعاً.

منها: قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أُنَدَا مَا مِتْ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ (٤).

يقول الشوكاني: "قرأ الجمهور على الاستفهام، وقرأ ابن ذكوان (إذا ما مت) على الخبر، والمراد بالإنسان هنا الكافر، لأن هذا الاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء والتكذيب بالبعث" (٥).

ومنها أيضاً قوله عز وجل: ﴿ أَنْتَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ، أُنَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْنَا لَمَدِينُونَ ﴾ (٦).

(١) يوسف: ٩٠ .

(٢) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١٤/٢ .

(٣) فتح القدير: ج ٦٥/٣ .

(٤) مريم: ٦٦ .

(٥) فتح القدير: ج ٤٣١/٣ .

(٦) الصفات: ٥٣، ٥٢ .

يقول الشوكاني: "قد اختلف القراء في هذه الاستفهامات الثلاثة، فقرأ نافع الأولى والثانية بالاستفهام بهمزة، والثالثة بكسر الألف من غير استفهام، ووافقه الكسائي إلا أنه يستفهم الثالثة بهمزتين وابن عامر الأولى والثالثة بهمزتين، والثانية بكسر الألف من غير استفهام، والباقون بالاستفهام جميعها ثم اختلفوا فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة غير مطولة وبعده ساكنة خفيفة، وأبو عمرو مطولة وعاصم وحمزة بهمزتين" (١).

وعليه فالاستفهام الأول غرضه التوبيخ من القرين للمؤمن وتبكيته بإيمانه وتصديقه والاستفهام الثاني والثالث غرضه الاستبعاد للبعث. وهذا ما وضحه الشوكاني من وجهة بلاغية للقراءات السابقة" (٢).

ومنها قوله جل ثناؤه: ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ (٣).

قال الشوكاني موضحاً اختلاف القراءات في الآية: "قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنها للاستفهام الإنكاري، وقد حذف معها همزة الوصل استغناءً به عنها، وقرأ نافع في رواية عنه وأبو جعفر وشيبة والأعمش بهمزة وصل تثبت ابتداءً، وتسقط درجا ويكون الاستفهام منوياً، قاله الفراء، وحذف حرفه للعلم به من المقام، أو على أن (اصطفى) وما بعده بدل من الجملة المحكية بالقول، وعلى تقدير عدم الاستفهام والبدل فقد حكى جماعة من المحققين منهم الفراء أن التوبيخ يكون باستفهام وبغير استفهام" (٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ (٥).

وضح الشوكاني أن في الآية قراءتان فقال: "قرأ أبو عمرو وأبو جعفر (السحر) على أن الهمزة للاستفهام، والتقدير أهو السحر فتكون ما على هذه القراءة استفهامية وقرأ أبي (ما أتيتم به سحر إن الله سيبطله) أي سيمحقه فيصير باطلا بما يظهره على يدي من الآيات المعجزة" (٦).

(١) فتح القدير: ج ٤/٤٧٢.

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.

(٣) الصافات: ١٥٣.

(٤) فتح القدير: ج ٤/٤٩٣.

(٥) يونس: ٨١.

(٦) فتح القدير: ج ٢/٥٨٨.

ومنه قوله عز وجل: ﴿ أَتَّخَذْنَاَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْبَاصِرُ ﴾ (١) .

قال الشوكاني: "قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن كثير (من غير المشهور عن ابن كثير) والأعمش: بحذف همزة (اتخذناهم) في الوصل وهذه القراءة تحتمل أن يكون الكلام خبراً محضاً وتكون الجملة في محل نصب صفة ثانية ل(رجالاً) وأن يكون المراد الاستفهام وحذفت أداته لدلالة (أم) عليها ، فتكون (أم) على الوجه الأول منقطعة بمعنى بل والهمزة أي بل زاغت عنهم الأبصار، على معنى توبيخ أنفسهم على الاستسار ثم الإضراب والانتقال منه إلى التوبيخ على الازدراء والتحقير وعلى الثاني (أم) هي المتصلة، وقرأ الباقرن بهمزة استفهام سقطت لأجلها همزة الوصل ولا محل للجملة حينئذ، وفيه التوبيخ لأنفسهم على الأمرين جميعاً لأن (أم) على هذه القراءة هي للتسوية" (٢).

ومنها قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (٣) .

يقول الشوكاني: "قرأ الجمهور (أذهبتم) بهمزة واحدة، وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير بهزتين مخففتين ومعنى الاستفهام التقرير والتوبيخ، قال الفراء والزجاج: العرب توبخ بالاستفهام وبغيره، فالتوبيخ كائن على القراءتين" (٤) .

في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾ (٥).

في الآية قراءتان فقد "قرأ نافع وابن كثير (إن لنا لأجراً) مكسورة الألف على الخبر، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بهزتين جميعاً (أئن) على الاستفهام" (٦).

(١) ص: ٦٣ .

(٢) فتح القدير: ج ٤/٥٢٦ .

(٣) الأحقاف: ٢٠ .

(٤) فتح القدير: ج ٥/٢٦ .

(٥) الأعراف: ١١٣ .

(٦) السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص ٢٨٩، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٧٢م، والحجة في القراءات السبع، ص ١٦١، والكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٤٧٢، واتفق فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي الشهير بالبناء، ص ٢٨٧، وضع حواشيه أنس مهرة، دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠١م .

يقول الشوكاني مبيناً التوجيه البلاغي في القراءات: "قرأ نافع وابن كثير (إن لنا) على الإخبار، وقرأ الباقر (أئن لنا) على الاستفهام التقرير، وأما على القراءة الأولى فكأنهم قاطعون بالجعل وأنه لا بد لهم منه" (١).

إذاً التوجيه البلاغي على القراءة الأولى أنها خبر الغرض منه إثبات الأجر وإيجابه.

أما القراءة الثانية فهو استفهام تقرير.

١٣ - قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَأُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢).

فيها قراءتان قراءة الحسن وقتادة بفتح (أن)، وقراءة الباقر بكسر (أن).

يقول الشوكاني: "قرأ الحسن وقتادة بفتح (أن) على التعليل، وقرأ الباقر بالكسر على الاستئناف" (٣).

١٤ - قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ (٤).

"قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (قل كم) على الأمر بغير ألف، وقرأ حمزة والكسائي (قل إن لبثتم) على الخبر وقرأ الباقر (قال) بألف على الخبر" (٥).

ويكشف الشوكاني عن التوجيه البلاغي في القراءات السابقة فيقول: "وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (قل كم لبثتم في الأرض) على الأمر، والمعنى: قل يا محمد للكفار أو يكون أمراً للملك بسؤالهم، أو التقدير: قولوا كم لبثتم، فأخرج الكلام مخرج الأمر للواحد، والمراد الجماعة، وقرأ الباقر (قل كم لبثتم) على أن القائل هو الله عز وجل أو الملك" (٦)، وهذه القراءة على الخبر، وعلى القراءة الأولى فهي على الأمر كما وضحه الشوكاني.

(١) فتح القدير: ج ٢/٢٩٥ .

(٢) المؤمنون: ١١٧ .

(٣) فتح القدير: ج ٣/٦٢٢ .

(٤) المؤمنون: ١١٢ .

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ٢/١٣٢ .

(٦) فتح القدير: ج ٣/٦٢١ .

١٥ - قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (١) .

في هذه الآية قراءتان الأولى: قراءة الجمهور بالرفع في (تسأل) بضم التاء على المبني للمجهول أو على الاستئناف، والثانية بفتح التاء وجزم اللام في (تسأل) (٢) .

يقول الشوكاني موضحاً هذه القراءات: "قوله: (ولا تسأل) قرأه الجمهور بالرفع مبنيّاً للمجهول، أي حال كونك غير مسؤل، وقرئ بالرفع مبنيّاً للمعلوم، قال الأخفش: ويكون في موضع الحال عطفاً على (بشيراً ونذيراً) أي حال كونك غير سائل عنهم، لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، وقرأ نافع: { ولا تسأل } بالجزم، أي لا يصدر منك السؤال عن هؤلاء، أو لا يصدر منك السؤال عن مات منهم على كفره ومعصيته، تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه، أي أن هذا أمر فظيع وخطب شنيع يتعاضم المتكلم أن يجريه على لسانه، أو يتعاضم السامع أن يسمعه" (٣) .

نلاحظ هنا أن القراءة الأولى بالرفع جاءت لتطابق ما قبلها وما بعدها حيث أن ما قبله خبراً، وبعده خبر، فيجب أن يكون هذا خبراً ليطابق ما قبله وما بعده" (٤) .

أما القراءة الثانية وهي قراءة نافع على النهي، وقد وضح الشوكاني الوجهة البلاغية لهذه القراءة، فالآية نهى غرضه التعظيم والتغليظ لما هم فيه من العذاب، أي: لا تسأل عنهم يا محمد فهم قد وصلوا إلى غاية من العذاب ليس بعده عذاب.

ومن النهي على إحدى القراءات أيضاً قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلِّ وَ مَنْ يُغَلِّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٥) .

ففي قوله تعالى: ﴿يُغَلِّ﴾ قراءتان فقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بفتح الياء، وضم الغين، وقرأ الباقر بضم الياء وفتح الغين" (٦) .

(١) البقرة: ١١٩ .

(٢) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٢٦٢ .

(٣) فتح القدير: ج ١/١٩٤ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٢٦٢ .

(٥) آل عمران: ١٦١ .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٣٦٣ .

وقد ذكر الشوكاني هذه القراءات دون أن ينسبها لأصحابها ووضح ما فيها من وجهة بلاغية فقال: "فمعنى الآية على القراءة بالبناء للفاعل : ما صح لنبي أن يخون شيئاً من المغنم فيأخذه لنفسه من غير اطلاع أصحابه، وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول، ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول : ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه، أي يخونه في الغنيمة، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى للناس من الغلول في المغنم، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حراماً لأن خيانة الأنبياء أشد ذنباً وأعظم وزراً" (١) .

يظهر من كلام الشوكاني أن القراءة الأولى وهي فتح الياء وضم الغين جاءت على النفي والغرض منه تنزيه الأنبياء عن الوقوع في الغلول وذلك لما لهم من العصمة.

أما القراءة الثانية وهي ضم الياء وفتح الغين ففيه نفي الغلول عن أصحاب النبي فلا يخونوه في المغنم، وخرج هذا النفي إلى معنى النهي عن ذلك كما بين الشوكاني.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعَنَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) .

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعَنَّ﴾ قراءتان، القراءة الأولى لابن ذكوان حيث قرأ بتخفيف النون، والقراءة الثانية قراءة الباقيين وهي بتشديد النون على أصلها" (٣) .

يقول الشوكاني في الآية: "قرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفي لا على النهي، وقرئ بتخفيف الفوقية الثانية من تتبعان، والمعنى النهي لهما عن سلوك طريقة من لا يعلم بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور على ما تقتضيه المصالح تعجيلاً وتأجيلاً" (٤) .

نجد أن الوجهة البلاغية في الآية على قراءة ابن ذكوان هي خروج الخبر إلى معنى النهي، وهو نهيمهم عن سلوك طريق الذين لا يعلمون.

أما القراءة الثانية فهي قراءة النهي ولعل الغرض منه التحذير لهم من سلوك تلك الطريق طريق الجهلة بعبادة الله سبحانه في إجراء الأمور.

(١) فتح القدير: ج ١/٥٣٠ .

(٢) يونس: ٨٩ .

(٣) انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/٥٢٢ .

(٤) فتح القدير: ج ٢/٥٩٢ .

١٦ - قوله تعالى: ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ، انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي تَنَائِبٍ شُعْبٍ ﴾ (١) .

وفيها قراءتان الأولى قراءة الجمهور في كلمة (انطلقوا) فقد قرأوا على صيغة الأمر، والقراءة الثانية قراءة رويس ويعقوب، بصيغة الماضي في الثاني.

يقول الشوكاني: "قرأ الجمهور (انطلقوا) في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد، وقرأ رويس عن يعقوب بصيغة الماضي في الثاني، أي لما أمروا بالانطلاق امتثلوا ذلك فانطلقوا" (٢) .

إذاً الوجهة البلاغية على القراءة الأولى هي خروج الأمر إلى معنى التأكيد. وعلى القراءة الثانية الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

١٧ - قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣) .

نجد في قوله تعالى: ﴿ وتوكل ﴾ قراءتان الأولى قراءة نافع وابن عامر: (فتوكل) والثانية قراءة الباقيين: (وتوكل) بالواو.

ويبين الشوكاني الوجهة البلاغية من كل قراءة وذلك بقوله: "قرأ نافع وابن عامر: (فتوكل) بالفاء، وقرأ الباقيون: (وتوكل) بالواو، فعلى القراءة الأولى يكون ما بعد الفاء كالجاء مما قبلها مترتبا عليه، وعلى القراءة الثانية يكون ما بعد الواو معطوفاً على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب" (٤) .

فالوجهة البلاغية على القراء الأولى هو التناسق بين ما قبل الفاء وما بعدها فهو كجزء مما قبلها.

وعلى القراءة الثانية فهو العطف من عطف جملة على جملة.

(١) المرسلات: ٣٠، ٢٩ .

(٢) فتح القدير: ج ٥/٤٢٤ .

(٣) الشعراء: ٢١٧ .

(٤) فتح القدير: ج ٤/١٤٥ .

١٨ - قوله عز وجل: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ (١) .

في قوله تعالى: ﴿ وازينت ﴾ عدة قراءات يوضحها لنا الشوكاني إذ يقول: " والمعنى : أن الأرض أخذت لونها الحسن المشابه بعضه للون الذهب، وبعضه للون الفضة، وبعضه للون الياقوت، وبعضه للون الزمرد... وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب (وتزينت) على الأصل، وقرأ الحسن والأعرج وأبو العالية (وازينت) على وزن أفعلت أي: أزينت بالزينة التي عليها، شبهها بالعروس التي تلبس الثياب الجيدة المتلونة ألواناً كبيرة، وقال عوف بن أبي جميلة: قرأ أشياخنا (وازيانت) على وزن اسوادت وفي رواية المقدمي (وازانت) والأصل فيه تزيانت على وزن تفاعلت، وقرأ الشعبي وقتادة (أزَيَّنتُ) ومعنى هذه القراءات كلها هو ما ذكرنا" (٢) .

والتوجيه البلاغي في جميع القراءات هو التشبيه حيث شبه الأرض بالعروس التي تنزين بالذهب والفضة وبالملابس الجميلة.

وورد التشبيه على إحدى القراءات أيضاً في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (٣) .

وجاء في قوله تعالى: ﴿ دكاء ﴾ قراءتان "قرأه الكوفيون بالمد ولم يمهده الباقون" (٤) .

قرأه حمزة والكسائي بالمد، وفتح الهمزة، غير منون، وقرأ الباقون بالتثوين، من غير مد ولا همز" (٥) .

يقول الشوكاني: "قال الترمذي: أي مستويًا، يقال: ناقة دكاء إذا ذهب سنامها، وقال الفتيبي: أي جعله مدكوكاً ملصقاً بالأرض... قال الأزهري: وككته أي دققته، ومن قرأ (دكاء) بالمد، وهو عاصم وحمزة والكسائي أراد التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي لا سنام لها، أي: مثل دكاء، لأن السد مذكر فلا يوصف بدكاء، وقرأ الباقون (دكاً) بالتثوين على أنه مصدر، ومعناه ما تقدم" (٦) .

(١) يونس: ٢٤ .

(٢) فتح القدير: ج٥٣/٢ .

(٣) الكهف: ٩٨ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج٨١/٢ .

(٥) المصدر السابق: ج٤٧٥/١ .

(٦) فتح القدير: ج٣٩٤/٣ .

ومنه قوله عز وجل: ﴿إِرْمِ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ (١) .

قال الشوكاني: "قرأ الجمهور (إرم) بكسر الهمزة وفتح الراء والميم، وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك (أرم) بفتح الهمزة والراء، وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً، وقرأ بإضافة إرم إلى ذات العماد، قال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام، واحدها أرم" (٢).

١٩ - وفي قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ (٣) .

قراءتان فقد "قرأ حمزة والكسائي بألف على التذكير في (فنادته)، ويميلانها لأن أصلها الياء، وقرأ الباقر بالتاء على لفظ التأنيث" (٤) .

وقد ذكر الشوكاني هذه القراءات فقال: "قرأ حمزة و الكسائي : (فناداه) وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود، وقرأ الباقر : (فنادته الملائكة) قيل المراد هنا جبريل، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز في العربية ... وقيل : ناداه جميع الملائكة، وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع، والمعنى الحقيقي مقدم فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينه" (٥) .

نلاحظ هنا أن الشوكاني وضح الوجهة البلاغية من القراءة الثانية وهي من خروج الكلام عن مقتضى الظاهر حيث وضع الجمع موضع المفرد فقد وضع الملائكة وهي للجمع موضع جبريل وهو مفرد. ويجوز أنه أنت لتأنيث الجماعة بعده فأراد المناسبة بين اللفظين.

وعلى القراءة الأولى فلعل التذكير جاء لأن تذكير جمع الملائكة وتأنيثه جائزان، وكما لا " يوافق دعوى الكفار في الملائكة" (٦) حيث جعلوا الملائكة إناثاً.

(١) الفجر: ٧ .

(٢) فتح القدير: ج٥/٥١٦ .

(٣) آل عمران: ٣٩ .

(٤) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج١/٣٤٢ .

(٥) فتح القدير: ج١/٤٥٦ .

(٦) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج١/٣٤٢ .

٢٠- قوله جل ثناؤه: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ (١) .

جاء في قوله: (على) قراءتان فقد " قرأه نافع بياء مشددة مفتوحة، على تعدية (حقيق) إلى ضمير المتكلم، فلما اجتمع ياءان ياء (على) التي تنقلب مع الضمير ياء، وياء المتكلم، أدغم الأولى في الثانية وفتح... وقرأ الباقيون بألف بعد اللام من (على) ولم يضيفوها إلى المتكلم" (٢) .

يقول الشوكاني: " قرئ حقيق عليّ أن لا أقول : أي واجب عليّ ولازم لي أن لا أقول فيما أبلغكم عن الله إلا القول الحق، وقرئ (حقيق على أن لا أقول) بدون ضمير في علي، قيل : في توجيهه أن على معنى الباء، أي حقيق بأن لا أقول، ويؤيده قراءة أبي والأعمش فإنهما قرآ حقيق بأن لا أقول" (٣) .

وعليه يكون التوجيه البلاغي في الآية التضمنين حيث ضمن على معنى الياء، وعلى القراءة الأولى فهو خبر أراد منه التأكيد والإلزام.

ونجد الشوكاني يذكر القراءات وموقف العلماء منها ثم يبدي رأيه فيها ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ (٤) يقول الشوكاني: " قرأ الجمهور زين بالبناء للفاعل، ونصبت قتل على أنه مفعول زين وجر أولاد بإضافة قتل إليه، ورفع (شركاؤهم) على أنه فاعل زين وقرأ الحسن: بضم الزاي ورفع قتل وخفض أولاد ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه : أي زينه شركاؤهم ومثله قول الشاعر:

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط ما تطيح الطوائح (٥)

أي يبكيه ضارع وقرأ ابن عامر وأهل الشام بضم الزاي ورفع قتل ونصب أولاد وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم ومعموله أولادهم ففيه الفصل بين المصدر

(١) الأعراف: ١٠٥ .

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع: ج ١/١١٠، ١١١ .

(٣) فتح القدير: ج ٢/٢٩٤ .

(٤) الأنعام: ١٣٧ .

(٥) الطوائح: هو المشرف على الهلاك .

وما هو مضاف إليه بالمفعول، ومثله في الفصل بين المصدر وما أضيف إليه قول الشاعر:

تمر على ما تستمر وقد شفت علائل عبد القيس منها صدورها

بجر صدورها، والتقدير شفت عبد القيس علائل صدورها، قال النحاس: إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا في شعر، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الشعر لاتساعهم في الظروف، وهو أي الفصل بالمفعول به في الشعر بعيد فإجازته في القرآن أبعد وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي: إن قراءة ابن عامر هذه لا تجوز في العربية، وهي زلة عالم، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه، ورد قوله إلى الإجماع، وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف كقول الشاعر:

كما خط الكتاب بكف يوماً يهودي يقارب أو يزيل

وقول الآخر: لله در اليوم من لامها

وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة: إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبي ﷺ فهي فصيحة لا قبيحة، قالوا: وقد ورد ذلك في كلام العرب وفي مصحف عثمان رضي الله عنه (شركائهم) بالياء.

وأقول: دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعترين، كما بينا ذلك في رسالة مستقلة، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته رد عليه، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم كما قدمنا وكقول الشاعر:

فزجتها بمزجة زج القلوص أبي مزاده

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها، وفي الآية قراءة رابعة وهي جر الأولاد والشركاء، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاؤهم في النسب والميراث" (١).

هذا الكلام يدل على سعة علم الشوكاني ومعرفته بعلم القراءات وتوجيهها توجيهاً بلاغياً ونحويّاً.

(١) فتح القدير: ج ١/٢١١، ٢١٢.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث لأبد لنا من أن نقف على أهم النتائج التي توصلنا إليها بعد هذا المشوار مع كتاب (فتح القدير) وهي :

أولاً : أن الإمام الشوكاني يعتبر من الأعلام الذين كان لهم دور في إثراء البلاغة العربية لما قدمه في هذا الفن من فنون اللغة العربية في تفسيره فتح القدير .

ثانياً : أن الشوكاني سار في تناوله للبلاغة القرآنية على ما سار عليه من سبقه من المفسرين ، فكان يذكر الفنون البلاغية للآيات القرآنية في ثنايا تفسيره .

ثالثاً : كان اهتمامه بفني علم المعاني وعلم البيان أكثر من اهتمامه بفن علم البديع ، ولعله في ذلك يتبع الجرجاني والزمخشري .

رابعاً : نقل الكثير من فنون البلاغة عن علماء التفسير وعلماء البلاغة .

خامساً : كانت له آراء خاصة في المسائل البلاغية ، فكان يذكر مسائل بلاغية لم يذكرها من سبقه ، أو يعارض آراء العلماء السابقين .

سادساً : تأثر بالكثير من علماء البلاغة والتفسير من أمثال : سيبويه ، والفراء ، والزجاج ، والزمخشري ، وابن عطية ، وأبي عبيدة ، والجرجاني ، وأبي السعود ، والقرطبي ، والرازي ، والسيوطي .

سابعاً : وضح اختلاف الوجهة البلاغية في الآية القرآنية تبعاً لاختلاف القراءات القرآنية.

ثامناً : كان تأثيره في النواحي البلاغية فيمن جاء بعده محدوداً ، ولعل ذلك لتأخره في الزمن .

هذه هي أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث ، سائلاً الله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله رب العالمين .

مراجع البحث

- ١- أبجد العلوم ، صديق بن حسن القنوجي ، وضع فهارسه : عبد الجبار زكار ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٢- اتجاهات التفسير في القرن الرابع الهجري ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، طبعة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية ، ١٤٠٦ هـ .
- ٣- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، شهاب الدين أحمد بن محمد الدمياطي الشهير بالبناء ، وضع حواشيه أنس مهرة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠١ م .
- ٤- الإتيقان في علوم القرآن ، السيوطي ، تحقيق : أحمد بن علي ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م .
- ٥- أساس البلاغة ، الزمخشري ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- ٦- أسرار البلاغة في علم البيان ، عبد القاهر الجرجاني ، تصحيح : محمد رشيد رضا دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٧- أسرار التكرار في لغة القرآن ، محمد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٣ م .
- ٨- أسلوب الالتفات دراسة تاريخية فنية ، نزيه عبد الحميد فراج ، دار البيان ، مصر ، ط ١ ، ١٩٨٣ م .
- ٩- أسلوب التغليب في القرآن الكريم ، محمود عبد العظيم صفا ، مطبعة الأمانة ، مصر ، ط ١ ، ١٩٨٣ م .
- ١٠- الإشارات و التنبيهات ، محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : عبد القادر حسين ، دار النهضة مصر ، ١٩٨٢ م .
- ١١- أصول البيان العربي ، محمد حسن الصغير ، الشئون الثقافية العامة بالعراق .
- ١٢- إعجاز القرآن ، الباقلائي ، تحقيق : أحمد صقر ، دار المعارف ، مصر / ط ٥ / ١٩٨١ م .
- ١٣- إعراب القرآن ، محي الدين الدرويش ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٩٦ م .
- ١٤- الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٩٧ م .

- ١٥- الإكسير في علم التفسير ، الطوفي ، تحقيق : عبد القادر حسين دار الأوزاعي ،
١٩٨٩م .
- ١٦- الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، تحقيق لجنة من أساتذة اللغة
العربية بالأزهر ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة .
- ١٧- البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ، طبعة دار الفكر .
- ١٨- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الشوكاني ، تحقيق : حسين بن عبد الله
العمري ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩٨ م .
- ١٩- البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار
المعرفة بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٢ م .
- ٢٠- بغية الإيضاح ، عبد العال الصعيدي ، مكتبة الآداب ومطبعتها .
- ٢١- البلاغة الإصلاحية ، عبده عبد العزيز قاقيلة ، دار الفكر العربي ، ط ٣ ،
١٩٩٢ م .
- ٢٢- البلاغة العربية في ثوبها الجديد (علم البيان) ، بكري شيخ أمين ، دار العلم
للملايين ، ١٩٨٢م .
- ٢٣- البلاغة القرآنية في تفسير الشوكاني ، للدكتور محمد علوان ، مجلة الزهراء ،
جامعة الأزهر ، العدد الخامس عشر .
- ٢٤- البلاغة الواضحة ، علي الجارم ومصطفى أمين ، المكتبة العلمية ، بيروت ، ط ١ ،
٢٠٠٢م .
- ٢٥- البلاغة فنونها وأفنانها ، علم البيان والبدیع ، فضل حسن عباس ، دار الفرقان ،
عمان ، ط ٧ ، ٢٠٠٠م .
- ٢٦- البلاغة فنونها وأفنانها في علم المعاني ، فضل عباس ، دار الفرقان ، الأردن ،
١٩٨٩م .
- ٢٧- البيان في ضوء أساليب القرآن ، عبد الفتاح لأشيين ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٢
١٩٨٥م .
- ٢٨- البيان والتبيين ، الجاحظ ، وضع حواشيه موفق شهاب الدين ، دار الكتب العلمية ،
بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٨م .
- ٢٩- تاريخ قضاة الأندلس، للشيخ أبو الحسن النباهي ، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي
في دار الآفاق الجديدة ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٣ م .
- ٣٠- تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق : السيد صقر، دار التراث ، ١٩٧٣ م .

- ٣١- التبيان في البيان ، الطيبي ، تحقيق : عبد الستار زموط ، دار الجيل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٦ م .
- ٣٢- التحرير والتحرير ، ابن أبي الأصبغ المصري ، تحقيق : حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى لشئون الإسلامية ، ١٩٩٥ م .
- ٣٣- التراكيب النحوية من الوجة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ، عبد الفتاح لاشين ، دار المريخ ، السعودية ، ١٩٨٠ م .
- ٣٤- التشبيه بين عبد القاهر وابن الأثير ، الكردي ، مطبعة السعادة .
- ٣٥- تفسير أبي السعود ، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ م .
- ٣٦- تفسير التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، دار سحنون ، تونس ، ١٩٩٧ م .
- ٣٧- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، ضبطه وصححه : محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٧ م .
- ٣٨- التفسير الكبير ، فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٣٩- التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي ، دارالكتب الحديثة ، ط ٢ ، ١٩٧٦ م .
- ٤٠- التلخيص في علوم البلاغة ، القزويني ، تحقيق : عبد الرحمن البرقوقي ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، ١٩٣٢ م .
- ٤١- توجيه القراءات القرآنية بلاغياً ، د . محمد علوان و د . نعمان علوان ، مجلة كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، العدد الثامن عشر ، ٢٠٠٠ م .
- ٤٢- جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
- ٤٣- حجة القراءات ، عبد الرحمن أبو زرعة ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م .
- ٤٤- الحجة في القراءات السبع ، ابن خالويه ، تحقيق : عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٨١ م .
- ٤٥- خزنة الأدب ، الحموي ، شرح عصام شعيتو ، دار مكتبة الهلال ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩١ م .
- ٤٦- الخصائص ، ابن جني ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- ٤٧- خصائص التراكيب ، محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .
- ٤٨- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، محمد أبو موسى ، دار التضامن ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .

- ٤٩- دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، شرح محمد أمتجي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م .
- ٥٠- روح المعاني ، الألوسي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٨ م .
- ٥١- زهرة البساتين من مواقف العلماء والربانيين ، جمع وترتيب : سيد بن حسين العفاني، دار العفاني ، القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٤ م .
- ٥٢- السبعة في القراءات ، لابن مجاهد ، تحقيق : شوقي ضيف ، دار المعارف ، ١٩٧٢ م .
- ٥٣- شرح ابن عقيل ، ابن عقيل المصري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الخير ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٠ م .
- ٥٤- شروح التلخيص ، التفتازاني ، دار الإرشاد الإسلامي ، بيروت .
- ٥٥- الصناعتين ، أبو هلال العسكري ، تحقيق علي البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي ، ط ٢ .
- ٥٦- الطراز ، العلوي ، مراجعة وضبط : محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .
- ٥٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، للسبكي ، تحقيق : عبد الحميد هندراوي المكتبة العصرية ، صيدا ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .
- ٥٨- علم البديع ، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣ م .
- ٥٩- علم البيان ، بسيوني عبد الفتاح ، مطبعة السعادة ، مصر .
- ٦٠- علم البيان، عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- ٦١- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، ابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد عبد القادر دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- ٦٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، الشوكاني ، تحقيق : سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .
- ٦٣- فن البلاغة ، عبد القادر حسين ، عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٨٤ م .
- ٦٤- فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات ، الكتاني ، بإعتناء إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م .
- ٦٥- القرآن والصور البيانية ، عبد القادر حسين ، دار المنار ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٩١ م .
- ٦٦- الكامل في اللغة والأدب ، المبرد ، تحقيق : عبد الرحمن هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .

- ٦٧- الكتاب ، لسيبويه ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩ م .
- ٦٨- كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجمها ، مكي بن أبي طالب ، تحقيق : محيي الدين رمضان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٤ م .
- ٦٩- الكشاف ، الزمخشري ، شرح وضبط يوسف الحمادي ، مكتبة مصر ، القاهرة .
- ٧٠- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، دار الفكر ، ١٩٨٢ م .
- ٧١- الكوكب الدرّي في شرح طيبة ابن الجزري / مختصر شرح الطيبة للنويري ، محمد الصادق قمحاوي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط ١ .
- ٧٢- لسان العرب ، ابن منظور
- ٧٣- المثل السائر ، ابن الأثير ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٩٠ م .
- ٧٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، تقديم وتعليق : أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، ط ٢ .
- ٧٥- المحتسب ، ابن جني ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة .
- ٧٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية ، بتحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- ٧٧- المحرر الوجيز وأثره في الدراسات البلاغية ، رسالة دكتوراة ، د. محمد علوان ، ١٩٩١ م .
- ٧٨- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم ، التفزازي ، تحقيق : عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١ م .
- ٧٩- معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ، شرح وتعليق : عبد الجليل شلبي ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٤ م .
- ٨٠- معاهد التنصيص ، العباسي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، عالم الكتب بيروت ، ١٩٤٧ م .
- ٨١- معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، ضبطه وصححه : أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .
- ٨٢- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣ م .
- ٨٣- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٣ م .

- ٨٤- معجم المطبوعات العربية والمعربة ، يوسف سرقيس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .
- ٨٥- مفتاح العلوم ، السكاكي ، ضبطه : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٤ م .
- ٨٦- المقتضب ، المبرد ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- ٨٧- من أسرار البلاغة في القرآن ، محمد شيخون ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨٤ م .
- ٨٨- من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٩٧٨ م .
- ٨٩- من بلاغة القرآن ، محمد علوان ونعمان علوان ، الدار العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٩٨ م .
- ٩٠- الموسوعة اليمنية ، رعاية وإشراف : أحمد جابر عفيف ، مؤسسة العفيف الثقافية ، صنعاء ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط ٢ ، ٢٠٠٣ م .
- ٩١- النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
- ٩٢- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق : كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٨ م .
- ٩٣- نهاية الأرب ، النويري ، مطبوعات وزارة الثقافة .
- ٩٤- هجر العلم ومعاقلة في اليمن ، القاضي إسماعيل الأكوع ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥ م .
- ٩٥- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢ م .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
ج	إهداء
د	شكر وتقدير
هـ	المقدمة
١	المدخل : الإمام الشوكاني
١	١- اسمه ونسبه
٢	٢- شيوخه وتلاميذه
٣	٣- مكانته ومصنفاته
٣	أولاً : مكانة الشوكاني العلمية
٧	ثانياً : مصنفاته
١١	الفصل الأول : التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية
١٢	تعريف علم المعاني
١٢	مسائل علم المعاني التي تناولها الشوكاني في تفسيره
١٢	أولاً : الخبر
١٣	الأغراض البلاغية للخبر
١٧	ثانياً : الإنشاء
١٨	الإنشاء غير الطلبي
٢٢	الإنشاء الطلبي
٢٣	أولاً : الأمر
٢٣	أهم الأغراض البلاغية التي يخرج إليها الأمر
٣٨	ثانياً : الاستفهام
٣٩	الأغراض البلاغية للاستفهام
٦٩	ثالثاً : النهي وأغراضه البلاغية
٧٦	رابعاً : النداء وأغراضه البلاغية
٨٠	ثالثاً : التكرار وأغراضه البلاغية
٨٩	رابعاً : التعريف والتتكير
٨٩	١- الأغراض البلاغية للتعريف

الصفحة	الموضوع
٩٣	٢- الأغراض البلاغية للتكثير
٩٩	خامساً : التقديم والتأخير
١٠٧	سادساً : أسلوب القصر
١٠٨	١- القصر بطريق تقديم ما حقه التأخير
١١٠	٢- القصر باستخدام إنما
١١٣	٣- القصر بأنما
١١٣	٤- القصر بالنفي والاستثناء
١١٤	٥- القصر بضمير الفصل
١١٥	سابعاً : خروج الكلام عن مقتضى الظاهر
١١٥	أولاً : الالتفات
١٢٤	ثانياً : وضع الظاهر موضع المضمرة
١٣٠	ثالثاً : وضع المضمرة موضع الظاهر
١٣٠	رابعاً : التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي
١٣٢	خامساً : التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل
١٣٤	سادساً : التخليب
١٤٠	سابعاً : وضع المفرد موضع الجمع
١٤٢	ثامناً : وضع الجمع موضع المفرد
١٤٣	تاسعاً : وضع المفرد موضع المثني
١٤٤	عاشراً : وضع المثني موضع المفرد
١٤٥	الحادي عشر : وضع المثني موضع الجمع
١٤٧	الثاني عشر : وضع الجمع موضع المثني
١٤٨	الثالث عشر : أسلوب الحكيم
١٤٩	ثامناً : عطف الخاص على العام
١٥١	تاسعاً : عطف العام على الخاص
١٥٢	الفصل الثاني : الصور البيانية في تفسيره
١٥٣	أولاً : التشبيه
١٥٣	أنواع التشبيه
١٥٣	١- التشبيه البليغ

الصفحة	الموضوع
١٥٦	٢- التشبيه التمثيلي
١٦٤	٣- التشبيه المقلوب
١٦٦	٤- التشبيه الضمني
١٦٧	٥- التشبيه المركب
١٦٩	٦- تشبيه المحسوس بالمتخيل
١٧١	٧- تشبيه المعقول بالمحسوس
١٧٣	٨- تشبيه المحسوس بالمحسوس
١٧٥	٩- التشبيه المتعدد
١٧٨	ثانياً : المجاز
١٧٩	المجاز العقلي
١٨٦	المجاز المرسل
١٩٥	ثالثاً : الاستعارة
١٩٧	الاستعارة المكنية
٢٠٢	الاستعارة التبعية
٢٠٥	الاستعارة المجردة
٢٠٦	الاستعارة المرشحة
٢٠٨	الاستعارة التصريحية
٢١٠	الاستعارة التمثيلية
٢١٣	الاستعارة التخيلية
٢١٤	رابعاً : الكناية
٢٢٤	خامساً : التعريض
٢٢٩	الفصل الثالث : المحسنات البديعية
٢٣٠	التجريد
٢٣١	اللف والنشر
٢٣٤	تأكيد المدح بما يشبه الذم
٢٣٦	المماثلة
٢٤١	الاستطراد
٢٤٢	التورية

الصفحة	الموضوع
٢٤٣	المشاكلة
٢٥٠	التضمين
٢٥٤	الجناس
٢٥٥	الفصل الرابع : مكانة فتح القدير بين كتب التفسير
٢٥٥	المبحث الأول : منهجه في التفسير
٢٥٧	أولاً : ذكره السور وفضلها ومكان نزولها
٢٥٨	ثانياً : اهتمامه باللغة
٢٥٩	ثالثاً : اهتمامه بالنحو
٢٦١	رابعاً : حديثه عن أسباب النزول
٢٦٢	خامساً : علم الحديث
٢٦٤	سادساً : القراءات القرآنية
٢٦٥	سابعاً : جمعه في تفسير بين المأثور والدراية (الرأي)
٢٦٧	المبحث الثاني : منهجه البلاغي
٢٧٧	المبحث الثالث : تأثيره بالسابقين
٢٧٨	أولاً : الفراء
٢٧٨	المسائل البلاغية التي تأثر بها بالفراء
٢٧٨	١- التشبيه
٢٨٠	٢- المجاز المرسل
٢٨٠	٣- الكناية
٢٨١	٤- المشاكلة
٢٨٢	٥- التقديم والتأخير
٢٨٣	٦- خروج الأمر إلى النهي
٢٨٣	ثانياً : الزجاج
٢٨٤	المسائل البلاغية التي تأثر بها الشوكاني بالزجاج
٢٨٤	١- الاستفهام
٢٨٥	٢- الكناية
٢٨٥	٣- خروج الخبر إلى الأمر
٢٨٦	٤- المجاز المرسل

الصفحة	الموضوع
٢٨٦	٥- التقديم والتأخير
٢٨٧	٦- التشبيه
٢٨٨	ثالثاً : الزمخشري
٢٨٨	أهم المسائل التي تأثر بها الشوكاني بالزمخشري في علم المعاني
٢٨٩	١- التقديم والتأخير
٢٩١	٢- الالتفات
٢٩٣	٣- التنكير
٢٩٣	من صور تأثر الشوكاني بالزمخشري في علم البيان
٢٩٣	١- التشبيه
٢٩٦	٢- المجاز
٢٩٧	٣- الاستعارة
٣٠٠	٤- الكناية
٣٠١	من صور تأثر الشوكاني بالزمخشري في علم البديع
٣٠١	١- اللف والنشر
٣٠٢	٢- المشاكلة
٣٠٤	٣- الاستطراد
٣٠٥	٤- المماثلة
٣٠٦	رابعاً : ابن عطية
٣٠٦	أهم المسائل البلاغية التي تأثر بها الشوكاني بابن عطية
٣٠٦	١- التقديم والتأخير
٣٠٨	٢- إطلاق المفرد وإرادة الجمع
٣٠٩	٣- إطلاق الماضي وإرادة المستقبل
٣١٠	٤- الاستفهام
٣١١	٥- الإيجاز
٣١١	٦- المجاز أو الاستعارة
٣١٢	خامساً : أبو السعود
٣١٣	أهم المسائل البلاغية التي تأثر بها الشوكاني بأبي السعود
٣١٣	١- التعريف

الصفحة	الموضوع
٣١٤	٢- الإلتفات
٣١٤	٣- المجاز
٣١٥	٤- التجريد
٣١٦	المبحث الثاني : تأثيره في اللاحقين
٣١٦	أثر الشوكاني في القاسمي
٣١٧	من المسائل البلاغية التي أثر بها الشوكاني في القاسمي
٣١٧	١- الأمر
٣١٨	٢- الاستفهام
٣٢١	٣- النفي
٣٢١	٤- الإلتفات
٣٢٢	٥- وضع المظهر موضع المضمرة
٣٢٣	٦- التضمين
٣٢٤	الفصل الخامس : الوجهة البلاغية في توجيهه للقراءات القرآنية
٣٤٤	الخاتمة
٣٤٥	فهرس المراجع
٣٥١	فهرس الموضوعات